قام الطالب بتعديل الملحوظات

قام الطالب بتعديل الملحوظات

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية
كلية القرآن الكريم
قسم التفسير

حديث القرآن عن القلوب

ومنهجه في إصلاحها

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية «الماجستير»

إعــــداد

عادل بن سعد الجهني

إشــــراف

فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد عمر حوية

١٤١٤هـ

(١)

المقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة وشكر

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً أحمده تعالى وأشكره وأثنى عليه ولا أكفره، حمداً كثيراً طيباً ملء السموات وملء الأرض وملء ماشاء ربنا من شىءبعد، وشكراً بعدد نعمه التى لايحصيها إلا هو سبحانه.

والصلاة والسلام على خير الأنام محمد وعلى آله وصحبه الكرام فتح الله به القلوب وشرح به الصدور فصدق فيه قوله تعالى: (يـٰأيها النبي إنا أرسلنـٰك شـٰهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا).[١]

أما بعد:

فإننى أحمد الله العظيم الذي سلك بي طريق العلم الذى هو طريق الأنبياء والمرسلين وأقدم هذا العمل المتواضع شكراً له تعالى ليكون لبنة في بنيان الشاكرين لرب العالمين، ثم أدعو الله عز وجل أن يجزى خيراً كل من علمنى حرفاً، وأخص بالذكر هذه الجامعة المباركة والقائمين عليها من أساتذة ومسؤولين ولا يفوتنى أن أدعو الله لعلمائنا الأفاضل الذين أفدت من علمهم وجهدهم سابقاً وحاضراً وحسبى أن أقول: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمـٰن ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم).[٢]

وكذلك جزى الله خيراً كل من أعاننى على هذا العمل برأى أو إشارة أو جهد وأخص منهم فضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان الذى كان له الفضل بعد الله عز وجل في وضع خطة هذا البحث.

ثم أتقدم بالشكر العميق والدعاء الجزيل لشيخي الجليل فضيلة الشيخ محمد عمر حويه المشرف على هذه الرسالة الذى أولانى من عنايته الشىء الكثير وزين بحثى بملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة.

---

(١) الآيتان (٤٥-٤٦) من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ١٠ من سورة الحشر.

سبب اختيار الموضوع

لقد خلق الله القلب ليعقل به صاحبه الحق ومن ثم يستخدمه فيما خلق له وبناء على هذا الاستعمال تكون السعادة في الدنيا والآخرة أو يكون الشقاء فيهما والقلب هو ملك الأعضاء المتصرف فيها إن صلح صلحت وإن فسد فسدت.(١)

ولذلك فقد اهتُم به اهتماماً عظيماً في الكتاب والسنة، ومن أجل ذلك تاقت نفسي وتشوق قلبي لبحث هذا الموضوع الذى يكشف عن خبايا القلوب ويزنها بميزان الشرع العادل.

ويمكن تلخيص أسباب الاختيار في النقاط التالية:

أولاً: أهمية هذا الموضوع وترتب السعادة أو الشقاوة الأبدية عليه.

ثانياً: أن هذا الموضوع لا أعلم من كتب فيه كتابة مستقلة وافية جمع فيها جميع أطرافه على منهج علمي وسلفي قويم وإن كانت بعض جوانبه قد حظيت بذلك.

ثالثاً: إشارة بعض إخوانى على بذلك وتأييد أساتذتى الكرام.

---

(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب".
أخرجه البخارى في صحيحه ٣٤/١ كتاب الإيمان (٢) باب فضل من استبرأ لدينه (٣٩) رقم الحديث (٥٢) ومسلم في صحيحه ١٢١٩/٣-١٢٢٠ كتاب المساقاة (٢٢) باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٢٠) رقم الحديث (١٠٧/١٥٩٩).

خطـــة البحـــث

قمـــت بتقسيم هـذا البحـث إلى مقـدمة وتمهيـد وثلاثة أبواب وخاتمة وذلك على النحو التالى:

المقدمة: وتشتمل على المطالب التالية:

المطلب الأول: توطئة وشكر.

المطلب الثانى: سبب اختيار الموضوع.

المطلب الثالث: خطة البحث.

المطلب الرابع: منهجي في الرسالة.

التمهيد: ويشتمل على المطلبين التاليين:

المطلب الأول: تعريف القلب والمراد به في الكتاب والسنة.

المطلب الثانى: علاقة القلب بالعقل.

الباب الأول: حديث القرآن عن القلب السليم. وفيه فصلان:

الفصـل الأول: أوصاف القلـب السليم. وفيه اثنـان وثلاثون مبحثـاً:

المبحث الأول: الهدايـة.

المبحث الثانى: العلم.

المبحث الثالث: العبودية.

المبحث الرابع: الإيمان.

المبحث الخامس: اليقين.

المبحث السادس: المحبة.

المبحث السابع: الرجاء والخوف.

المبحث الثامن: الوجل.

المبحث التاسع: الخشوع.

المبحث العاشر: الإخبات.

المبحث الحادى عشر: الإنابة.

الخاتمة: وسأذكر فيها بإذن الله عز وجل أهم النتائج التى توصلت إليها.

منهجي في الرسالة

هذا وقد سرت في هذه الرسالة على المنهج التالي:

أولاً: عزو الآيات إلى سورها مع ذكر أرقامها.

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك وإلا خرجته من الكتب الستة ومسند الإمام أحمد أو بعضها مع ذكر من صححه أو ضعفه من الأئمة المتقدمين أو المتأخرين حسب الجهد والطاقة.

ثالثاً: تخريج الآثار الواردة.

رابعاً: ترجمة الأعلام.

خامساً: قمت بشرح الكلمات التى أرى أنها تحتاج إلى ذلك.

سادساً: قمت بإحالة كل كلام نقلته إلى مصدره ومرجعه وذلك بزيادة كلمة (انظر) للإحالة إذا كان الكلام بالمعنى وبذكر المرجع فقط إن كان الكلام حرفياً.

سابعاً: قمت بعمل فهارس لكل من الآيات والأحاديث والآثار والأعلام المترجم لهم والألفاظ الغريبة المشروحة في الهامش والأشعار والمراجع والموضوعات.

هذا وماكان من صواب فبفضل الله وتوفيقه ، وماكان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيـــد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف القلب والمراد به في الكتاب والسنة.

المطلب الثانى: علاقة القلب بالعقل.

المطلب الأول

تعريف القلب والمراد به في الكتاب والسنة

القلب في اللغة: تحويل الشيء عن وجهه، قلبه يقلبه قلباً وقد انقلب، وقلب الشيء وقلبه: حوله ظهراً لبطن.[١]

قال بعضهم: سمى القلب قلباً لتقلبه[٢] أى لتقلبه من حال إلى حال فمن موت ومرض إلى سلامة وعافية، ومن حزن وهم وغم إلى فرح وسرور وانشراح وهكذا.

والقلب يطلق لمعنيين:[٣]

أحدهما: اللحم الصنوبرى الشكل المودع في صدر الإنسان وفي باطنه تجويف يجرى فيه دم الإنسان بشكل مخصوص، وهذا مايتعلق به غرض الأطباء، ولسنا بصدد ذكر ذلك في هذه الرسالة.

الثانى: هو لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب الجسماني وهذه اللطيفة هى المدركة العالمة العارفة من الإنسان.

ولا تستطيع العقول البشرية أن تدرك علاقة هذه اللطيفة بالقلب الجسماني ولا كيفيتها كما هو الشأن في الروح.

والمراد بالقلب في الكتاب والسنة: المعنى الثانى لأنه بالمعنى الأول قطعة لحم دلت التجارب الطبية على إمكانية نقله من إنسان إلى آخر، أو الاستغناء عنه واستبداله بقطعة اصطناعية مع بقاء المعارف والأوصاف والعقائد القلبية من غير تغير عند من يفعل بهم ذلك، إلا أن له تعلقاً

---

(١) اللسان عند مادة (قلب) ٦٨٥/١، وانظر القاموس المحيط عند مادة قلب ص١٦٢
(٢) تهذيب اللغة للأزهرى ١٧٣/٩
(٣) انظر إحياء علوم الدين ٤/٣، روضة التعريف بالحب الشريف ص١١٠-١١١

خاصاً بالقلب الإنساني عجزت العقول عن إدراكه، وقد دلت على هذه العلاقة نصوص منها:

قوله تعالى: (فإنها لاتعمى الأبصٰر ولكن تعمى القلوب التى في الصدور).[١] والتي في الصدر هي تلك المضغة من اللحم.

وأصرح دلالة من هذه الآية على ماذكرت من العلاقة بين القلب المدرك والقلب الإنساني ماورد في حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أنس بن مالك[٢] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعنى ظئره)[٣] فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستبقوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.[٤]

---

(١) جزء من الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم أبوحمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدنى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلميذه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً جماً، صحب النبي صلى الله عليه وسلم أتم الصحبة ولازمه أكمل الملازمة منذ هاجر إلى أن مات، وغزا معه غير مرة وبايع تحت الشجرة، مات سنة ٩٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٣/٣٩٥، شذرات الذهب ١/١٠٠-١٠١

(٣) الظئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له. اللسان عند مادة (ظأر) ٤/٥١٤

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٤٧ كتاب الإيمان (١) باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات (٧٤) رقم الحديث (٢٦١).

المطلب الثانى

علاقة القلب بالعقل

قبل أن أذكر علاقةالقلب بالعقل لابد من تعريف العقل وبيان المراد بـه.

فالعقل في اللغة: الحبس والمنع وقد سمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أى يحبسه.(١)

وأما المراد به فقد كثر الخوض فيه.(٢)

فقيل: هو قوة يفرق بها بين حقائق المعلومات.

وقيل: هو مادة وطبيعة.

وقيل: هو جوهر بسيط.

وقيل: هو عرض يخالف سائر العلوم والأعراض.

وقيل: هو جملة العلوم الضرورية.

وقيل: هو ماحسن معه التكليف.

ونقل عن أحمد(٣) رحمه الله أنه قال: "العقل غريزة وحكمة

---

(١) انظر اللسان عند مادة (عقل) ١١/٤٥٨-٤٥٩

(٢) انظر العدة في أصول الفقه لأبي يعلى ١/٨٣ إلى ٨٨، كشف الأسرار عن أصول البزدوى ٢/٣٩٤، شرح الكوكب المنير ١/٧٩ إلى ٨٢، التمهيد لأبي الخطاب ١/٤٣ ومابعدها.

(٣) هو الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزى ثم البغدادى، أحد الأئمة الأعلام طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة في العام الذى مات فيه مالك وحماد بن زيد، عدة شيوخه الذين روى عنهم في المسند مئتان وثمانون ونيف، صاحب المذهب والتصانيف، من تصانيفه المسند وكتاب الزهد، امتحن في خلق القرآن فنصر الله به السنة، توفى عام ٢٤١هـ انظر سير أعلام النبلاء ١١/١٧٧، شذرات الذهب ٢/٩٦ـ٩٨

وفطنة".[١]

وقال أبو الحسن التميمى[٢] "ليس بجسم ولا عرض وإنما هو نور في القلب".[٣]

وقال البربهارى:[٤] "ليس العقل باكتساب وإنما هو فضل من الله"[٥]

والذى عليه جمهور الحنابلة أن العقل بعض العلوم الضرورية.[٦]

والذى يظهر لي أن العلوم الضرورية أو بعضها إنما هى من المعقول وليست هى العقل، وأما تحديد ماهية العقل فهو أمر غير ممكن كما هو الشأن في الروح إلا أننا نعرف بعض أوصافه كالقدرة على التفريق بين حقائق المعلومات، وككونه غريزة وكونه ينمى عن طريق العلم وكونه يحسن معه التكليف وغير ذلك. والله تعالى أعلم.

وأما علاقة القلب بالعقل فإن من أهل العلم من يقول: إن العقل في

---

(١) ذكره أبو يعلى في العدة وعزاه لكتاب العقل لأبي الحسن التميمي عن طريق إبراهيم الحربى عن أحمد رحمه الله تعالى. العدة لأبي يعلى ٨٥/١-٨٦

(٢) هو عبدالعزيز بن الحارث بن أسد أبو الحسن التميمى من علماء الحنابلة، صنف في الأصول والفروع والفرائض، وضع حديثاً أو حديثين في مسند أحمد، وروى الخطيب عن عمر بن المسلم أن عبدالعزيز هذا اعترف بحضرته بوضع حديث. نسأل الله العافية، توفى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة من الهجرة. انظر طبقات الحنابلة ١٣٩/٢، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ٨٠/١

(٣) التمهيد لأبي الخطاب ٤٤/١

(٤) هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهارى شيخ الحنابلة بالعراق حمل راية الإنكار على أهل البدع والمباينة لهم باليد واللسان، وكان له صيت عند السلطان، له مصنفات منها: شرح السنة، توفى عام ٣٢٩هـ. انظر طبقات الحنابلة ١٨/٢، شذرات الذهب ٣١٩/٢

(٥) العدة لأبي يعلى ٨٤/١-٨٥

(٦) انظر المسودة ص٥٥٨، والتمهيد لأبي الخطاب ٤٥/١

القلب وهذا هو قول الحنابلة.

وروى عن أحمد أنه قال: محله الرأس.[١]

وأشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله هو في الدماغ.[٢]

وهذا القول هو قول قوم من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله.[٣]

والذى تؤيده الأدلة هو القول الأول، قال تعالى: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)[٤] وأريد به العقل فدل على أن القلب محله لأن العرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان بسبب منه.[٥]

وقال تعالى أيضا: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها).[٦]

وهذه الآية تدل على أن محل العقل في القلب ومحل السمع في الأذن.[٧]

قال أبوالحسن التميمي: والذى نقول به إن العقل في القلب يعلو نوره إلى الدماغ فيفيض منه إلى الحواس ماجرى في العقل.[٨]

ولعل قول أبي الحسن رحمه الله يجمع القولين والله تعالى أعلم.

---

(١) كما ذكر ذلك أبو يعلى في العدة ٨٩/١-٩٠

(٢) كما ذكر ذلك الإمام الجراعي في شرح مختصر أصول الفقه، رسالة ماجستير ١٠٠/١

(٣) انظر المسودة ص٥٥٩

(٤) جزء من الآية ٣٧ من سورة ق

(٥) انظر العدة لأبي يعلى ٩٠/١

(٦) جزء من الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٧) وهو قول صاحب الفضيلة العلامة محمد الأمين الشنقيطى. انظر أضواء البيان ٧١٥/٥

(٨) انظر العدة لأبي يعلى ٨٩/١

الباب الأول
حديث القرآن عن القلب السليم

وفي هذا الباب فصلان:

الفصل الأول: أوصاف القلب السليم.

الفصل الثاني: أسباب سلامته.

الفصل الأول

أوصاف القلب السليم

وفي هذا الفصل اثنان وثلاثون مبحثاً:

المبحث الأول : الهداية.
المبحث الثاني: العلم.
المبحث الثالث: العبودية.
المبحث الرابع: الإيمان.
المبحث الخامس: اليقين.
المبحث السادس: المحبة.
المبحث السابع: الرجاء والخوف.
المبحث الثامن: الوجل.
المبحث التاسع: الخشوع.
المبحث العاشر: الإخبات.
المبحث الحادى عشر: الإنابة.
المبحث الثاني عشر: التقوى.
المبحث الثالث عشر: المراقبة.
المبحث الرابع عشر: الحياء.
المبحث الخامس عشر: الصدق.
المبحث السادس عشر: التوكل.
المبحث السابع عشر: الشكر.
المبحث الثامن عشر: الاعتصام.
المبحث التاسع عشر: الرأفة والرحمة.
المبحث العشرون: الاستقامة.
المبحث الحادى والعشرون: الإيثار.
المبحث الثانى والعشرون: الصفاء.
المبحث الثالث والعشرون: الفرح.
المبحث الرابع والعشرون: الغيرة.
المبحث الخامس والعشرون: التواضع.
المبحث السادس والعشرون: الطهر.
المبحث السابع والعشرون: السلامة.
المبحث الثامن والعشرون: الاطمئنان.
المبحث التاسع والعشرون: اللين.
المبحث الثلاثون: الصبر.
المبحث الحادي والثلاثون: الربط.
المبحث الثاني والثلاثون: الإخلاص.

المبحث الأول

الهدايـة

الهـدى بضـم الهاء وفتح الـدال: الـرشاد، والدلالـة وقـد هداه هدى وهدياً وهداية وهدية بكسرهما: أرشده.[١]

والهداية دلالة بلطف ومنه الهدية، فإن قيل كيف جعلت دلالة بلطف والله تعالى يقول: (فاهدوهم إلى صرٰط الجحيم)[٢] ونحوها من الآيات قيل إن ذلك على سبيل التهكم.[٣]

وقـد خص ماكان دلالة بهـديت وماكان إعطاء بأهـديت نحو أهـديت الهدية وهديت إلى البيت.[٤]

والهـداية مطلب عظيم تتطلع إليه القلوب وتتشوق إليـه الأنفس، فما أعطـى أحد عطاءً أغلى من الهـداية وماحرم أحد خيراً أعظـم من حرمانها، من يهده الله فقد فاز ورشد ومن يحرمه إياها فقد ضل وغوى.

وهـداية القلـب مطلب إيماني عظيم لايهبـه اللـه عـز وجل إلا لعبـاده المؤمنين قال تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه).[٥]

قال ابن عباس[٦] رضي الله عنهما قوله: "ومن يؤمن بالله يهد قلبه"

---

(١) انظـر لسان العرب مادة (هدي) ١٥/٣٥٣-٣٥٤، والقاموس المحيـط مادة (هدى) (ص١٧٣٣).

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة الصافات.

(٣) انظر المفردات عند مادة (هدى) (ص٥٣٨).

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) جزء من الآية ١١ من سورة التغابن.

(٦) هـو: عبدالله بن عباس بن عبـدالمطلب بن هاشم الصحابي ابن الصحـابي ابن عم رسـول الله صلى الله عليه وسلم حبرالأمـة وترجمان القـرآن توفي بالطائف سنه ٦٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٣/٣٣١، تهذيب الأسماء واللغات ١/٢٧٤

"يعنى لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه".(١)

وقال علقمة بن قيس(٢) رحمه الله تعالى "هو الرجل يصاب بالمصيبة فيعلم أنها من الله فيسلم ذلك ويرضى".(٣)

وقال ابن جرير(٤) رحمه الله عند هذه الآية: ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك "يهد قلبه" يقول: يوفق قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه.(٥)

وقال الفخر الرازي:(٦) "يهد قلبه" أى عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط(٧) ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم

---

(١) رواه ابن جرير رحمه الله في تفسيره ١٢٣/٢٨

(٢) هو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك بن علقمة بن سلامان النخعي أبو شبل فقيه الكوفة وعالمها، روى عن أبي بكر وعمر ومن بعدهما ولازم ابن مسعود، مات سنة إحدى وستين وقيل غير ذلك، وله تسعون سنة ذكره ابن حجر في الإصابة. انظر سير أعلام النبلاء ٥٣/٤، الإصابة ١١٠/٣-١١١

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢٣/٢٨، وعبدالرزاق في التفسير ٢٩٥/٢

(٤) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العلم المجتهد أبوجعفر الطبري من أهل آمل طبرستان له الكتاب المشهور في أخبار الأمم وتاريخهم وله كتاب (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) وكتاب سماه (تهذيب الآثار) وكان ثقة حافظاً صادقاً إماماً في التفسير والفقه والتاريخ وأيام الناس والقراءات واللغة وغير ذلك، توفى سنة عشر وثلاثمائة من الهجرة رحمه الله تعالى. انظر سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ حتى ٢٨٢، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ إلى ١٦٩

(٥) جامع البيان ١٢٣/٢٨

(٦) هو: محمد بن عمر بن الحسين الإمام فخر الدين الرازى القرشي البكري، المفسر المتكلم صاحب التصانيف الكثيرة التى منها تفسيره مفاتيح الغيب والذى يعتبر مرجعاً للعقيدة الأشعرية، وكتاب المحصول وغيرها، وقد رجع إلى عقيدة السلف في آخر حياته كما نقل ذلك عنه توفي عام ستة وستمائة بهراة. طبقات المفسرين للسيوطي (ص١٠٠) طبقات المفسرين للداودى ٢١٥/٢

(٧) القحط: احتباس المطر. القاموس المحيط عند مادة (قحط) (ص٨٨٠).

لقضاء الله تعالى ويسترجع[١] فذلك قوله "يهد قلبه" أى للتسليم لأمر الله ونظيره قوله تعالى:(الذين إذاأصـٰبتهم مصيبة قالوا إنالله وإناإليه رٰجعون. أولئـك عليهم صلوٰت من ربهم ورحمةوأولٰئك هم المهتدون).[٢][٣]

قال صلى الله عليه وسلم: "مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها".[٤]

ويرى العلامة السعدى[٥] رحمه الله أن لقوله تعالى: "ومن يؤمن بالله يهد قلبه" مقامين، مقاماً خاصاً ومقاماً عاماً، فالخاص في مقام المصائب وذلك أن العبد إذا أصابته مصيبة في النفس أو المال أو الأحباب هل سيقوم بالوظيفة التى عليه في هذا المقام أم لايقوم فإن قام بها فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله فرضي بذلك وسلم لأمره هدى الله قلبه فاطمأن ولم يتزعج عند المصائب

---

(١) الاسترجاع عند المصيبة: قول (إنا لله وإنا إليه راجعون) القاموس المحيط مادة (رجع) (ص٩٣١).

(٢) آيه ١٥٦ و١٥٧ من سورة البقرة.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٦/٣٠

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٦٣١/٢-٦٣٢ كتاب الجنائز (١١) باب مايقال عند المصيبة (٢) حديث رقم (٩١٨/٣).

(٥) هو: العلامة الفقيه الأصولى الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدى من بنى تميم ومن أبرز تلامذته فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله وله مؤلفات عديدة منها تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان وتوضيح الكافية الشافية لابن القيم وغير ذلك توفي رحمه الله سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة. انظر روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للشيخ محمد بن عثمان القاضي ٢١٩/١، علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٢٢/٢

كما يجرى ممن لم يهد الله قلبه بل يرزقه الله الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل مع مايدخر له يوم الجزاء من الأجر العظيم كما قال تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[١] وإن لم يقم بالوظيفة التى عليه في هذا المقام بل وقف مع مجرد الأسباب فإنه سيخذل، وسيكله الله إلى نفسه، وإذا وكله الله إلى نفسه فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد قبل عقوبة الآخرة على مافرط في واجب الصبر.

وأما المقام العام فإن الله تعالى أخبر أن كل من آمن أي الإيمان المأمور به وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره[٢] وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته.[٣]

فإن هذاالسبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله وفي علمه وعمله وهذا أفضل جزاء يعطيه اللـــــه

(١) جزء من الآية ١٠ سورة الزمر.

(٢) كما جاء ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور وفيه "قال: يارسول الله ! ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله، قال: صدقت" رواه البخارى في صحيحه ٣٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٣٧) الحديث رقم (٥٠) ومسلم في صحيحه ٤٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) الحديث رقم (١٠/٧).

(٣) لوازم الإيمان وواجباته هى الأعمال التى شرعها الله تعالى وأوجبها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)(سورة الأنفال:١) وقوله صلى الله عليه وسلم في عدد من الأحاديث: "لايؤمن أحدكم حتى.... " انظر كتاب الإيمان من(ص١١) إلى(١٤).

ومؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب القسم الثالث الفتاوى المسألة رقم ١٣ (٥٦/٤-٥٧).

لأهل الإيمان كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثبات القلب وصبره ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: (يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحيوٰة الدنيا وفي الأخرة)[١] فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات وذلك لما معهم من إيمان.[٢]

ومماسبق يتضح لنا أن هداية القلب المشار إليها بقوله تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد الله قلبه)[٣] قد فسرها السلف بعدة معان.[٤]

والذي يظهر لي أن أولى الأقوال هو قول ابن جرير رحمه الله تعالى وهو أن الهداية المقصودة في هذه الآية هى توفيق القلب إلى التسليم لأمر الله والرضا بقضائه.

وهذاالمعنى هو الذى ذهب إليه الراغب[٥] رحمه الله في المفردات.[٦]

والفيروز آبادى[٧] في بصائر ذوى التمييز.[٨]

---

(١) جزء من الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٨/١٣٤-١٣٥

(٣) جزء من الآية ١١ من سورة التغابن.

(٤) وهى المعاني التى سبق ذكرها آنفاً عن ابن عباس وعلقمة بن قيس رضى الله عنهما وعن ابن جرير والرازى والسعدى رحمهم الله تعالى.

(٥) هو: العلامة الماهر أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني الملقب بالراغب من مصنفاته كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة والمفردات في غريب القرآن، توفى في السنة الثانية بعد الخمسمائة من الهجرة. انظر سير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨، معجم المؤلفين ٥٩/٤

(٦) المفردات عند مادة (هدى) ص٥٣٨

(٧) هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر أبوطاهر مجدالدين الشيرازي الفيروز آبادى من أئمة اللغة والأدب والحديث والتفسير توفي في الزبيد سنة ٨١٧هـ، أشهر كتبه القاموس المحيط، المغانم المطابة، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. انظر البدر الطالع (٢٨٠/٢) وكشف الظنون ١٦٥٧

(٨) بصائر ذوي التمييز ٣١٤/٥

وأمـا مـاذكره السلف من معـانٍ أخرى فـإنما هـو ذكـر لثمـرات هذه الهداية والله أعلم، واعلم أن الهداية أربعة أُضرب[١] وهي كالتالى:

الضـرب الأول: الهـداية التى عـم بهـا كـل مكلف من العقـل والفطنـة والمعـارف الضرورية بل عم بهـا كل شيء للقيام بما يصلـح حالـه كما قال تعـالى : (قال ربنا الـذي أعطى كل شيء خلقـه ثم هدى)[٢] وقال تعالى: (والذي قدر فهدى).[٣]

الضرب الثاني: هـداية الإرشـاد والبيـان وهـى التى جعـل اللـه للناس بدعـائه إياهـم على ألسنة رسلـه ومن أجلها أنزل الكتـب، وهـى المقصودة بقوله تعالى: (وإنك لتهدى إلى صرٰط مستقيم)[٤] وهذا الضرب من الهداية لايستلـزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شـرطاً فيه أو جزء سبب وذلـك لايستلزم حصول المشـروط والمسبب بل قد يتخلـف عنه المقتضى[٥] إمـا لعـدم كمـال السبب أو لـوجود المانع ولهـذا قـال تعـالى: (وأمـا ثمود فهدينـٰـهم فاستحبوا العمى على الهدى).[٦]

الضرب الثالث: هداية التوفيق والإلهام وهى أخص من التى قبلها وهى المعنيـة بقـوله تعالى: (مـن يهد اللـه فهـو المهتد)[٧] وبقـوله تعـالى: (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)[٨] وهذا النوع من الهداية

---

(١) انظر شفاء العليل من ص٦٥ إلى٨٥، بصائر ذوى التمييز ٥/٣١٣-٣١٤
(٢) سورة طه آيه ٥٠
(٣) سورة الأعلى آيه ٣
(٤) جزء من الآية ٥٢ من سورة الشورى.
(٥) المراد بالمقتضى: الهداية التى يقتضيها إرسال الرسل وإنزال الكتب.
(٦) جزء من الآية ١٧ من سورة فصلت.
(٧) جزء من الآية ١٧ من سورة الكهف.
(٨) جزء من الآية ٥٦ من سورة القصص.

خاص بالله عز وجل وحده.

الضرب الرابع: الهداية إلى الجنة أو النار يوم القيامة، قال تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزوٰجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صرٰط الجحيم).[١]

وقال تعالى: (وقالوا الحمد لله الذي هدٰنا لهٰذا).[٢] فالأولى هداية إلى النار والثانية هداية إلى الجنة.

وهذه الهدايات الأربع بعضها رتب على بعض فإن من لم تحصل له الأولى لم تحصل له الثانية، ومن لم تحصل له الثانية لم تحصل له الثالثة والرابعة.

ومما يحسن ذكره أن ماسياتي من أوصاف حميدة للقلب المؤمن كالاطمئنان والسكينة والوجل والإخبات وغير ذلك إنما هو من ثمرات هداية التوفيق وإنما أفردتها بالذكر للأمور التالية:

أولا: أن هذه الأوصاف قد ذكرت بالتفصيل في كتاب الله عز وجل.

ثانيا: حتى أستوعب بقدر الإمكان عند كل وصف ماقيل فيه.

ثالثا: لأن القلب المهتدى قد يتصف ببعضها دون البعض الآخر تبعاً لدرجة هدايته.

والله ولى التوفيق.

---

(١) الآيتان ٢٢ و٢٣ من سورة الصافات.

(٢) جزء من الآية ٤٣ سورة الأعراف.

المبحث الثاني

العلم

العلم نقيض الجهل[١] وهو إدراك الشيء بحقيقته وذلك ضربان:

أحدهما: إدراك ذات الشيء.

والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفى عنه.

فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد نحو قوله تعالى: (لاتعلمونهم الله يعلمهم)[٢] والثانى هو المتعدي إلى مفعولين نحو قوله تعالى: (فإن علمتموهن مؤمنٰت).[٣][٤]

والعلم إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعها في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليها فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدودة عليه سبل الهدى والفلاح مغلقة عنه أبوابها، ولم ينه عنه إلاقطاع الطريق ونواب إبليس وشرطه.

فالعلم هاد والحال الصحيح مهتد به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووراثهم.[٥] وهوحياةالقلوب، ونورالبصائر، وشفاءالصدور،

---

(١) اللسان عند مادة (علم) ٤١٧/١١

(٢) جزء من الآية ٦٠ سورة الأنفال.

(٣) جزء من الآية ١٠ سورة الممتحنة.

(٤) المفردات مادة (علم) ص٣٤٣

(٥) كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه "...إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يرثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر" رواه أحمد في المسند واللفظ له ١٩٦/٥، وأبو داود في السنن ٥٧/٤-٥٨ كتاب العلم (١٩) باب الحث على طلب العلم (١) الحديث (٣٦٤١) والترمذى في السنن ٤٨/٥-٤٩ كتاب العلم (٤٢) باب ماجاء في فضل الفقه ==

ورياض العقول ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليـل المتحيرين، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشـك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال. به يعـرف الله، ويعبد، ويذكر، ويوحد، ويحمد، ويمجد. به اهتدى إلى الله السـالكون، ومن طريقه وصـل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعـرف الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضى الحبيـب وبمعـرفتها ومتـابعتهـا يوصـل إليه من قريب، وهـو إمـام والعمـل مأموم، وهو قائدوالعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة والغنى الذي لافقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لاضيعة على من آوى إلى حرزه.

طلبـه قـربة وبذلـه صـدقـة والحاجة إليـه أعظـم منهـا إلى الشـراب والطعام.

وقـد استشهـد اللـه عز وجل بأهـل العلم على أجل مشهـود به وهـو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته[1] وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه سبحانه وتعالى لايستشهد بمجروح.[2]

(=) على العبادة (١٩) الحديث (٢٦٨٢) وابن ماجه في السنن ٨١/١ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (١٧) الحديث (٢٢٣).
وصححـه الشيخ ناصرالدين الألبـاني في صحيح الجامع ١٠٧٩/٢ الحديث (٦٢٩٧-٢١١٧).

(١) كمـا في قـوله تعالى: (شهد اللـه أنه لا إلـه إلا هو والملـئكة وأولـوا العلم قـائماً بالقسط لا إلـه إلا هو العزيز الحكيم) (١٨- آل عمران).

(٢) انظر مدارج السالكين ٤٦٤/٢- ٤٧١ **بتصرف** .

وقد جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وغير نافع والاستعاذة من العلم الـذي لاينفع وسؤال العلم النـافع، كما جاء في حديث زيد بن أرقـم[١] أن النبي صلى اللـه عليه وسلم كـان يقول: "اللهم إني أعـوذ بك من علم لاينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع ومن دعوة لايستجاب لها".[٢]

وليـس العلم بكثرة الـرواية ولا بكثرة المقـال ولكنـه نور يقـذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل.

والعلم النافع[٣] من العلوم كلها: ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معـانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عـن الصحابة والتابعين وتابعيهـم في معـاني القـرآن والحديث وفيمـا ورد عنهـم مـن الكلام في مسـائل الحلال والحرام والـزهد والـرقائق والمعارف وغير ذلـك والاجتهـاد على تمييز صحيحـه مـن سقيمـه أولاً ثم الاجتهـاد على الـوقوف على معانيه وتفهمـه ثانيـاً وفي ذلك كفـاية لمن عقـل، وشغـل لمن بالعلم عنى واشتغـل، ومـن وقـف على هـذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليـه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمراته.[٤]

وأعظم ثمرات العلم الإيمان، قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتـٰب منـه ءايـٰت محكمـٰت هن أم الكتـٰب وأخر متشـٰبهـٰت فـأماالذين في قلـوبهم

---

(١) هـو: زيد بن أرقـم بن زيد بن قيـس بن النعمـان بن مـالك الأغـر الخزرجي الأنصارى من مشاهير الصحابة شهد غزوة مؤتة وغيرها، وله عدة أحاديث، مات بالكـوفة سنـة ثمان وستين. انظـر سير أعلام النبلاء ١٦٥/٣، تهـذيب التهـذيب ٣٩٤/٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٨٨/٤ كتاب الذكر (٤٨) باب التعوذ من شر ماعمل (١٨) الحديث (٢٧٢٢/٧٣).

(٣) لعـل المراد النفع المحض الذى لا شر فيه بخلاف بقية العلـوم فإن نفعها مشوب.

(٤) انظربيان فضل علم السلف على علم الخلف من (ص٢٢) إلى (ص٧١).

زيغ فيتبعون ماتشٰبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والر'سخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب).[١]

وقد كان عروة بن الزبير[٢] يقول في هذه الآية: إن الراسخين في العلم لايعلمون تأويله ولكنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.[٣]

وعن ابن أبي مليكة[٤] قال قرأت عائشة[٥] هؤلاء الآيات (هو الذى أنزل عليك الكتٰب) إلى قوله (ءامنا به) قالت: "كان من رسوخهم في العلم أن

---

(١) سورة آل عمران آيه ٧

(٢) هو: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى بن كلاب بن حوارى الرسول صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية، عالم المدينة، وأحد الفقهاء السبعة حدث عن أبيه وعن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها وعن خالته عائشة رضى الله عنها وعن غيرهم، توفى وهو صائم سنة أربع وتسعين من الهجرة. انظر سير أعلام النبلاء ٤٢١/٤، شذرات الذهب ١٠٣/١

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عند قوله تعالى: (والراسخون في العلم) الجزء الثاني القسم الأول من سورة آل عمران بتحقيق الدكتور حكمت بشيرياسين ص٧٥

وقد حكم الشيخ المحقق على إسناده بالحسن.

(٤) هو: عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة، زهير بن عبدالله بن جدعان الإمام الحجة الحافظ أبوبكر وأبومحمد القرشي التيمي كان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان حدث عن عدد من الصحابة، توفى سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة. انظر سير أعلام النبلاء ٨٨/٥، شذرات الذهب ١٥٣/١

(٥) هي: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة القرشية التيمية زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وأفقه نساء الأمة على الإطلاق تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل مهاجرة بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد ودخل بها وهي ابنة تسع سنين بالمدينة حدث عنها خلق كثير توفيت سنة سبع وخمسين وقيل ثمان وخمسين من الهجرة رضى الله عنها وأرضاها. انظر سير أعلام النبلاء ١٣٥/٢، أعلام النساء ٩/٣

آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولا يعلمونه".(١)(٢)

وقال تعالى أيضا: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صرٰط مستقيم).(٣)

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره الجزء الثاني القسم الأول من سورة آل عمران بتحقيق الدكتور حكمت بشير ياسين (ص٧٦) وقد حكم المحقق على إسناده بالصحة.

(٢) وهذان الأثران يتوجهان على قراءة القطع كما هو رأى الجمهور أن الواو الأولى في قوله تعالى: (والراسخون) استئنافية و(الراسخون) مبتدأ وخبره جملة يقولون. وعليه فالمتشابه لايعلم تأويله إلا الله وحده والوقف على لفظ الجلالة تام وممن قال بذلك عمر وابن عباس وعائشة وابن مسعود وأبي بن كعب رضى الله عنهم أجمعين وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز ونقله يونس عن أشهب عن مالك بن أنس وهو مذهب الكسائى والأخفش والفراء وأبي عبيد رحمهم الله تعالى.

والقول الثاني: أن الواو عاطفة والراسخون في العلم معطوف على لفظ الجلالة وعليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون في العلم أيضاً وممن قال بذلك ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد رحمهم الله تعالى وغيرهم.

وقال بعض أهل العلم: والتحقيق في هذا المقام أن الذين قالوا هى عاطفة جعلوا معنى التأويل التفسير وفهم المعنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه لابن عباس "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" رواه أحمد في المسند ٢٦٦/١ وصححه أحمد شاكر ٢٣٩٨/٣ حديث رقم (٢٣٩٧)، والمراد بالتأويل التفسير وفهم معاني القرآن والراسخوان في العلم يفهمون ماخوطبوا به وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ماهى عليه والذين قالوا هى استئنافية جعلوا معنى التأويل حقيقة مايؤول إليه الأمر وذلك لايعلمه إلا الله. انظر جامع البيان ١٨٢/٣-١٨٣-١٨٤، الجامع لأحكام القرآن ١٦/٤-١٧-١٨، تفسير القرآن العظيم ٧/٢-٨-٩، أضواء البيان ٢٣٥/١ إلى ٢٣٨

(٣) سورة الحج آيه ٥٤

قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزل الله من آياته التى أحكمها لرسوله ونسخ ما ألقى الشيطان فيه أنه الحق من عند ربك يامحمد فيؤمنوا به، يقول: فيصدقوا به فتخبت له قلوبهم، يقول: فتخضع للقرآن قلوبهم، وتذعن بالتصديق به والإقرار بما فيه (وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صرٰط مستقيم) وإن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحق القاصد والحق الواضح بنسخ ماألقى الشيطان في أمنية رسوله فلا يضرهم كيد الشيطان.(١)

ومن ثمرات العلم أيضاً خشية الله تعالى، قال عز وجل: (إنما يخشى الله من عباده العلمٰؤا).(٢)

قال بعض السلف: ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية.

وقال بعضهم: من خشى الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل. وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً.(٣)

وسبب ذلك أن العلم النافع يدل على أمرين:

الأول: على معرفة الله عز وجل ومعرفة ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

والثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه ومايكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة، والأقوال والمعرفة بأسباب العقاب والآلام(٤)

---

(١) جامع البيان ١٩١/٧-١٩٢

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٣) انظر بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص٧٢).

(٤) وقد قسم صاحب تفسير المنار العقاب الإلهي إلى قسمين: ==

فيـوجب ذلـك لمن علمه تقوى اللـه عـز وجل والمسارعـة إلى مـافيه محبتـه ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه.

فـإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، ومتى كـان العلم نافعاً ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له وذل هيبة وإجلالاً وخشية ومحبة وتعظيماً.(١)

(=) الأول: دنيوي وجعل سببه مخالفة سنة الله تعالى في نظام خلقه غالباً.
الثاني: أخروي وجعل سببه مخالفة دين الله وشرعه.
انظر تفسير المنار ١/١٢٥-١٢٦

(١) انظر بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص٤٦

المبحث الثالث

العبودية

وأصل العبودية الخضوع والتذلل[١]، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال عز وجل: (ألا تعبدوا إلا إياه).[٢]

والعبادة ضربان عبادة بالتسخير وعبادة بالاختيار وهي المأمور بها في الآية السابقة وقوله تعالى: (اعبدوا ربكم)[٣] وقوله كذلك (واعبدوا الله).[٤]

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع[٥] وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه نحو قوله تعالى:(والعبدبالعبد)[٦] وقوله تعالى:(عبداًمملوكاً لايقدر على شيء).[٧]

الثاني: عبد بالإيجاد وإياه قصد بقوله تعالى: (إن كل من في السمٰوٰت والأرض إلاءاتي الرحمٰن عبداً).[٨]

الثالث : عبد بالعبادة والناس في هذا ضربان:

الأول: عبد لله مخلص وهو المقصود بقوله تعالى: (سبحٰن الذى أسرى

---

(١) اللسان عند مادة (عبد) ٢٧١/٣

(٢) جزء من الآية (٤٠) سورة يوسف.

(٣) جزء من الآية (٢١) سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية (٣٦) سورة النساء.

(٥) العبودية في الاصطلاح عجز حكمى يقوم بالإنسان سببه الكفر. انظر حاشية العلامة البقري على شرح الماردينى للرحبية.

(٦) جزء من الآية (١٧٨) سورة البقرة.

(٧) جزء من الآية (٧٥) سورة النحل.

(٨) سورة مريم آيه (٩٣).

بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذى بٰركنا حوله لنريه من ءايٰتنا إنه هو السميع البصير)[١] وبقوله تعالى: (تبارك الذي نّزل الفرقان على عبده)[٢] وقوله تعالى: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه)[٣] وغير ذلك من الآيات.

والثاني: عبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على تحصيلها وجمعها مهما كلفه ذلك من دينه وعقيدته، وإياه قصد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "تعس[٤] عبدالدينار وعبدالدرهم وعبدالخميصة[٥] إن أعطي رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس[٦] وإذا شيك فلا انتقش".[٧][٨]

وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبداً لله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد.

---

(١) سورة الإسراء آيه (١).

(٢) جزء من الآية (١) سورة الفرقان.

(٣) جزء من الآية (٤١) سورة ص.

(٤) تعس: يقال تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٠/١

(٥) الخميصة: هى ثوب خز أو صوف معلم، وقيل لاتسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمه، وكانت من لباس الناس قديماً، وجمعها الخمائص. النهاية في غريب الحديث والأثر ٨١/٢

(٦) انتكس: أى انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة، لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر. النهاية في غريب الحديث والأثر ١١٥/٥

(٧) وإذا شيك فلا انتقش: أى إذا دخلت فيه شوكة لا أخرجها من موضعها. النهاية في غريب الحديث والأثر ١٠٦/٥

(٨) رواه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ٣٢٨/٢ في كتاب الجهاد (٥٦) باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٧٠) رقم الحديث (٢٨٨٧) وأخرجه أيضاً في ٢٥٣/١١ كتاب الرقاق (٨١) باب ماتبقى من فتنة المال وقول الله تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) (١٠) حديث رقم (٦٤٣٥).

وجمع العبد الذي هو مسترق عبيد، وقيل عِبِدَّا، وجمع العبد الذي هو العابد عباد ولهذا قال تعالى: (وما أنا بظلّٰمٍ للعبيد)[١] فنبه أنه لايظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك.[٢]

وللقلب في هذا الوصف العظيم المبارك حتى يبلغ تمامه منازل:

فأول منازله: اليقظة:

وهي انزعاج القلب لروعة[٣] الانتباه من رقدة الغافلين. ولله ماأنفع هذه الروعة، وماأعظم قدرها وخطرها. وماأشد إعانتها على السلوك. فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح وإلا فهو في سكرات الغفلة. فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سبي منها.

فحيَّ على جنات عدن فإنها — منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى — نعود إلى أوطاننا ونسلم[٤]

وقد ذم الله تعالى الغافلين في كتابه الكريم فقال تعالى: (أولٰئك كالأنعٰم بل هم أضل أولٰئك هم الغٰفلون)[٥] وقال تعالى: (أولٰئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصٰرهم وأولٰئك هم الغٰفلون).[٦]

وتوعدهم بالنار في قوله تعالى: (والذين هم عن ءايٰتنا غٰفلون أولٰئك مأوٰهم النار بما كانوا يكسبون).[٧]

---

(١) جزء من الآية ٢٩ سورة ق.

(٢) انظر المفردات ص٣١٩ عند مادة (عبد).

(٣) الروعة: الفزعة. انظر القاموس المحيط عند مادة (روع) ص٩٣٤

(٤) انظر مدارج السالكين ١٢٣/١

(٥) جزء من الآية ١٧٩ سورة الأعراف.

(٦) آية ١٠٨ من سورة النحل.

(٧) الآيتان ٧و٨ من سورة يونس.

وكلما تأخر الزمان قل أهل اليقظة وكثر أهل الغفلة، قال تعالى: (وإن كثيراً من الناس عن ءايٰتنا لغٰفلون).[١]

وأهل اليقظة هم الغرباء المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء".[٢]

وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحث على هذه الغربة لابن عمر[٣] رضي الله عنه بعد أن أخذ بمنكبه: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك".[٤]

وقد قيل في معنى هذا الحديث:

أيها الغافل في ظل نعيم وسرور

كن غريباً واجعل الدنيا سبيلاً للعبور

واعدد النفس طوال الدهر من أهل القبور

وارفض الدنيا ولاتركن إلى دار الغرور[٥]

---

(١) جزء من الآية ٩٢ من سورة يونس.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ١٣٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين (٦٥) حديث رقم (١٤٥/٢٣٢).

(٣) هو: الصحابى الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل أبو عبدالرحمن القرشي العدوى المكى ثم المدني أسلم وهو صغير وهاجر مع أبيه وهو لم يحتلم وكانت أول غزواته الخندق وهو ممن بايع تحت الشجرة، روى علماً نافعاً كثيراً عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن كبار الصحابة، وروى عنه خلق كثير، توفى آخر سنة ثلاث وسبعين بمكة رضى الله عنه وأرضاه. انظر سير أعلام النبلاء ٢٠٣/٣، الإصابة ٣٤٧/٢

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٣٣/١١ كتاب الرقاق (٨١) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: كن في الدنيا كأنك غريب... (٣) حديث رقم (٦٤١٦).

(٥) هذه الأبيات ذكرها الآجرى في كتابه صفةالغرباء من المؤمنين (ص٣٥-٣٦) ==

قــال ابن القيم[١] رحمـه اللـه تعـالى في كتـابه مـدارج السـالكين[٢] وصاحب المنازل[٣] يقـول -يعنى عن اليقظة- هى القومة للـه المذكورة في قوله تعالى: (قل إنما أعظكم بوٰحدة أن تقوموا لله مثنىٰ وفرٰدىٰ).[٤]

قال ابن كثير[٥] رحمـه الله عند هذه الآية: يقول تعالى: قـل يامحمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: (إنما أعظكم بوٰحدة) أى إنما آمـركم بواحدة وهي: "أن تقوموا قياماً خالصاً لله من غير هوى ولاعصبية، فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضا (ثم تتفكروا) أى ينظر الرجل بنفسه في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إذا أشكل عليه ويتفكر في ذلك ولهذا قال تعالى: (أن تقوموا لله مثنىٰ وفرٰدىٰ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة).

(=) وعزاها إلى أبي بكر عبدالله بن حميد المؤدب.

(١) هـو الإمام الفذ محمد بن أبي بكـر بن سعد الزرعي الدمشقـى أبو عبدالله شمس الـدين ابن قيم الجوزية من أركان الإصلاح وكبار العلمـاء ولد وتوفي في دمشق تتلمـذ بشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لايخرج غالباً عن شيء من أقواله وهذب كتبـه ونشـر علمه وكان حسن الخلـق محبـوباً وألف تصانيـف كثيرة منهـا: أعلام الموقعين، الطرق الحكمية، زاد المعاد، الصواعق المرسلة وغيرهـا، توفي سنة ٧٥١هـ. انظر الدرر الكامنة ٤٠٠/٣، شذرات الذهب ١٦٨/٦

(٢) مدارج السالكين ١٤٠/١-١٤١

(٣) صـاحب المنـازل هو الشيخ أبو إسمـاعيل عبـدالله بن محمـد بن علي الأنصـارى الهروي الحنبلي، المتوفى سنة ٤٨١هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥٠٣/١٨

(٤) جزء من الآية ٤٦ من سورة سبأ.

(٥) هـو: العلامـة الكبير إسمـاعيـل بن عمـر بن كثير القرشـي الـدمشقي أبوالفـداء عمـادالدين حافظ مؤرخ فقيه مفسـر، ولد في قرية من أعمـال بصرى، ورحل في طلـب العلم وتوفي بدمشـق تنـاقل النـاس تصـانيفه في حيـاته مـن كتبـه: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم وغيرها، توفى سنة ٧٧٤هـ. انظـر شذرات الذهب ٢٣٣/٦، البدر الطالع ١٥٣/١

هذا معنى ماذكره مجاهد[١] ومحمد بن كعب[٢] والسدى[٣] وقتادة[٤] وغيرهم وهذا هو المراد من الآية.[٥][٦]

(١) هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي مولاهم، وهو تابعى إمام متفق على جلالته وإمامته، مشهور وهو إمام في الفقه والتفسير والحديث من كبار تلاميذ ابن عباس رضى الله عنهما، ومناقبه كثيرة، توفى سنة ١٠١هـ وله ٨٣ سنة. انظر سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٤، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٨٣/٢

(٢) هو: محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة وقيل أبو عبدالله القرظي المدني من حلفاء الأوس، كان أبوه كعب من سبي بني قريظة، سكن الكوفة ثم المدينة من كبار التابعين وأئمتهم وكان من أئمة التفسير. انظر سير أعلام النبلاء ٦٥/٥، شذرات الذهب ١٣٦/١

(٣) هو: إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة الأمام المفسر أبو محمد الحجازى ثم الكوفى السدى الكبير أحد موالى قريش، قال الذهبي: وقد قال اسماعيل بن أبي خالد: كان السدى أعلم بالقرآن من الشعبي رحمهما الله، توفى سنة ١٢٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٢٦٤/٥، طبقات المفسرين للداودى ١١٠/١

(٤) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبوالخطاب السدوسي البصرى الضرير الأكمه روى عن أئمة الإسلام كالأوزاعى والسختياني وشعبة وغيرهم وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع فهو مدلس معروف بذلك وكان يرى القدر نسأل الله العفو وكان عدلاً حافظاً صادقاً. انظر سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥، شذرات الذهب ١٥٣/١

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥١٢/٦

(٦) وقد ذكر ابن كثير رحمه الله الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "أعطيت ثلاثاً لم يعطهن من قبلي ولافخر أحلت لى الغنائم ولم تحل لمن قبلى كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها، وبعثت إلى كل أحمر وأسود كان كل نبي يبعث إلى قومه وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً أتيمم بالصعيد وأصلى حيث أدركتنى الصلاة قال الله تعالى: (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) وأُعِنْتُ بالرعب مسيرة شهر بين يدى".
ثم قال ابن كثير بعد ذكره لهذا الحديث: وهو حديث ضعيف الإسناد وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى ضعيف. ولعله مقحم في الحديث من بعض الرواة فإن أصله ثابت في الصحاح وغيرها والله أعلم. تفسير القرآن العظيم ٥١٢/٦-٥١٣

==

وثاني منازل العبودية: العزم

وهو العقد الجازم على المسير ومفارقة كل قاطع ومعوق ومرافقة كل معين وموصل وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.(١)

فالعزم مصاحب لليقظة، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها والخور مصاحب للغفلة يقوى بقوتها ويضعف بضعفها، ولذلك سُمى أولوا العزم من الرسل بذلك.(٢) وماذاك إلا لعظم يقظة قلوبهم التى أوجبت لهم الصبر على ماكانوا يلقونه من مشاق في طريق الدعوة قال تعالى: (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل).(٣)

قال صاحب الظلال(٤) عند هذه الآية: ألا إنه لطريق شاق طريق هذه

(=) وانظر أصل الحديث في صحيح البخارى ١٢٦/١ كتاب التيمم (٧) باب (١) حديث رقم (٣٣٥) ومسلم في صحيحه ٣٧٠/١ كتاب المساجد (٥) حديث رقم (٥٢١/٣) وليس فيه ذكر للآية.

(١) مدارج السالكين ١٢٣/١

(٢) أولوا العزم من الرسل هم محمد صلى الله عليه وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.
وقد ذكروا مجتمعين في قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيّن ميثقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) (الأحزاب: ٧).
وقوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)، (الشورى: ١٣).
انظر معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد للشيخ حافظ الحكمي ٩٩/٢

(٣) جزء من آية ٣٥ سورة الأحقاف.

(٤) هو: سيد بن قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصرى من مواليد قرية موشا في أسيوط تخرج بكلية دار العلوم وعمل في جريدة الأهرام وعين مدرساً للعربية وعكف على تأليف الكتب ونشرها وهى كثيرة مطبوعة متداولة منها ==

الـدعوة، وطريق مرير حتى لتحتاج نفس كنفس محمد صلى اللــه عليه وسلم في تجردهـا وانقطاعها للدعوة، وفي ثبـاتها وصلابتها، وفي صفـائها وشفافيتها. تحتـاج إلى التـوجيه الرباني بالصبر وعـدم الاستعجـال على خصـوم الـدعوة المتعنتين.[١]

ثالثة منازل العبودية: الفكرة

وهي تحديق[٢] القلـب نحو المطلوب، الذى قد استعد لـه مجملا، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه.[٣]

فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة **وهى المنزلة الرابعة** وهى نور في القلـب يبصـر به الـوعد والـوعيد والجنـة والنـار، ومـا أعـد اللـه في هذه لأوليـائه وفي هذه لأعدائه، فـأبصر الناس وقد خرجوا مـن قبورهم مهطعين لدعوة الحق وقد نزلت ملائكـة السموات فأحاطت بهـم، وقد جاء الله وقد نصـب كـرسيه لفصل القضاء، وقـد أشـرقت الأرض بنـوره ووضـع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نصب الميزان وتطايرت الصحـف، واجتمعت الخصـوم، وتعلق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض وأكـوابه عن كثب، وكثر العطـاش، وقل الوراد، ونصب الجسر للعبـور، ولُزّ[٤] الناس إليه، وقسمـت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يحطم بعضهابعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

(=) النقـد الأدبي، العدالة الاجتمـاعية، التصوير الفني في القـرآن، في ظلال القـرآن، كتب وشخصيات وغيرها، صدر الأمر بقتله وقُتِل سنة ١٣٨٧هـ.
انظر الأعلام للزركلى ١٤٧/٣

(١) في ظلال القرآن ٣٢٧٦/٢٦

(٢) التحديق: شدة النظر. القاموس المحيط مادة (حدق) (ص١١٢٧).

(٣) مدارج السالكين ١٢٣/١

(٤) لزه لزاً ولززاً: شده وألصقه. القاموس المحيط مادة (لزز) (ص٦٧٣).

فتنفتح في قلبه عين يرى بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة، ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها.

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ماأخبرت به الرسل، كأنه يشاهده رأى عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: (البصيرة تحقق الانتفاع بشيء، والتضرر به) وقال بعضهم: (البصيرة ماخلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان).(١)

قال تعالى: (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ).(٢)

قال ابن كثير رحمه الله: البصائر هي البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم (فمن أبصر فلنفسه) مثل قوله: (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها)(٣) ولهذا قال: (ومن عمي فعليها) فلما ذكر البصائر قال: (ومن عمي فعليها) أى إنما يعود وبال ذلك عليه.(٤)

قال الراغب رحمه الله: ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، نحو قوله تعالى: (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)(٥) وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر.(٦)

وقد أخبر الله عز وجل في الآية السابقة أن غطاء الغفلة والذهول

---

(١) مدارج السالكين ١/١٢٣-١٢٤

(٢) آيه ١٠٤ سورة الأنعام.

(٣) جزء من الآية ١٥ سورة الإسراء.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٥

(٥) جزء من الآية ٢٢ سورة ق.

(٦) المفردات عند مادة (بصر) ص٤٩

يكشف عن العبد في ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.(١)

والبصيرة على ثلاث درجات من استكملها فقد استكمل البصيرة:

بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

الدرجة الأولى: البصيرة في الأسماء والصفات:

وهي ألا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ماوصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواء عند أهل البصائر، وتفاوت الناس في هذه البصائر بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها، وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف وذلك لجهل أهل الكلام بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم، وإذا تأملت حال العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم رأيتهم أتم بصيرة منهم وأقوى إيمانا وأعظم تسليماً للوحي وانقياداً للحق.

الدرجة الثانية: البصيرة في الأمر والنهى:

وهي تجريده عن المعارض بتأويل أو تقليد أو هوى فلا تقوم بقلبه شبهة تعارض أمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقى الأحكام من مشكاة النصوص.

---

(١) الفوائد ص٢٤

الدرجة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد:

وهي أن تشهد قيام الله عز وجل على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، عاجلاً وآجلاً في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته، بل شك في وجوده، فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملا، وتركها سدى، تعالى الله عن هذا الحسبان[١] علوا كبيراً، فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية، ولهذا كان الصحيح أن المعاد معلوم بالعقل، وإنما اهتدي إلى تفاصيله بالوحي، ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به لأنه إنكار لقدرته وإلٰهيته، وكلاهما مستلزم للكفر به، قال تعالى: (وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنا ترٰبا أءنا لفى خلق جديد أولٰئك الذين كفروا بربهم وأولٰئك الاغلٰل في أعناقهم وأولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون)[٢] وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد، فعجب قولهم ! كيف يذكرون هذا وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئا.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لاشريك له، فإنكارهم للبعث وقولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أعجب.وعلى كلاالتقديرين فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به والجحد لإلهيته وقدرته وحكمته وعدله وسلطانه.[٣]

---

(١) وهذا الحسبان هو الوارد في قوله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقنٰكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون)، (المؤمنون: ١١٥).

(٢) الآية (٥) من سورة الرعد.

(٣) انظر مدارج السالكين ١/١٢٤-١٢٦

والبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل وبين الصادق والكاذب[١]، قال الله تعالى: (إن في ذٰلك لآيٰت للمتوسمين)[٢] أخرج الترمذى[٣] من حديث أبي سعيد الخدرى[٤] رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل ثم قرأ (إن في ذٰلك لأيٰت للمتوسمين)".[٥]

وفي هذه الآية يبين تعالى أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب الذى أنزل بقوم لوط لما عصوه، وكذبوا رسوله، ويبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله تعالى في سورة العنكبوت:

---

(١) مدارج السالكين ١٢٩/١

(٢) آية ٧٥ من سورة الحجر.

(٣) هو: محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذى أبو عيسى من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ تتلمذ للبخارى وشاركه في بعض شيوخه وقام برحلة إلى بلاد خراسان والعراق والحجاز وعمي في آخر عمره وضرب به المثل في الحفظ، مات بترمذ سنة ٢٧٩هـ، من كتبه: الجامع الكبير، الشمائل النبوية، التاريخ، العلل في الحديث. انظر تذكرة الحفاظ ٦٣٣/٢، تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩

(٤) هو: سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجي أبو سعيد صحابى جليل كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة غزا اثنتى عشرة غزوة وله (١١٧٠) حديث ، توفى في المدينة سنة ٧٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٦٨/٣، الإصابة ٣٢/٢

(٥) رواه الترمذى في الجامع الصحيح ٢٩٨/٥ في كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب (١٦) حديث رقم (٣١٢٧) وقال الترمذى: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روى عن بعض أهل العلم.

وقد ضعفه الشيخ الألبانى في السلسلة الضعيفة ٢٩٩/٤ حديث رقم (١٨٢١).

(ولقد تركنا منهاءاية بينة لقوم يعقلون)[١] وقوله في سورة الذاريات: (وتركنا فيها ءاية للذين يخافون العذاب الأليم)[٢] وقوله هنا: (إن في ذٰلك لأيٰت للمتوسمين) وقوله في سورة الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط (إن في ذلك لأية وما كان أكثرهم مؤمنين).[٣]

كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في سورة الشعراء[٤] وقوله (للمتوسمين) أصل التوسم تفعل من الوسم، وهو العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيرها، يقال توسمت فيه الخير، إذا رأيت ميسمه فيه أي علامته التى تدل عليه، ومنه قول عبدالله بن رواحة[٥] رضى الله عنه في النبي صلى الله عليه وسلم:

إنى توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابت النظر

هذا أصل التوسم، وللعلماء فيه أقوال متقاربة، يرجع معناها كلها إلى شيء واحد، فقال بعضهم: للمتوسمين أى للمعتبرين، وقال بعضهم: أى المتفرسين، وقال بعضهم: أى الناظرين، وقال بعضهم: أى للمتأملين، ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد، وكذلك قول من قال للمتوسمين أى للمتفكرين، وقول من قال أى للمتبصرين فمآل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو أن ماوقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة

---

(١) آيه ٣٥ من سورة العنكبوت.

(٢) آيه ٣٧ من سورة الذاريات.

(٣) آيه ١٧٤ من سورة الشعراء.

(٤) الآيات في سورة الشعراء من آية رقم١٢٤ إلى١٥٩، ومن الآية رقم١٧٦ إلى آية رقم١٩١

(٥) هو: عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى من الخزرج أبو محمد صحابي من الأمراء والشعراء، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثنى عشر وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة، توفى سنة ٨هـ. انظر صفة الصفوة ١٩١/١، تهذيب التهذيب ٢١٢/٥

لمن نظر في ذلك وتأمل حق التأمل.[١]

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله: أن فراسة الصادقين العارفين بالله وأمره متصلة بالله متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان، فهي تميز بين مايحبه الله وبين مايبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال، تميز بين الخبيث والطيب والمحق والمبطل والصادق والكاذب، وهي تحوم دائمًا حول كشف طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعرفها وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس وآفات الأعمال العائقة، عن سلوك طريق المرسلين، وهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد **والقصد هو المنزلة الخامسة** من منازل العبودية. والمراد به: صدق الإرادة وجمع النية على سفر الهجرة إلى الله، والعلم والتيقن أنه لابد له من هذا السفر، وأخذ الأهبة له، وتعبئة الزاد ليوم المعاد، والتجرد عن عوائق السفر وقطع العلائق التى تمنعه بعد الخروج.

وللقصد ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: قصد يبعث على المسير بلا توقف ولا تردد ولا علة غير العبودية فلارياء ولا سمعة ولا طلب محمدة أو جاه أو منزلة عند الخلق.

الدرجة الثانية: قصد لايلقى سبباً يعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونه إلا منعه ولا صعوبة إلا سهلها.

الدرجة الثالثة: قصد يبعث على الانقياد للعلم ليتهذب به ويصلح، ويقصد إجابة الأمر الديني كلما دعاه، فإن لكل مسألة من مسائل العلم منادياً ينادى للإيمان بها علماً وعملاً فيقصد إجابة داعيها.

---

(١) انظر أضواء البيان ١٤١/٣-١٤٢

فإذا استحكم قصده صار عزماً جازماً، **وهو المنزلة السادسة من منازل العبودية** والعزم الجازم مستلزم للشروع في السفر، مقرون بالتوكل على الله، قال تعالى: (فإذا عزمت فتوكل على الله) [١][٢]

قال ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية، فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ماأمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك، وتدع، وتحاول، أو تزاول، على ربك فثق به في كل ذلك وارض بقضائه في جميعه، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم فإن الله يحب المتوكلين، وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه.[٣] ثم ساق رحمه الله بإسناده إلى ابن إسحاق[٤] في هذه الآية: فإذا عزمت أى على أمر جاءك مني، أو أمر من دينك في جهاد عدوك لايصلحك ولا يصلحهم إلا ذلك، فامض على ماأمرت به على خلاف من خالفك وموافقة من وافقك (فتوكل على الله) أى ارض به من العباد (إن الله يحب المتوكلين).

ثم ساق أيضاً بإسناده إلى قتادة قوله عند هذه الآية: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويستقيم على أمر الله،

---

(١) جزء من آيه ١٥٨ من سورة آل عمران.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/١٣١-١٣٢

(٣) جامع البيان ٤/١٥٣

(٤) هو: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة، له: السيرة النبوية، كتاب الخلفاء وغيرها، توفي سنة ١٥١هـ وكان من حفاظ الحديث وسكن بغداد. انظر سير أعلام النبلاء ٧/٣٣، تذكرة الحفاظ ١/١٦٣

ويتوكل على الله.[١]

والعزم في اللغة الجد، عزم على الأمر يعزم عزماً ومَعْزَماً ومَعْزِماً وعُزْماً وعزيما وعزيمة وعَزْمَةً، واعتزمه واعتزم عليه أراد فعله.

قال الليث [٢]: العزم ماعقد عليه قلبك من أمر أنك فاعله، ولا خير في عزم بغير حزم فإن القوه إذ لم يكن معها حذر أورطت صاحبها.[٣]

فالعزم هو الأمر المروى المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزماً إلا على رأى فتاك العرب كما قال المازنى:[٤]

إذا هم ألقى بين عينيه عَزْمَه   ونَكَّبَ عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غيرَ نفسِه   ولم يرض إلا قائمَ السيف صاحبا

قال ابن القيم رحمه الله: وحقيقته استجماع قوى الإرادة على الفعل وهو نوعان:

عزم على الدخول في الطريق.

وعزم على المضي في هذا الطريق، وهو أخص من الأول.[٥]

---

(١) أخرجهما ابن جرير في تفسيره ١٥٣/٤

(٢) هو: الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمى بالولاء أبو الحارث إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً أصله من خراسان ومولده في قلقشنده ووفاته في القاهرة وكان من الكرماء الأجواد وله تصانيف توفي سنة ١٧٥هـ. انظر السير ١٣٦/٨، شذرات الذهب ٢٨٥/١

(٣) اللسان عند مادة (عزم) ٣٩٩/١٢

(٤) هو: سعد بن ناشب من بني العنبر وكان أبوه ناشب من شياطين العرب وله يوم الوقيط وكان سعد أيضاً من مردة العرب وهو شاعر إسلامى في الدولة المروانية.
انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٤٣٨، وخزانة الأدب ٤٤٦/٣
وقد ذكر هذه الأبيات ابن قتيبة وعزاها للمازني. انظر الشعر والشعراء ص٤٣٨، وكذلك خزانة الأدب ٤٤٤/٣
وذكرها القرطبي أيضا في الجامع لأحكام القرآن ٢٥٢/٤

(٥) انظر مدارج السالكين ١٣٣/١

ذلك أن العبد قد ينضم إلى ركب السائرين إلى الله عز وجل ويوطن نفسه على الصبر، ثم لايلبث أن ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته، وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولاسيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول، أين ذهبوا فلى بهم أسوة، وهذه حال أكثر الخلق، وهى التى أهلكتهم.

والبصير الصادق لايستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعرقلبه مرافقة الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فتفرد العبد فى طريق طلبه دليل في أغلب الأحيان على صدق الطلب.(١)

وفي هذه المنزلة يحتاج العبد إلى تمييز ماله مما عليه، ليستصحب ماله، ويؤدى ماعليه، وذلك هو **المحاسبة وهي المنزلة السابعة من منازل العبودية**(٢) **ومحاسبة النفس نوعان**: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، قال الحسن(٣) رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

---

(١) إغاثة اللهفان ٦٩/١

(٢) انظر مدارج السالكين ١٣٣/١

(٣) هو: الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد تابعى كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠هـ.
انظر السير ٥٦٣/٤، البداية والنهاية ٢٧٨/٩-٢٧٩

وقد شرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً وقف وقفة أخرى ونظر هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير من فعله فإن كان الثانى تركه فلم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثانى لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر مايخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار، وإن وجده معانا عليه فليقدم عليه فإنه منصور.

ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

والنوع الثانى: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى.

الثانى: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على كل أمر مباح أو معتاد لِمَ فَعَلَه؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحاً أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وجماع ذلك كله: أن يحاسب نفسه أولاًعلى الفرائض، فإن تذكر فيها

نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهى، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً، تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله عز وجل، ثم يحاسبها بما تكلم به فمه أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه، ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن يُنْشَرَ لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ الأول سؤال عن الإخلاص والثانى سؤال عن المتابعة.(١)

قال الله عز وجل (فوربك لنسئلنهم أجمعين، عما كانوا يعملون).(٢)

أخرج ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: (فوربك لنسئلنهم أجمعين. عما كانوا يعملون) ثم قال: (فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولا جان)(٣) قال: لايسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا وكذا؟.(٤)(٥)

---

(١) انظر إغاثة اللهفان ٨١/١-٨٣

(٢) الآيتان ٩٢و٩٣ من سورة الحجر.

(٣) آيه ٣٩ من سورة الرحمن.

(٤) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٦٧/١٤

(٥) وقد جمع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى بين الآيات التى تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة والآيات التى تدل على خلاف ذلك بقوله: والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:
الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان:
سؤال توبيخ وتقريع وأداته غالباً "لم" وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالباً "هل" فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام ووجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في كله توبيخ وتقريع كقوله: ==

ومما دل على المحاسبة قوله تعالى: (يـأيها الذين ءامنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد)[١] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ماقدم لغد.. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر هل يصلح ماقدمه أن يلقى الله به أو لايصلح؟ والمقصود من هذا النظر مايوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ماينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله.[٢]

قال السعدى رحمه الله: هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغى له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تتميمه وتكميله وإتقانه.[٣]

(=) (وقفوهم إنهم مسئولون. مالكم لاتناصرون) (الصافات: ٢٤-٢٥).
(افسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور: ١٥) وكقوله: (ألم يأتكم نذير) (الملك: ٨) إلى غير ذلك من الآيات.
وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤدة: (بأى ذنب قتلت) (التكوير: ٩) لتوبيخ قاتلها.
الوجه الثانى: أن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون.
الوجه الثالث: هو ماذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل وعدم السؤال محمول على مايستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه ويدل لهذا قوله تعالى: (فيقول: ماذا أجبتم المرسلين) (القصص: ٦٥) والعلم عند الله تعالى.
دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لصاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي رحمه الله ص١٣١-١٣٢

(١) جزء من الآية ١٨ سورة الحشر.

(٢) انظر مدارج السالكين ١٧٠/١

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٠٦/٨

وللمحاسبة ثلاثة أركان:

أولها: أن يقايس العبد بين مامن الله عز وجل ومَامِنْهُ[1]، وحينئذ يظهر له التفاوت ويعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته أو الهلاك والعطب.

الركن الثانى من أركان المحاسبة أن يميز العبد مالله عز وجل عليه من وجوب العبودية، والتزام الطاعة واجتناب المعصية، و بين ماله فالذى له هو المباح الشرعي.

فعليه حق وله حق، فإن أدى ماعليه أوتى ماله، ولابد من التمييز بين ذلك وإعطاء كل ذى حق حقه، وإن كثيراً من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله، فيتحير بين فعله وتركه، وإنْ فَعَلَه رأى أنه فضل قام به لاحق أداه وبإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فِعْلُه وَتَرْكُه من قسم ماعليه فعله أو تركه، ويتعبد بترك ماله فعله كترك كثير من المباحات، ويظن ذلك حقاً عليه كمن يتعبد بترك النكاح أو ترك أكل اللحم والفاكهة مثلاً أو الطيبات من المطاعم والملابس، ويرى لجهله أن ذلك مما عليه، فيوجب على نفسه تركه، أو يرى تركه من أفضل القرب وأجل الطاعات، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من فعل ذلك[2]،

---

(١) المراد أن يقارن العبد بين نعم الله عز وجل عليه وبين عمله وطاعته.

(٢) كما في حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى. ==

أو تعبد بفعل ماله تركه ويظن أن ذلك حقاً عليه، كمن يتعبد بالأمور البدعية[١] التى هو مأمور بتركها والحذر منها.[٢]

الركن الثالث من أركان المحاسبة: أن يعرف العبد أن كل طاعة رضيها من نفسه فهى عليه، وكل معصية عير بها أخاه فهى إليه، فرضاه بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به، فيتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ماهو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها.[٣]

(=) رواه البخارى في صحيحه ٣٥٤/٣ كتاب النكاح (٦٧) باب الترغيب في النكاح (١) حديث رقم (٥٠٦٣) ومسلم في صحيحه ١٠٢٠/٢ كتاب النكاح (١٦) باب استحباب النكاح لمن كانت نفسه إليه ووجد مؤنة (١) الحديث رقم (١٤٠١/٥).

(١) البدعة هى: كل مالم يكن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم مما فعله أو أقر عليه أو علم من شريعته الإذن فيه وعدم النكير عليه. انظر الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص٨٧).

(٢) كما في حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد" أخرجه البخارى في صحيحه ٣٠١/٥ كتاب الصلح (٥٣) باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٥) الحديث رقم (٢٦٩٧) ومسلم في صحيحه ١٣٤٣/٣ كتاب الأقضية (٣٠) باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٨) حديث رقم (١٧١٨/١٧).

(٣) انظر مدارج السالكين ١٧٠/١-١٧٥

ومما ينبغى أن يعلم أن عدم رضاه بطاعته لايعارض سروره بما يفعل من الحسنات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الإيمان ليس مجرد التصديق بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمالاً ظاهرة فحب الله ورسوله من الإيمان وحب ما أمر الله به وبغض مانهى عنه وهذا من أخص الأمور بالإيمان ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث أن "من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن" رواه الحاكم في مستدركه ١٤/١ كتاب الإيمان وقال صحيح ==

....

(=) على شرط الشيخين وصححه الشيخ الألباني في تحقيقه لأحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية (ص٣٩).

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وإن فعلها بشهوة غالبته وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان. انظر كتاب الإيمان (ص٢٩٠).

فالمراد إذاً التواضع عند فعل الطاعة وعدم العجب بالعمل بل يرى كل طاعة فعلها إنما هي من فضل الله عليه وأنه مهما عمل فإنه لايستطيع أن يؤدى حقوق الله عز وجل عليه حق الأداء وأنه لن يدخل أحد الجنة بعمله وإنما هو فضل الله ورحمته.

ومن أجل ذلك أمر الله عز وجل بالاستغفار عند الانتهاء من عددٍ من الطاعات كما في الصلاة مثلاً كما في الصحيح عن ثوبان قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام" أخرجه مسلم في صحيحه ٤١٤/١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٢٦) حديث رقم (٥٩١/١٣٥).

وكما في الحج، قال تعالى: (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) (البقرة: ١٩٨-١٩٩).

وأمر الله تعالى نبيه بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها واقتراب أجله فقال تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) (النصر: ١-٣).

فهذا شأن من عرف ماينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها لاجهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

وأما بالنسبة لقوله: وكل معصية عير بها أخاه فهي إليه فقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

فمن الكتاب ماجاء عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: (لاتثريب عليكم اليوم) (يوسف: ٩٢) وذلك بعد قولهم له (تالله لقدءاثرك الله علينا وإن كنا لخٰطئين) (يوسف: ٩١).

ومن السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: " إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب ==

فـإذا صـح هذا المقام ونزل العبـد هذه المنزلة أشـرف منهـا على مقام التوبة لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه، فليجمـع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات.

ومنـزلة التوبة هـى المنـزلة الثامنة من منـازل العبودية وهـي أول المنـازل وأوسطهـا وآخرها فلا يفارقهـا العبد أبداً، ولا يزال فيهـا إلى الممـات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل بهـا، واستصحبها معه، ونزل بهـا، فـالتوبة هى بداية العبـد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كمـا أن حاجته إليها في البداية كذلك.(١)

والتـوبة الرجوع من الذنب، تاب إلى الله يتوب توبا وتوبة ومتـابا، أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة.(٢)

وهى في الشرع: الإقلاع عن الذنب لوجه الله عز وجل، والندم على مافرط منه والعزيمة على ترك المعاودة.(٣)

ومن استكمل هذا التعريف: يكون قد استكمل شـرائط التوبه، وتاب التوبـة النصـوح التي أمـر اللـه عـز وجـل عبـاده بهـا، قـال تعالـــــــى:

(=) ثم إن زنت الثـالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعير" أخرجه البخـارى في صحيحه ١٢٢/٢ كتاب البيو ع (٣٤) باب بيع المدبر (١١٠) حديث رقـم (٢٢٣٤) ومسلم في صحيحـه (١٣٢٨/٣) كتـاب الحدود (٢٩) باب في اليهـود وأهل الذمة في الزنى (٦) حديث رقم (١٧٠٣/٣٠)
ومعنى (لايثرب) أى لايوبخهـا ولا يقـرعها بالزنا بعد الضـرب ولا يعيرهـا بذلك. انظر النهاية في غريب الحديث عند مادة (ثرب) ٢٠٩/١، والفـائق للزمخشرى عند مادة (ثرب) ١٦٥/١

(١) انظر مدارج السالكين ١٧٨/١

(٢) اللسان عند مادة (توب) ٢٣٣/١

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن عند مادة (توب) ص٧٦

(يٰأيها الذين ءامنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً).[١]

قال عمر بن الخطاب[٢] رضي الله عنه: التوبة النصوح أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لايعود إليه أبداً.[٣] وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين.

ونصوح هي صفة للتوبة وأصلها: نصح الشيء خلص، والناصح الخالص من العسل وغيره، وكل شيء خلص فقد نصح[٤] وأصل ذلك هو الخلوص، يقال فلان ينصح لفلان: إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لاغش فيها، وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد السوء وهو يظهر إرادة الخير، كالدرهم المغشوش، ومنه قوله تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضىٰ ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله)[٥] أى أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "الدين النصيحة...ثلاثاً قلنا يارسول الله لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم".[٦]

---

(١) جزء من الآية ٨ من سورة التحريم.

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوى أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المؤمنين الصحابى الجليل الشجاع الحازم صاحب الفتوحات يضرب بعدله المثل كان من أبطال قريش وأشرافها وله السفارة فيهم،أسلم قبل الهجرة وشهد الوقائع وبويع بالخلافة يوم وفاة أبى بكر، قتله أبو لؤلؤة المجوسى توفى سنة ٢٣هـ. انظر الكامل ٤٩/٣ وتاريخ الطبرى ١٨٧/١

(٣) أخرجه الطبرى في جامع البيان ١٦٧/٢٨

(٤) اللسان عند مادة (نصح) ٦١٥/٢

(٥) جزء من الآية ٩١ سورة التوبة.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحة ٧٤/١ كتابه الإيمان (١) باب بيان أن الدين النصيحة (٢٣) حديث رقم (٥٥/٩٥).

فإن أصل الدين هو حسن النية، وإخلاص القصد، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لايغل عليهن قلب امرىء مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن الدعوة تحيط من ورائهم"(١) أى أن هذه الخصال الثلاث لايحقد معها قلب مسلم أى لايصيبه حقد، فبها تستصلح القلوب، فالتوبه النصوح هي الخالصة من كل غش، وإذا كانت كذلك فإن العبد إنما يعود إلى الذنوب لبقايا في نفسه، فمن أخرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب وهذه هى التوبة النصوح، وهى واجبة لأمر الله تعالى بذلك، ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى إذا شاء ثم إذا عاد استحق العقوبة، فإن تاب تاب الله عليه أيضا، ولايجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر، بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة.

وقد قال تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)(٢) وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

قال تعالى: (ومن لم يتب فأولئك هم الظٰلمون)(٣) فقسم العباد إلى

---

(١) أخرجه الترمذى في السنن ٣٤/٥-٣٥ كتاب العلم (٤٢) باب ماجاء في الحث على تبليغ السماع (٧) حديث رقم (٢٦٥٨) وأحمد في المسند ١٨٣/٥ وصححه الشيخ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح للتبريزى ٧٨/١ حديث رقم (٢٢٩).

(٢) جزء من الآية ٣١ سورة النور.

(٣) جزء من الآية ١١ سورة الحجرات.

تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ياأيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب في اليوم مائة مرة"[١] وكان صلى الله عليه وسلم بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح)[٢] إلى آخرها يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى" [٣] وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لن ينجي أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة"[٤] فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته ومايستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.[٥]

ولن يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يعظم جنايته، ولا يستهين بها، فإنه إن استهان بها لم يندم عليها، وعلى قدر تعظيمه لها يكون ندمه على ارتكابها، وتعظيم الجناية يكون تبعاً لتعظيم الله عز وجل وتعظيم أمره والتصديق بجزائه.

وكذلك ينبغي على العبد أن يظل في خوف دائم من أنه لم يعط

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٧٥/٤-٢٠٧٦ كتاب الذكر (٤٨) باب استحباب الاستغفار (١٢) حديث رقم (٢٧٠٢/٤٢).

(٢) سورة النصر آية رقم (١).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٦٤/١ كتاب الأذان (١٠) باب التسبيح والدعاء في السجود (١٣٩) حديث رقم (٨١٧) ومسلم في صحيحه ٣٥٠/١ كتاب الصلاة (٤) باب مايقال في الركوع والسجود (٤٢) حديث رقم (٤٨٤/٢١٧).

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٤/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب القصد والمداومة (١٨) حديث رقم (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه ٢١٦٩/٤ كتاب صفات المنافقين (٥٠) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (١٧) حديث رقم (٢٨١٦/٧١).

(٥) انظر مدارج السالكين ١٧٨/١-١٧٩

التوبة حقها، وبالتالى قد لاتقبل منه، واستصحاب الخوف من الله عز وجل هو حال الصالحين، فإنهم يظلون في خوف دائم إلى لحظات الموت الأخيرة التي تبشرهم الملائكة فيها بالجنة التى كانوا يوعدون (ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون)[١] وكذلك على العبد أن يظل في غيرة لله عز وجل عند مخالفة الناس لأوامره، وأن لايحاول الاعتذار عنهم بالقدر، لأن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر فلا أحد أحب إليه العذر من الله[٢]، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب إزالة لأعذار خلقه، لئلا يكون لهم عليه حجة (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما)[٣] والثابت أنه لاعذر لأحد البتة في معصية الله ومخالفة أمره، مع علمه بذلك وتمكنه من الفعل والترك، ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم لافي الدنيا ولا في العقبى، ومن ادعى أن ذنبه كان قدراً مقدورا عليه، لم يستطع دفعه، فهو ظالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء (إن الإنسٰن لربه لكنود)[٤] قال ابن عباس رضى الله عنهما عند قوله: (إن الإنسٰن لربه لكنود) قال: لكفور، وكذا قال مجاهد رحمه الله

---

(١) جزء من الآية ٣٠ سورة فصلت.

(٢) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ولا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين".
أخرجه البخارى في صحيحه ٣٨٧/٤ كتاب التوحيد (٩٧) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لاشخص أغير من الله..." (٢٠) حديث رقم (٧٤١٦) ومسلم في صحيحه ١١٣٦/٢ كتاب اللعان (١٩) حديث رقم (١٤٩٩/١٧)

(٣) آيه ١٦٥ من سورة النساء.

(٤) آيه ٦ من سورة العاديات.

وقال الحسن البصرى رحمه الله:هو الكفور الذى يعد المصائب وينسى نعم ربـــــه.[١]

ولـولا جهلـه لعلم أنه هـو القـاعد على طـريق مصـــالحه يقطعهـا عـن الوصول إليه، فهو الحجر في طريق الماء الذى به حيـاته، وهو السكر الذى قد سد مجرى الماء إلى بستـان قلبـه، ويستغيث مع ذلـك: العطـش.. العطش، وقد وقف في طريق الماء ومنع وصوله إليه، فهو الغيم المانع لإشـراق شمس الهدى على أرضه، فما عليه أضر منه، ولاله أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منـــــه.

فتبـاً لـه ظـالماً في صورة مظلـوم، وشـاكياً والجنـاية منـه، قـد جد في الإعراض وهو ينادى طردوني وأبعدوني، يأخذ الشفيق بحجزته[٢] عن النار، وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمهـا[٣] ويستغيث ماحيلتى، وقد قدمـونى إلى الحفيرة وقـذفونى فيها، والله كم صاح به الناصح: الحذر..الحذر، إياك..إياك وكم أمسك بثوبه،وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلاالاقتحام، ياويله

---

(١) أخرج هذه الآثار ابن جرير في جامع البيان ٣٠/٢٧٧-٢٧٨

(٢) الحجـزة موضع شد الإزار وتطلـق أيضاً على الإزار وتجمـع على حجز. النهاية في غريب الحديث ١/٣٤٤ عند مادة (حجز).

(٣) كمـا في حديث أبي هـريرة رضـى اللـه عنه قال: قال رسـول اللـه صلى اللــــه عليـه وسلم: "إنما مثلى كمثـل رجل استـوقد ناراً، فلمـا أضـاءت مـاحولها جعـل الفـراش وهـذه الدواب التى تقـع في النـار يقعن فيها وجعـل يحجـزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخد بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبونى تقحمون فيها".
أخرجه البخـارى في صحيحـه ٤/١٨٨ كتـاب الـرقاق (٨١) باب الانتهـاء عـن المعاصي (٢٦) حديث رقم (٦٤٨٣) ومسلم في صحيحه ٤/١٧٨٩ كتـاب الفضائل (٤٣) باب شفقتـه صلى الله عليه وسلم على أمته (٦) حديث رقـم (١٨/٢٢٨٤).

ظهيراً للشيطـان على ربه، خصمـا للـه مع نفسـه، جبرى المعـاصي[1]، قدرى الطاعات[2]، عاجز الرأى، مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحة، معاتب لأقدار ربه، يحتـج على ربه بما لايقبلـه مـن ولده وامرأته إذا احتجـوا به عليـه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيـه، أو نهاه عن شيء فارتكبه وقال: القدر ساقني إلى ذلـك، لما قبـل منه هـذه الحجـة، ولبادر إلى عقوبته، فكيف لا ترى ذلك عذراً لمن عصاك وتراه عذراً لنفسك، فمن أولى بالظلم والجهـل ممن هذه حالـه، هذا مع تواتر إحسان اللـه إليك على مدى الأنفـاس، أزاح عللـك ومكنـك من التزود إلى جنته وبعـث إليـك الدليل، وأعطـاك مـؤونه السفر وماتتزود به، ومـا تحارب به قطـاع الطـريق عليـك، فأعطاك أعطاك وأعانك أعـانك (وإن تعـدوا نعمـت اللــه لاتحصــوها إن الإنسـٰن لظلوم كفار).[3]

فالغيرة لله والغضب له وتعطيل عذر الخليقة في مخالفة أمره ونهيه من علامـات تعظيم الحرمة ومن حقـائق التوبة، والكيس العـاقل مـن دفع القدر

---

(١) الجبرية: الجبر هـو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الـرب تعالى والجبرية أصنـاف فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبـت للعبد فعلاً ولا قـدرة على الفعل أصلاً والمتـوسطة هـى التى تثبت للعبـد قـدرة غير مؤثرة أصلاً فـأما مـن أثبت للقدرة الحادثة أثراً مـا في الفعـل وسمـي ذلـك كسباً فليس بجبري. انظـر الملـل والنحل للشهرستانى ٨٥/١

(٢) القدرية: هم طائفة حدثت في زمان المتأخرين من الصحـابة يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصى بتقدير الله وقد تبرأ منهـم المتأخرون من الصحابة كعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وابن عبـاس وأنس بن مالك، وغيرهم، وأوصوا أخلافهم بأن لايسلموا عليهم ولا يصلـوا على جنائزهم ولا يعـودوا مـرضاهم. انظـر الفـرق بين الفـرق ص١٨ و١٩ و٢٠، والتعـريفات للجرجانى ص١٧٤

(٣) جزء من الآية ٣٤ سورة إبراهيم.

بالقدر، والله عز وجل أمر أن تدفع السيئة -وهي من قدره- بالحسنة -وهي من قدره- وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات، مات عاصياً.

وقد أفصح النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإفصاح: إذ قالوا: يارسول الله، أرأيت أدويه نتداوى بها، ورقى نسترق بها، وتقى نتقى بها، هل ترد من قدر الله شيئا. قال: "هى من قدر الله".[1] وفي الحديث الآخر: "لايرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"[2] ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذى قد انعقدت أسبابه ولما يقع، بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

والثاني: دفع القدر الذى قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوى، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٢١/٣، والترمذى في السنن ٣٩٩/٤-٤٠٠ كتاب الطب (٢٩) باب ماجاء في الرقى والأدوية (٢١) حديث رقم (٢٠٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه ١١٣٧/٢ كتاب الطب (٣١) باب ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١) حديث رقم (٣٤٣٧).
وقد ضعفه الشيخ الألبانى في ضعيف سنن الترمذى ص٢٣١-٢٣٢ حديث رقم (٣٥٩-٢١٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٧/٥، ٢٨٠، ٢٨٢، وابن ماجه في سننه ٣٥/١ المقدمة باب في القدر (١٠) حديث رقم (٩٠) والحاكم في المستدرك ٤٩٣/١ كتاب الدعاء وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.
وقد حسنه الشيخ الألبانى في صحيح ابن ماجه ٢٢/١ حديث رقم (٩٠/٧٣).

فهـذا شأن العارفين وشأن الأقـدار، لا الاستسلام لهـا، وترك الحركـة والحيلة فإنه عجز والله يلوم على العجز.[١]

واعلم أن للتوبة المقبولة علامات:

منهـا: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان عليه قبلها.

ومنهـا: أن لا يزال الخوف مصـاحباً لـه لايأمن مكر اللـه طـرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه (ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)[٢] فهناك يزول الخوف.

ومنهـا: انخلاع قلبـه وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قـدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة[٣] لقوله تعالى: (لايزال بنيـٰنهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) قال: تقطعها بالتوبة.[٤]

ومنهـا: كسرة خاصة تحصل للقلب لايشبهها شيء، فهـي لاتحصل بجوع ولا حب مجرد وإنما هـي أمـر وراء هذا كله، تكسر القلـب بين يدى الـرب

---

(١) انظر مدارج السالكين ١٨٤/١ إلى ٢٠١

(٢) جزء من الآية ٣٠ سورة فصلت.

(٣) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مـزاحم أخي الضحاك ابن مـزاحم الإمام الكبير حافظ العصر شيخ الإسلام أبو محمـد الهلالي الكوفي ثم المكـي طلـب الحديث وهو غلام ولقـي الكبـار وحمل عنهـم علمـاً جماً وأتقن وجود وجمـع وصنف وعمر دهراً وازدحم الخلق عليه وانتهـى إليه علو الإسناد ورُحِل إليه من البلاد توفي سنة ١٩٨هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨، شذرات الذهب ٣٥٤/١

(٤) انظـر الدر المنثور ٢٨٠/٣ والتفسير الـذى ذكره ابن جرير رحمـه الله ولم يذكر غيره لهذه الآية أن معنى (إلا أن تقطع قلوبهم) يعني الموت، وهـذا هو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم من السلف وهو الأقوى والله أعلم.
انظـر جامـع البيان ٣٣/١١، ٣٤، وتفسير القـرآن لعبدالـرزاق بن همـام الصنعانى الجزء الأول، القسـم الثـانى ص٢٨٨ عنـد تفسير هـذه الآية مـن سـورة التـوبة.

كسـرة تامـة، قد أحاطت به مـن جميع جهاته، وألقته بين يدى ربه طـريحاً ذليلاً خاشعـا، فليـس شـيء أحب إلى اللـه مـن هـذه الكســرة، والخضـوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبتـه، وليرجع إلى تصحيحهـا، فمـا أصعب التوبة الصحيحـة بالحقيقـة وما أسهلها باللسان والدعوى.[١]

واعلم أن ترتيب هذه المنازل التى تقدمت ليس باعتبـار أن السائر إلى اللـه يقطع المنزلة ويفارقهـا إلى المنزلة الأخرى، كمنـازل السير الحســي هذا محال، ألا ترى أن اليقظــة معـه في كـل وقـت لاتفــارقه وكـذلك البصيرة والإرادة والعـزم، وكـذلك التـوبة فإنها كما أنها أول المنـازل فهـى آخرها أيضـاً، بل هى في كل وقت مستصحبة، وإنما هذا الترتيـب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.[٢]

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/١٨٦-١٨٧

(٢) انظر مدارج السالكين ١/١٣٣

المبحث الرابع

الإيمان

وهو من أعظم أوصاف القلب السليم

والإيمان في اللغة: هو التصديق.[١]

وفي الشرع: قول وعمل يزيد وينقص قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.[٢]

وأدلة قول القلب وهو اليقين والتصديق منها قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا)[٣] وقوله تعالى: (وكذلك نرى إبرٰهيم ملكوت السمٰوٰت والأرض وليكون من الموقنين).[٤]

وأدلة قول اللسان منها قوله تعالى: (قولواءأمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبرٰهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون).[٥]

وأدلة عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله عز وجل والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه فمنها قوله تعالى: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوٰة والعشي يريدون وجهه)[٦]

---

(١) انظر اللسان عند مادة (أمن) ٢١/١٣، وقاموس القرآن ص(٤٧) والنهاية في غريب الحديث والأثر ٦٩/١-٧٠

(٢) انظر العقيدة الواسطية ص١٦١ وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٣-٣٨٧

(٣) جزء من الآية ١٥ سورة الحجرات.

(٤) آية ٧٥ سورة الأنعام.

(٥) آيه ١٣٦ سورة البقرة.

(٦) جزء من الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

وقوله تعالى: (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءايٰته زادتهم إيمٰنا)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى".[٢]

وأما عمل اللسان وهو الذي لايؤدى إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار وغير ذلك.

وعمل الجوارح وهو مالا يؤدى إلا بها مثل القيام والركوع والسجود والحج والجهاد وغير ذلك وأدلة ذلك كثيره منها: قوله تعالى: (إن الذين يتلون كتٰب الله وأقاموا الصلوٰة وأنفقوا مما رزقنٰهم سراً وعلانية يرجون تجٰرة لن تبور).[٣]

وقوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان".[٤]

وأما كون الإيمان يزيد وينقص فهذا هو قول سلف هذه الأمة عليهم رحمة الله تعالى.[٥]

---

(١) جزء من الآية ٢ سورة الأنفال.

(٢) أخرجه البخارى ١٣/١ كتاب بدء الوحى، باب كيف كان بدء الوحى برقم (١) ومسلم في الصحيح ١٥١٥/٣ كتاب الإمارة (٣٣) باب قوله (إنما الأعمال بالنية) برقم ١٥٥

(٣) آيه ٢٩ من سورة فاطر.

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٠/١ كتاب الإيمان (٢) باب أمور الإيمان (٣) الحديث رقم (٩) بلفظ "الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان" ومسلم في صحيحه ٦٣/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان (١٢) حديث رقم (٣٥/٥٨).

(٥) نقله أبو القاسم اللالكائى في "كتاب السنة" عن الشافعى وأحمد بن حنبل ==

واسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما كقوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)(١) وكقوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"(٢) وتارة يذكر مقرونا إما بالإسلام كقوله في حديث جبريل: "ماالإسلام وما الإيمان ؟"(٣) وكقوله تعالى: (إن المسلمين والمسلمٰت والمؤمنين والمؤمنٰت).(٤) وقوله عز وجل: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمن في قلوبكم)(٥) وقوله تعالى: (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين).(٦)

وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح في مواضع من القرآن

(=) وإسحق بن راهو ية وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة.
ورُوي بسند صححه ابن حجر عن البخارى قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٥/ من ص٨٨٥ إلى ص٩١٠، فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ٤٧/١

(١) جزء من الآية ٢ من سورة الأنفال.

(٢) تقدم آنفاً.

(٣) وهو حديث جبريل الطويل وقد تقدم تخريجه ص(٢٠) .

(٤) جزء من الآية ٣٥ سورة الأحزاب.

(٥) جزء من الآية ١٤ سورة الحجرات.

(٦) الآيتان ٣٥ و٣٦ من سورة الذاريات.

كقوله تعالى: (إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت).[١]

وكذلك ذكر مقروناً بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى: (وقال الذين أُوتوا العلم والإيمٰن)[٢] وقوله: (يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجٰت).[٣] وحيث ذكر الذين ءامنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فإنهم خيارهم قال تعالى: (والرٰسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا).[٤]

وعلى هذا فإن الإيمان إذا ذكر مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها وجعل الإيمان مافي القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن تأمل حديث جبريل وغيره من النصوص عرف ذلك يقيناً.

وأما إذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة ومن تأمل حديث "الإيمان بضع وسبعون شعبة" وغير ذلك من النصوص التي تكون فيها أعمال البر من الإيمان عرف ذلك.[٥]

والإيمان محله القلب قال تعالى: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الأخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوٰنهم أو عشيرتهم أولٰئك كتب في قلوبهم الإيمٰن وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون).[٦]

---

(١) جزء من الآية ٧ سورة البينة.

(٢) جزء من الآية ٥٦ سورة الروم.

(٣) جزء من الآية ١١ سورة المجادلة.

(٤) جزء من الآية ٧ سورة آل عمران.

(٥) انظر الإيمان ٩- ١١

(٦) الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

قال ابن جرير رحمه الله: يقول جل ثناؤه هؤلاء الذين لايوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم كتب الله في قلوبهم الإيمان وإنما عنى بذلك قضى لقلوبهم الإيمان ففي بمعنى اللام.[١] ثم ذكر رحمه الله أنه خص القلب لأنه مكان الإيمان[٢] فالمعنى أنه لايجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله وذلك لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب مع ذلك عدوه.

وقد أكد الله عز وجل المنع من هذه المودة من وجهين:

أولهما: ماذكر أن هذه المودة مع الإيمان لاتجتمعان.

ثانيهما: قوله (ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوٰنهم أو عشيرتهم) والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوباً مطروحاً بسبب الدين.[٣]

والإيمان من أعظم أوصاف القلب فمن فقده فهو لما سواه أفقد ومن وجد في قلبه فمآله إلى خير ولذلك وصفه الله عز وجل بالخيرية كما في قوله تعالى: (يٰأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرىٰ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)[٤] عن ابن عباس قوله: (يٰأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرىٰ...) الآية وكان العباس[٥] أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب

---

(١) جامع البيان ٢٨/٢٦-٢٧

(٢) انظر جامع البيان ٢٨/٢٧

(٣) انظر مفاتيح الغيب ٢٩/٢٧٧

(٤) آيه ٧٠ من سورة الأنفال.

(٥) هو العباس بن عبدالمطلب بن هاشم أبوالفضل من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين ثم هاجر إلى المدينة ==

فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطانى الله خصلتين ماأحب أن لي بهما الدنيا أني أسرت يوم بدر ففديت نفسى بأربعين أوقية فآتانى أربعين عبداً وأنا أرجو المغفرة التى وعدنا الله.(١)

وقد قال ابن جرير رحمه الله عن معنى خيراً: إسلاماً.(٢)

وليس المراد بالخير هو مجرد الميل بل المراد مايترتب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله تعالى: (ويغفر لكم).(٣)

ومن الأمور التى نستفيدها من هذه الآية الكريمة أن الإسلام إنما يستبقى الأسرى لديه ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقى والتأثر والاستجابة للهدى لا ليستذلهم انتقاماً ولا ليسخرهم استغلالاً كما كانت تتجه فتوحات الأجناس والأقوام.(٤)

وكذلك في الآية بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين مادامو قوامين بأسباب النصر المعنوية والمادية والعلمية والعملية.(٥)

ومما ينبغى أن يعلم أن حب الإيمان واستقراره بالقلب إنما هو فضل من الله عز وجل ومنة، وقد تمتن الله عز وجل على عباده بذلك كما في

(=) وشهد حنين والفتح وعمى في آخر عمره وكانت وفاته في المدينة سنة ٣٢هـ. انظر السير ٧٨/٢، والاستيعاب ٨١٠/٢

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٤٩/١٠

(٢) جامع البيان ٤٩/١٠

(٣) التحرير والتنوير ٨٠/١٠

(٤) انظر في ظلال القرآن ١٥٥٣/١٠

(٥) تفسير المنار ١٠١/١٠-١٠٢

قوله تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمٰن وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾(١) وهذه الآية جاءت في معرض الحث على التثبت في الأخبار(٢) وفيها يبين الله عز وجل لعباده أنه تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم أو محبوباً لديهم فلا يقع منهم إلا مايوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع في الأخبار وعدم التثبت فيها.

---

(١) جزء من الآية ٧ والآية ٨ بتمامها من سورة الحجرات.

(٢) فقد جاء في الآية التى قبلها قوله تعالى: ﴿يـٰأيها الذينءآمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهٰلة فتصبحوا على مافعلتم نـٰدمين﴾ (الحجرات: ٦). وسبب نزول هذه الآية والآيتين بعدها ماساقه الواحدى بسنده إلى الحارث بن ضرار أنه قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت في الإسلام وأقررت فدعانى إلى الزكاة فأقررت بها فقلت: يارسول الله أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لى جمعت زكاته فترسل لإبان كذا وكذا لآتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث بن ضرار ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد أن يبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا سروات قومه فقال لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان وقت لى وقتاً ليرسل إلى ليقبض ماكان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم،وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن الحارث يقبض ماكان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فقال: يارسول الله، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة، فلقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم ؟ قالوا: إليك، قال: ولم ؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبه، فرجع إليه فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذى بعث محمداً بالحق مارأيته ولا أتانى، ==

وفيها أيضاً تذكير بمايقتضيه الإيمان وتوجبه محبته وتحسينه اللذان جعلهما الله في قلوبهم بفضله وتوفيقه حتى جروا على مايقتضيه من الأقوال والأفعال.[١]

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذى حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء كقوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)[٢] وقوله تعالى: (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه).[٣] وقوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولٰئك هم الخٰسرون)[٤] وقوله تعالى: (ونفس وماسوّٰها. فألهمها فجورها وتقوٰها)[٥] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة نرجوا الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا.[٦]

(=) فلما أن دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ قال: لا والذى بعثك بالحق مارأيت رسولك ولا أتانى، ولا أقبلت إلا حين احتبس على رسولك خشية أن تكون سخطة من الله ورسوله، قال: فنزلت في الحجرات: (يٰأيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهٰلة فتصبحوا على مافعلتم نٰدمين) إلى قوله تعالى: (فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم).
أسباب النزول للواحدى ص٣٩١-٣٩٢

(١) انظر فتح القدير ٦٠/٥

(٢) جزء من الآية ١٧ سورة الكهف.

(٣) جزء من الآية ٩٧ سورة الإسراء.

(٤) آيه ١٧٨ من سورة الأعراف.

(٥) الآيتان ٧ و٨ من سورة الشمس.

(٦) أضواء البيان ٦٢٨/٧

المبحث الخامس

اليقين

اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن ويقن واليقين نقيض الشك والعلم نقيض الجهل.[١]

قال الراغب: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم.[٢]

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد فبه تفاضل العارفون وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمل القوم إنما كان عليه وإشاراتهم كلها إليه وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين قال تعالى وبقوله يهتدي المهتدون (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بايٰتنا يوقنون)[٣] وماذاك إلا لأن الصبر واليقين هما أصلا التوكل.

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين فقال وهو أصدق القائلين (وفي الأرض ءايٰت للموقنين)[٤] وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العاملين فقال: (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون).[٥]

قال صاحب الظلال: واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش

---

(١) اللسان (يقن) ٤٥٧/١٣

(٢) المفردات (يقن) ص٥٥٢

(٣) آيه ٢٤ من سورة السجدة.

(٤) آيه ٢٠ من سورة الذاريات.

(٥) الآيتان ٤ و٥ من سورة البقرة.

بين جدران الحس المغلقة ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب، بين من يشعر أن حياته على الأرض هى كل ماله في هذا الوجود وبين من يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء وأن الحياة الحقيقية إنما هى هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود.[١]

وقد أخبر الله عز وجل عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين فقال تعالى: (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ماندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين).[٢]

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك؟ وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟[٣] فيقول: بلى، فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فإنى أنساك كما نسيتنى.[٤]

فاليقين روح أعمال القلوب التى هى روح أعمال الجوارح فإنه لايترك هوى نفسه إلى طاعة الله عز وجل إلا من استقر اليقين في قلبه،فإن النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة،وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك هواه،ولهذا قال تعالى: (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى).[٥][٦]

---

(١) في ظلال القرآن ٤١/١

(٢) آيه ٣٢ من سورة الجاثية.

(٣) تربع: أى تأخذ ربع الغنيمة، يريد ألم أجعلك رئيساً مطاعاً لأن الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه ويسمى ذلك الربع المرباع.
انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (ربع) ١٨٦/٢

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٧٩/٤-٢٢٨٠ كتاب الزهد والرقائق (٥٣) حديث رقم (١٦-٢٩٦٨).

(٥) آيه ٤٠ من سورة النازعات

(٦) انظر الفتاوى ١٨٢/١٦

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلأ محبة لله وخوفاً منه ورضا به وشكراً له وتوكلاً عليه وإنابة إليه. وهو على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: علم اليقين:

وهو ماعلمه بالسماع والخبر والقياس والنظر مثل من أخبر أن هناك عسلا فصدق المخبر أو رأى آثار العسل واستدل على وجوده.

وهذه الدرجة تشمل الإيمان بأشرف علوم الخلائق علم الأمر والنهي وعلم الأسماء والصفات والتوحيد وعلم المعاد واليوم الآخر.

الدرجة الثانية: عين اليقين:

وهي ماشاهده وعاينه بالبصر مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة".(١)

فعلمنا الآن بالجنة والنار علم يقين فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق وبرزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق فذلك عين اليقين.

الدرجة الثالثة: حق اليقين:

وهو ماباشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ماعندهم من الذوق والوجد كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لايحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى

---

(١) رواه أحمد ٢١٥/١ وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ١٨٤٢/٣ حديث رقم (١٨٤٢).

في النار".[١]

وقال صلى الله عليه وسلم: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً".[٢]

والناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه أو يبلغه ماأخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم مايدل على ذلك.

الثانية: من شاهد ذلك وعاينه مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة بالله عز وجل والصدق واليقين مايعرف به مايجدونه من طعم للإيمان وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجوده ولكن شاهد مادل عليه لكن هو أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم.

الثالثة: أن يحصل له في نفسه ماكان سمعه كما قال بعض الشيوخ لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب.[٣]

والناس إذا باشروا ما أخبروا به من أمر الآخرة فدخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وذاقوا ماكانوا يوعدون ودخل أهلُ النَّارِالنَّارَ وذاقوا ماكانوا يوعدون

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان (١٤) حديث رقم (٢١) ومسلم في صحيحه ٦٦/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١٥) حديث رقم (٤٣/٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٦٢/١ كتاب الإيمان (١) باب الدليل على أن من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن (١١) حديث رقم (٣٤/٥٦).

(٣) انظر الفتاوى ٦٤٥/١٠- ٦٤٦- ٦٤٧

فذلك حينئذ حق اليقين.

نعم قد يحصل للناس حق اليقين في هذه الدنيا بالنسبة لحقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب وأعمالها فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق يقين وأما في أمور الآخرة والمعاد ورؤية الله جهرة عياناً وسماع كلامه بلا واسطة فحظ المؤمن منه في هذه الدار الإيمان وعلم اليقين، وأما حق اليقين فإنه يتأخر إلى وقت اللقاء.[١]

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٣٩٧-٤٠٤

المبحث السادس

المحبـة

الحب نقيـض البغـض، والحب الـوداد والمحبة، وكـذا الحِب بالكسـر، وأحبـه فهو مُحِب وهو مَحْبُوب على غير قيـاس، هذا الأكثر، وقـد قيـل مُحَب على القياس.(١)

قال ابن القيم رحمه الله: لا تحد المحبة بحد أوضـح منها، فالحدود لا تزيدهـا إلا خفاء وجفاء، فحـدها وجودها، فلا توصـف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم النـاس في أسبابها وموجباتها، وعلامـاتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، فتنوعت لهم العبـارات وكثرت الإشارات بحسـب إدراك الشخص ومقـامه وحاله، وملكه للعبارة.(٢)

والمحبـة هـي المنزلـة التى فيهـا تنـافس المتنــافسون، وإليهـا شخـص العاملون، وإلى عَلَمِهَا شَمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبِرَوْحِ نسيمها تروَّحَ العـابدون، فهى قوت القلـوب وغذاء الأرواح، وقـرة العيون، وهي الحيـاة التى من حرمها فهو من جملة الأموات، والنــور الذى من فقده فهو في بحار الظلمـات، والشفـاء الـذي مـن عدمه حلت بقلبـه جميـع الأسقـام، واللـذة التى مـن لم يظفر بهـا فعيشـه كله هموم وآلام، وهـى روح الإيمان والأعمال التى متى خلت منها فهى كالجسد الذى لا روح فيـه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكـونوا بدونها أبداً واصليهـا، تبوئهم من مقاعد الصـدق مقامات لم يكونوا

---

(١) اللسان: عند مادة حبب ٢٨٩/١

(٢) مدارج السالكين ٩/٣

لولاها داخليها، وهي مطايا القوم[١] التى مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذى يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب.[٢] فيالها من نعمة على المحبين سابغة، تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل، وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حى على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضا والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.[٣]

واعلم أن المحبة قسمان:

محبة خاصة ، ومحبة مشتركة.

فالقسم الأول المحبة المشتركة: وهي ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ونحو ذلك، وهذه لاتستلزم التعظيم.

---

(١) المطية هى الدابة تمطو أى تجد في سيرها. انظر القاموس المحيط عند مادة (مطا) (ص١٧٢٠).

(٢) كما في حديث ابن مسعود أنه قال: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال: المرء مع من أحب".
اخرجه البخارى في صحيحه ١٢٣/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب علامة الحب في الله (٩٦) حديث رقم (٦١٦٩) ومسلم في صحيحه ٢٠٣٤/٤ كتاب البر (٤٥) باب المرء مع من أحب (٥٠) الحديث رقم (٢٦٤٠/١٦٥).

(٣) انظر مدارج السالكين ٦/٣، ٧

النوع الثانى: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضا لاتستلزم التعظيم.

النوع الثالث: محبة أنس وإلف ، وهى محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر، بعضهم بعضاً، كمحبة الإخوة بعضهم بعضا، فهذه الأنواع الثلاث هى المحبة التى تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لايكون شركاً في محبة الله، ولهذا "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل"[1] "وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد"[2] وكان يعجبه من اللحم الذراع[3] وكان يحب نساءه، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن إليه ويحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق.[4]

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٤١/٣ كتاب الأطعمة (٧٠) باب الحلوى والعسل (٣٢) حديث رقم (٥٤٣١) ومسلم في صحيحه ١١٠١/٢ كتاب الطلاق (١٨) باب وجوب الكفارةعلى من حرم امرأته ولم ينو الطلاق(٣) حديث رقم (١٤٧٤/٢١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٨/٦ والترمذى في السنن ٣٠٧/٤ كتاب الأشربة (٢٧) باب ماجاء أى الشراب كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢١) حديث رقم (١٨٩٥) وقال: هكذا روى غير واحد عن ابن عيينة مثل هذا عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة والصحيح ماروى عن الزهرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً.
وقد صحح المرفوعَ فضيلةُ الشيخ ناصرالدين الألبانى في صحيح الترمذى ١٧٤/٢ حديث رقم (١٥٤٥-١٩٧٤).
وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ١٣٧/٤ كتاب الأشربة وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضى الله عنه وفيه "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة ، فرفعت إليه الذراع وكانت تعجبه ...".
أخرجه البخارى في صحيحه ٣٧١/٦ كتاب الأنبياء(٦٠) باب قول الله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) (٣) حديث رقم (٣٣٤٠) ومسلم في صحيحه ١٨٤/١ كتاب الإيمان (١) باب أدنى أهل الجنة منزلة (٨٤) حديث رقم (١٩٤/٣٢٧).

(٤) كما ورد في الصحيحين عن أبي عثمان "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ==

القسم الثاني: المحبة الخاصة، وهي التي لاتصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لايغفره الله، فهي محبة العبودية، المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لايجوز تعلقها بغير الله أصلاً، وهي التي سَوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين ءامنوا أشد حباً لله)[١] والمعنى في أصح القولين[٢] يحبونهم كما يحبون الله، وسَوَّوْا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ثم نفي ذلك عن المؤمنين، فقال: (والذين ءامنوا أشد حباً لله) فالذين آمنوا وأخلصوا حبهم لله لم يشركوا فيه معه غيره، فأما المشركون فلم يخلصوا لله، دل على ذلك قوله تعالى في آية أخرى (تالله إن كنا لفي ضلل مبين إذ نسويكم برب العٰلمين)[٣] فهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات حيث اعتقدوا أنهامساويةلله في أفعاله وصفاته، وإنماكانت

(=) بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل قال فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك ؟ قال: عائشة، قلت: من الرجال ؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر، فعد رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم".
أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٤/٣ كتاب المغازي (٦٤) باب غزوة ذات السلاسل (٦٣) حديث رقم (٤٣٥٨).
ومسلم في صحيحه ١٨٥٦/٤ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب من فضائل أبي بكر الصديق رضى الله عنه (١) حديث رقم (٢٣٨٤/٨).

(١) جزء من الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

(٢) والقول الثاني أن الذين اتخذوا هذه الأنداد من دون الله يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله، ثم أخبرهم أن المؤمنين أشد حباً لله من متخذى هذه الأنداد لأندادهم. جامع البيان ٦٦/٢ والقول الأول تشهد له آيات أخرى كما هو موضح في المتن.

(٣) الآيتان ٩٧ و٩٨ من سورة الشعراء.

تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، وتصحيح ذلك هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها، أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً فتكون أهم الأشياء عنده وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها، قال تعالى: (فوربك لنسئلنهم أجمعين. عما كانوا يعملون)[١] وهذه التسوية كذلك هي العدل المذكور في قوله تعالى: (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)[٢] على أصح القولين.[٣][٤]

وقد جعل الله لأهل محبته علامات:

أولها: اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيل الله عز وجل، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول مايحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ومن دفع مايبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، وقد قال الله تعالى: (قل إن كان ءاباؤكم وأبناؤكم وإخوٰنكم وأزوٰجكم وعشيرتكم وأموٰل اقترفتموها وتجٰرة تخشون كسادها ومسٰكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفٰسقين).[٥] وقال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم).[٦]

---

(١) الآيتان ٩٢ و٩٣ من سورة الحجر.

(٢) جزء من الآية ١ من سورة الأنعام.

(٣) والقول الثاني أن الباء بمعنى (عن) والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي، إذ لاتقول العرب عدلت بكذا أي عدلت عنه وإنما جاء هذا في فعل السؤال نحو: سألت بكذا أي عنه كأنهم ضمنوه اعتنيت به واهتممت. انظر مدارج السالكين ٣/ ٢١

(٤) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ٤٨٦،٤٨٧،٤٨٩، وتيسير العزيز الحميد ص٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩

(٥) آيه ٢٤ من سورة التوبة.

(٦) آيه ٣١ من سورة آل عمران.

وهذه الآية تسمى آية المحنة، قال أبو سليمان الداراني [١]: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).[٢]

وقوله تعالى: (يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، ودليلها وعلامتها اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفائدتها وثمرتها محبة المرسِل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منفيـــة.

العلامة الثانية والثالثة: الواردتان في قوله تعالى: (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكٰفرين)[٣] فهم أذلة على المؤمنـين.

ومعناه أرقاء رحماء مشفقون عاطفون عليهم ولما ضمن أذلة هذا المعنى عداه بأداة على، قال بعض السلف بالمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (أشداء على الكفار رحماء بينهم).[٤]

العلامة الرابعة: أنهم لاتأخذهم في الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه، فليس بمحب على الحقيقة كماقيل:

لاكان من لسواك فيه بقية　　　يجد السبيل بها إليه اللوم

---

(١) هو: عبدالرحمن بن أحمد بن عطيه العنسى أبو سليمان الداراني زاهد مشهور رحل إلى بغداد وأقام بها له أخبار كثيرة في الزهد، توفي سنة ٢١٥هـ.
انظر وفيات الأعيان ١٣١/٣، وحلية الأولياء ٢٥٤/٩

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ٢١/٣

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٤) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

قال تعالى: (يٰأيها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكٰفرين، يجٰهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم).[1][2]

وقال تعالى: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً)[3] ذكر تعالى في هذه الآية مقامات الحب الثلاثة، ومن المعلوم قطعاً أنه لايتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، فمحبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، وعند الجهمية[4] والمعطلة[5] مامن ذلك كله شىء فإنه عندهم لاتقرب ذاته من شىء ولا يقرب من ذاته شىء، فلا يحب لذاته ولايحب، فأنكروا حياة القلوب ونعيم الأرواح وبهجة النفوس وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضربت دونهم ودون الله حجب عن معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها، وحسب ذى البصيرة وحي القلب مايرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله عز وجل ومعرفته وتوحيده، والله المستعان.[6]

---

(١) جزء من الآية ٥٤ سورة المائدة.

(٢) انظر العبودية ص٢٨، ومدارج السالكين ٣/٢١-٢٢

(٣) آيه ٥٧ من سورة الإسراء.

(٤) الجهمية :هم أصحاب الجهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ وقتله مسلم بن أحوز المازنى بمرو في آخر ملك بنى أمية وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء. انظر الملل والنحل ١/٨٦

(٥) المعطلة هم جميع من تعرض لصفات الله عز وجل بتأويل أو نفى أو تحريف.

(٦) انظر مدارج السالكين ٣/٢٢-٢٣ بتصرف.

وقال تعالى: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدٰوة والعشي يريدون وجهه).[١]

وقال أحبابه وأولياؤه (إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا)[٢]

وقال تعالى: (ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى).[٣]

فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه.

وقال تعالى: (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الأخرة فإن الله أعد للمحسنٰت منكن أجراً عظيماً)[٤] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة.

كما في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ماعلمت الحياة خيراً لى، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لى ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسالك نعيماً لاينفذ، وأسألك قرة عين لاتنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضله، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهديين"[٥] وقد اشتمل هذا الحديث الشريف على

---

(١) جزء من الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٩ من سورة الإنسان.

(٣) الآية ١٩ و٢٠ و٢١ من سورة الليل.

(٤) الآية ٢٩ من سورة الأحزاب.

(٥) أخرجه النسائى في السنن ٥٤/٣-٥٥ كتاب السهو (١٣) باب رقم (٦٢) حديث رقم (١٣٠٥) وقد صححه الشيخ الألبانى في صحيح النسائى ٢٨٠/١-٢٨١ حديث رقم (١٢٣٧).

ثبوت لـذة النظـر إلى وجه اللـه، وعلى ثبـوت الشـوق إلى لقـائه، وعنـد الجهميـة لاوجه له -سبحانه- ولا ينظـر إليه فضلا أن يحصـل به لـذة، كما سمـع بعضهـم داعيا يدعو بهـذا الـدعاء فقال: "ويحك ! هـب أن لـه وجهاً أفتلتذ بالنظر إليه؟ ".(١)

ومتى تمكنت محبة الله تعالى من القلب أدى ذلك إلى أن يؤثر المحـب محبـوبه على كل حظوظ نفسه بل حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحـي بنفسه في سبيل محبوبه كحال سحرة فرعون لما سكنت المحبـة قلوبهم سمحوا ببذل نفـوسهم وقالوا لفـرعون (فاقض مـاأنت قاض)(٢) ومتى تمكنـت المحبـة من القلب لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب، وهذا هـو معنى قوله تعالى في الحديث القدسي(٣) "وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبـه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها".(٤)

والمعنى أن محبـة الله تعـالى إذا استغرق بها القلـب واستولت عليه لم تنبعث الجوارج إلا إلى مراضي الرب، وصارت النفس حينئذ مطمئنة بإرادة

---

(١) انظر مدارج السالكين ٣/٢٢-٢٤

(٢) جزء من الآية ٧٢ من سورة طه.

(٣) للعلماء رحمهم الله تعالى قولان في الأحاديث القدسية الأول أنها من كلام الله تعـالى وليـس للنبي صلى اللـه عليـه وسلم إلا حكايتهـا عـن ربه عز وجل وذلك لكونها أضيفت إلى الله فقيل قدسية والٰهية ولكونها اشتملـت على ضمائر التكلم الخاصـة به كقوله ياعبادى ولأنهـا تروى عن الله تعالى متجـاوزاً فيهـا النبـــي صلى الله عليه وسلم والثاني أنها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه كالأحاديث النبـوية وحكمـة إضافتها إليـه تعـالى على هذا القول دون بقيـة الأحاديث زيادة الاهتمـام بمضمـونها وتوجيه النفـوس إلى مـاشتملت عليـه مـن المعاني والآداب، والله أعلم. انظر الحديث والمحدثون ص١٦-١٨

(٤) أخرجه البخـارى في صحيحـه ١٩٢/٤ كتـاب الـرقاق (٨١) باب التــواضع(٣٨) حديث رقم (٦٥٠٢).

مولاها عن مرادها وهواها.[١]

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين وذكر مايحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم كقوله تعالى: (والله يحب الصٰبرين)[٢] (والله يحب المحسنين)[٣] (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٤] (إن الله يحب الذين يقٰتلون في سبيله صفا كأنهم بنيٰن مرصوص)[٥] (فإن الله يحب المتقين).[٦]

وقوله في ضد ذلك: (والله لايحب الفساد)[٧] (والله لايحب كل مختال فخور)[٨] (والله لايحب الظٰلمين)[٩] (إن الله لايحب كل مختال فخور).[١٠]

وكم في السنة: أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا... وإن الله ليحب كذا وكذا، كقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل".[١١]

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها

---

(١) انظر كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب ص٤٣
(٢) جزء من الآية ١٤٦ من سورة آل عمران.
(٣) جزء من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
(٤) جزء من الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٤ من سورة الصف.
(٦) جزء من الآية ٧٦ من سورة آل عمران.
(٧) جزء من الآية ٢٠٥ من سورة البقرة.
(٨) جزء من الآية ٢٣ من سورة الحديد.
(٩) جزء من الآية ٥٧ من سورة آل عمران.
(١٠) جزء من الآية ١٨ من سورة لقمان.
(١١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٠/١ كتاب الإيمان (٢) باب أحب الدين إلى الله أدومه (٣٢) حديث رقم (٤٣).
ومسلم في صحيحه ٥٤٠/١-٥٤١ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب فضيلة العمل الدائم (٣٠) حديث رقم (٧٨٢/٢١٥).

وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها".[١]

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لايضرك بأيهن بدأت".[٢] وأضعاف أضعاف ذلك، وفرحه العظيم بتوبة عبده الذى هو أشد فرح يعلمه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله فإنها روح كل مقام ومنزلة كل عمل، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها بل هى حقيقة الإخلاص، بل هى نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لامحبة له لا إسلام له البتة، بل هى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى يألهه العباد حباً وذلاً، وخوفاً ورجاءً، وطاعةً له، بمعنى مألوه وهو الذى تألهه القلوب أي تحبه وتذل له، وأصل التأله التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، يقال عَبَّده الحب وتيّمه، إذا ملكه وذلّله لمحبوبه، فالمحبة حقيقة الألوهية، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة؟ وكذلك الرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه، وكذلك الزهد في الحقيقة هو زهد المحبين، فإنهم يزهدون في محبة ماسوى محبوبهم لمحبته، وكذلك الحياء في الحقيقة، إنما هو حياء المحبين، فإنه يتولد من بين الحب العظيم، وأما مالا يكون عن محبة فذلك خوف محض، وكذلك الشوق إلى الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٦٤/١ كتاب المساجد(٥) باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد (٥٢) حديث رقم (٦٧١/٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٦٨٥/٣ كتاب الآداب (٣٨) باب كراهة التسمية (٢) حديث رقم (٢١٣٧/١٢).

ولقائه فإنه لب المحبة وسرها فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب معطل لذلك كله وحجابه أكثف الحجب وقلبه أقسى القلوب وأبعدها عن الله وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام فإن الخلة كمال المحبة، فلا بالخلة أقر المنكرون،ولا بالعبودية ولا بتوحيد الألوهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان، ولهذا ضحى خالد بن عبدالله القسرى[١] بمقدم هؤلاء وشيخهم الجعد بن درهم[٢] وقال في يوم عيد الله الأكبر عقب خطبته: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيرا، ثم نزل فذبحه فشكر المسلمون سعيه ورحمه الله وتقبل منه.[٣]

وللمحبة عشر مراتب:

أولها: العلاقة: وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: الإرادة: وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة: وهي انصباب القلب إليه، بحيث لايملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام: وهو الحب الملازم للقلب، الذى لايفارقه بل يلازمه كملازمة

---

(١) هو خالد بن عبدالله بن يزيد القسرى من بجيلة أبو الهيثم أمير العراقيين وأحد خطباء العرب من أهل دمشق ولى مكة والكوفة والبصرة وأقام بالكوفة فأطال المدة بها وتوفى سنة ١٢٦هـ. انظر وفيات الأعيان ٢٢٦/٢، والبداية والنهاية ١٠٥/٣

(٢) هو الجعد بن درهم مبتدع له أخبار في الزندقة وقال بخلق القرآن والقدر من الموالى سكن الجزيرة الفراتية هلك سنة ١١٨هـ. انظر الكامل ١٦٠/٥، وميزان الاعتدال ٣٩٩/١

(٣) انظر مدارج السالكين ٢٥/٣-٢٧ بتصرف.

الغريم لغريمه.

الخامسة: الوداد: وهو صفو المحبة وخالصها ولبها.

السادسة: الشغف: وفيه ثلاثة أقوال: أنه الحب المستولى على القلب بحيث يحجبه عن غيره. والثانى: أنه الحب الواصل إلى داخل القلب. والثالث: انه الحب الواصل إلى غشاء القلب.

السابعة: العشق: وهو الحب المفرط، الذى يخاف على صاحبه منه.

الثامنة: التتيم: وهو التعبد والتذلل، يقال: تيمه الحب أى ذلله وعبده وتيم الله عبد الله.

التاسعة: التعبد: وهو فوق التتيم، فإن العبد هو الذى قد ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيء من نفسه البتة، بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن أكمل ذلك فقد أكمل مرتبتها، ولما أكمل سيد ولد آدم هذه المرتبة، وصفه الله بها في أشرف مقاماته مقام الإسراء، كقوله (سبحٰن الذى أسرى بعبده)(١) ومقام الدعوة كقوله (وأنه لما قام عبد الله يدعوه)(٢) ومقام التحدى كقوله (وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا)(٣) وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة. وحقيقة العبودية الحب التام مع الذل التام والخضوع للمحبوب.

العاشرة: مرتبة الخلة: وهى التى انفرد بها الخليلان، إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

---

(١) جزء من الآية ١ من سورة الإسراء.
(٢) جزء من الآية ١٩ من سورة الجن.
(٣) جزء من الآية ٢٣ من سورة البقرة.

"لـو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبابكـر خليلاً ولكنـه أخى وصـاحبى وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً".[١]

والخلـة هـي المحبة التى تخللـت روح المحب وقلبـه، حتى لم يبـق فيه موضع لغير المحبوب.[٢]

وفي الختـام يحسن بنا أن نذكـر المواطن التى يُعـرَف بهـا تعلق القلب بمحبوبه، وهذه المواطن أربعة:

المـوطن الأول: عنـد أخذ مضجعـه وتفـرغ حواسـه وجوارحه عـن الشواغل، واجتماع قلبه على مايحب فإنه لاينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عنـد انتباهه من النوم، فأول شيء يسبـق إلى قلبه ذكر محبـوبه فإنه إذا استيقظ وردت إليـه روحه رد معها إليـه ذكـر محبوبه الذي كان قد غاب منه في النوم.

الموطن الثالث: عنـد دخولـه في الصلاة، فـإنها محك الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه، ومقـدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة، ولاواسطة فيهـا بين العبد وبين ربه، فلا شـيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولاأنعم لعيشـه منها، إذا كان محباً، فإنه لاشيء آثر عند المحب ولاأطيـب له من خلوته بمحبـوبه، ومناجاته له، ومثـوله بين يديه، وقـد أقبـل محبـوبه عليه، فيجد قلبـه قـد انفسح وانشرح واستراح، كمـا قـال النبي صلى اللـه عليـه وسلم لبلال[٣] رضى الله عنـه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٥٥/٤ كتـاب فضائل الصحابة (٤٤) باب مـن فضائل أبي بكر رضي الله عنه (١) حديث رقم (٢٣٨٣/٣).

(٢) انظر مدارج السالكين ٢٧/٣- ٣٠

(٣) هـو بلال بن رباح مولى أبي بكـر الصديق وأمه حمامـة وهو مؤذن ==

"يابلال أقم الصلاة أرحنـا بها"[١] ولم يقـل أرحنا منها كما يقول المبطلـون الغافلون.

الموطن الرابع: عنـد الشـدائد والأهـوال، فإن القلب في هـذا الموطـن لايذكـر إلا أحب الأشيـاء إليـه، ولا يهـرب إلا إلى محبـوبه الأعظـم عنده، ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبون عند الحرب واللقـاء وهو كثير في أشعـارهم. ولهـذا قـال تعالى: (يـأيها الـذين ءامنـوا إذا لقيتم فئـة فـاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون).[٢]

والسر في هذا والله أعلم أنه عند مصاعب الشدائد والأحوال، يشتـد خوف القلب من فوات أحب الأشياء إليه، وهى حياته التى لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبـوبه، فإذا خاف فواتها بادر إلى قلبه ذكر محبوبه الذى يفوت بفوات حياته.

ولهذافمن كان مشغولابالله وبذكره ومحبته في حال حياته، وجد ذلك أحوج ماهو إليه عندخروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاًبغيره في حال حيـاته وصحتـه فيعسر عليه اشتغـاله باللـه وحضوره معـه عنـد الموت، مالم تدركه عنايةمن ربه، فلأجل هذاكان جديربالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر اللـه حيثمـا كان لأجل تلـك اللحظة التى إن فاتت شقـي شقـاوةالأبد.[٣]

(=) رسول الله صلى الله عليه وسلم من السابقين الأولين الـذين عذبوا في الله، شهد بدراً وشهـد له النبي صلى اللـه عليه وسلم على التعيين بالجنـة وحديثه في الكتب، توفى سنـة ٢٠هـ، وقيـل غير ذلـك. انظـر السير ٣٤٧/١، الإصـابة ١٦٩/١ برقـم (٧٣٦).

(١) رواه أبو داود في السنن ٢٩٦/٤ كتاب الأدب، باب في صلاة العتمـة حديث رقم (٤٩٨٥) وأحمد في المسند ٣٦٤/٥
وقد صححه الشيخ الألبانى في صحيح سنن أبي داود ٩٤١/٣ حديث رقم (٤١٧١).

(٢) الآية ٤٥ من سورة الأنفال.

(٣) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٥٠٤-٥٠٧).

المبحث السابع

الرجـاء والخـــوف

اعلم أن الـرجاء والخوف جنـاحان يطير بهمـا المقـربون إلى كـل مقام محمود ومطيتان بهما تقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود[١] فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كـونه بعيـد الأرجاء ثقيـل الأعبـاء محفـوفاً بمكاره القلوب، ومشاق الجوارح والأعضاء، إلا أزمة[٢] الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعـذاب الأليم مـع كـونه محفـوفاً بلطـائف الشهـوات وعجـائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات[٣] التعنيف.[٤]

والقلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر: المحبة رأسه والخوف والـرجاء جنـاحاه، فمتى سلم الـرأس والجناحان فالطائر جيـد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فَقَد الجناحين فهو عـرضه لكل صائد وكاسر، ولكـن السلـف استحبـوا أن يقـوى في الصحـة جنـاح الخوف على جنـــاح الـــرجاء، وعنـد الخـروج مـــن الـدنيا يقـوى جنـاح الـــرجاء على جنـــاح الخوف.[٥]

---

(١) عقبة كؤود: صعبة. انظر القاموس المحيط عند مادة (كأد) ص٤٠١

(٢) الـزمام: مـازم أى مـاشد به مـن حبـل وغيره. انظـر اللسـان عنـد مـادة (زمـم) ٢٧٢/١٢

(٣) سطـوات: جمـع سطوة وهى القهـر والصـول. انظر القامـوس المحيـط عنـد مادة (سطا) ص١٦٧٠

(٤) إحياء علوم الدين ١٤٩/٤

(٥) مدارج السالكين ٥١٧/١

قال المرداوى:[١]

ورجح على الخوف الرجا عند بأسه

ولاق بحسن الظن ربك تسعد [٢]

وليس معنى هذا خلو القلب حال الشدة من الخوف، بل لابد من اجتماع الخوف والرجاء، وإن كانت الغلبة للرجاء، يدل على ذلك مارواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو بالموت فقال: "كيف تجدك؟ قال: والله يارسول الله إنى أرجو الله وإنى أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لايجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلاأعطاه الله مايرجو، وأمنه ممايخاف".[٣]

ومما يدل على تغليب الرجاء حال المصائب قوله تبارك وتعالى:

---

(١) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبدالقوى بن بدران بن سعدالله المقدسي المرداوى الصالحى الحنبلي أبو عبدالله ولد سنة ٦٣٠هـ بمرو .
وسمع الحديث وتفقه وبرع في العربية واللغة واشتغل ودرس وأفتى وصنف، كان حسن الديانة دمث الأخلاق كثير الإفادة مطرحاً للتكلف وله روايات وحكايات ونوادر،فقيه حنبلى، توفى بدمشق سنة ٦٩٩هـ له منظومة الآداب.
انظر شذرات الذهب ٤٥٢/٥، والأعلام ٢١٤/٦

(٢) منظومة الآداب مع شرحها غذاء الألباب للسفارينى الحنبلى رحمه الله ٤٦٠/١

(٣) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٣١١/٣ كتاب الجنائز (٨) باب (١١) حديث رقم (٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب وقد روى بعضهم هذا الحديث عن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً.
وأخرجه ابن ماجه في السنن ١٤٢٣/٢ كتاب الزهد (٣٧) باب ذكر الموت والاستعداد له (٣١) حديث رقم (٤٢٦١).
وقد حسن الشيخ الألبانى هذا الحديث كما في صحيح سنن الترمذى ٢٨٩/١ حديث رقم (٧٨٥).

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنٰهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولاإذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطٰن ماكانوا يعملون).[١]

فقوله تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنهم بالبأساء) يعنى الفقر والضيق في العيش (والضراء) هى الأمراض والأسقام والآلام (لعلهم يتضرعون) أى يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون. قال الله تعالى: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا (ولكن قست قلوبهم) أى مارقت ولا خشعت (وزين لهم الشيطٰن ماكانوا يعملون) أى من الشرك والمعاصى.[٢]

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (ولقد أخذنٰهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون)[٣] وقوله تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس ءاباءنا الضراء والسراء فأخذنٰهم بغتة وهم لايشعرون).[٤]

وهذه الآية الأخيرة كما أنها دلت على مادلت عليه الآيتان السابقتان من غلبة الرجاء في حال الشدة، لأن التضرع دعاء وابتهال فيه رجاء.

فكذلك دلت أيضاً على تغليب حال الخوف عند انفتاح النعم وتحسن الأحوال، فإن الله عز وجل قد ذكر لنا في هذه الآية أنه بعد أن ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذى أراد منهم، قلب الحال إلى

(١) الآيتان ٤٢ و٤٣ من سورة الأنعام.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٥١/٣
(٣) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.
(٤) الآيتان ٩٤ و٩٥ من سورة الأعراف.

الرخاء ليختبرهم حتى كثرت أموالهم وأولادهم فلما لم ينجح فيهم هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر.[١]

وهذا مشعر بأن المؤمن عليه أن يظل في حال الخوف وذلك عند انفتاح النعم فإنه لايأمن أن يكون ذلك استدراجاً من الله تعالى. نسأل الله السلامة والعافية.

والرجاء من الأمل نقيض اليأس[٢] وهو ظن يقتضي حصول مافيه مسرة.[٣] وقد عرفه الراغب بأنه توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة.[٤]

ولايكون الرجاء إلا مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز ولا يكون أبداً مع تعطيل الأسباب الموصله إليه، قال تعالى: (إن الذين ءامنوا والذين هاجروا وجٰهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم)[٥] فطوى سبحانه وتعالى بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.[٦]

فالعبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وماتمامها إلا بدخول الجنة والنظر إلى وجه الله ذى الجلال والإكرام.

وكذلك العاصي إذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصيرفحقيق

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٤٦/٣

(٢) اللسان عند مادة (رجا) ٣٠٩/١٤

(٣) المفردات عند مادة (رجا) ص١٩٠

(٤) المفردات عند مادة (خوف) ص١٦١

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

(٦) الروح ص٣٣٠-٣٣١

بأن يرجو قبول التوبة وأما قبل التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق إليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لاتجرى على اليبس[١]

والآيات والأحاديث في الرجاء كثيرة جداً فمنها:

قوله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صلحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً).[٢]

وقوله تعالى: (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لأت).[٣]

وكذلك تلك الآيات التى فيها ذكر لسعة رحمة الله تعالى وهى آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم).[٤]

وقوله تعالى: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم).[٥] وغير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فمنها قوله تعالى في الحديث القدسى: "أنا عند ظن عبدى بي".[٦]

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٥٠-١٥١

(٢) جزء من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٣) جزء من الآية ٥ من سورة العنكبوت.

(٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٥) جزء من الآية ٦ من سورة الرعد.

(٦) أخرجه البخارى في صحيحه ٤/٣٨٤ كتاب التوحيد (٩٧) ==

ومنهـا قوله صلى الله عليـه وسلم: "إن الله خلـق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقـه كلهم رحمة واحدة فلـو يعلم الكافر بكـل الذى عند الله من الرحمـة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار".[١]

وقـوله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامـة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فكاكك[٢] من النار".[٣]

وأمـا الخوف فهو في اللغـة الفزع خافه يخافه خوفـاً وخيفة ومخافة.[٤]

وقد عرفه الراغب بأنه توقع مكروه عن أمارة مظنـونة أو معلومة.[٥]

وقال الغزالى:[٦] الخوف عبـارة عن تألم القلب واحتراقـه بسبب توقع

(=) باب قوله تعالى: (ويحذركم الله نفسه) (١٥) حديث رقم (٧٤٠٥).
ومسلم في صحيحه ٢٠٦١/٤ كتاب الذكر (٤٨) باب الحث على ذكر الله تعالى (١) حديث رقم (٢٦٧٥/٢).

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٥/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب الـرجاء مع الخوف (١٩) حديث رقم (٦٤٦٩).
ومسلم في صحيحـه ٢١٠٨/٤ كتـاب التـوبة (٤٩) باب في سعـة رحمـة اللـه تعالى وأنها سبقت غضبه (٤) حديث رقم (٢٧٥٢/١٧) و(١٨) و(١٩) و(٢٠).

(٢) الفكاك: الخلاص. انظر القاموس المحيط عند مادة (فكك) ص١٢٢٧

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١١٩/٤ كتاب التوبة (٤٩) باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٨) حديث رقم (٢٧٦٧/٤٩).

(٤) اللسان عند مادة (خوف) ٩٩/٩

(٥) المفردات عند مادة (خوف) ص١٦١

(٦) هـو الشيخ الإمام البحر زين الـدين أبو حامد محمد بن محمـد بن محمد الطوسي الشـافعي الغزالى صاحب التصـانيف والذكاء المفرط تفقـه في بلـده ثم تحول إلى نيسـابور فلازم إمـام الحرمين وبرع في الفقـه والكلام والجدل وأخذ في تأليـف الأصول والفقه له كتاب الإحياء، توفى عام ٥٠٥هـ. انظر السير ٣٢٢/١٩، طبقات الشافعية للسبكى ١٠١/٤ إلى ١٨٢

مكروه في الاستقبال.[١]

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الخوف والوجل والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة، فالخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور بالألم والفزع وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله، والوجل والفزع أخص منه فالوجل هو الشعور بالخوف يلم بالقلب والخشية أخص كذلك من الخوف فإنها للعلماء بالله قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلمـٰؤا)[٢] فهى خوف مقرون بمعرفة، فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون .

وأما الرهبة فهى الإمعان في الهرب من المكروه وهى ضد الرغبة التى هى سفر القلب في طلب المرغوب فيه، وأما الهيبة فهى خوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ماتكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال تعظيم مقرون بالحب، فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية.[٣] والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف ممدوح مأمور به وهو الخوف من الله تبارك وتعالى وهو ماتقدمت الأدلة عليه.

الثاني: خوف مذموم منهى عنه وهو نوعان:

الأول: مايسمى بخوف السر وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام أنهم

---

(١) إحياء علوم الدين ١٦٣/٤

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٣) انظر مدارج السالكين ٥١٢/١-٥١٣

قالوا له: (إن نقول إلا اعتراك بعض ءالهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون)[١] وقال تعالى: (ويخوفونك بالذين من دونه)[٢]

وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله وهذا النوع ينافى التوحيد بالكلية.

وقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما خوفوه من آلهتهم الباطلة (وكيف أخاف ماأشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطٰنا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون)[٣] إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود أنه إن كان أحد حرياً بالخوف فليس هو إبراهيم وليس هو المؤمن الذى ترعاه عين الله، وكيف يخاف آلهة عاجزة كائنة ماكانت هذه الآلهة والتى تبتدى أحيانا في صورة جبارين في الأرض بطاشين وهم أمام قدرة الله مهزومون مغلوبون، وكيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ولايخافون هم أنهم أشركوا بالله مالم ينزل به عليهم سلطاناً، فأى الفريقين أحق بالأمن، الذى يؤمن به تعالى وحده ويكفر بالشركاء، أم الذى يشرك به تعالى بلا سلطان ولا قوة؟ أى الفريقين أحق بالأمن لو كان لهم شىء من العلم والفهم وحينئذ يتنزل الجواب ويقضى الله عز وجل بحكمه في هذه القضية (الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمٰنهم بظلم أولٰئك لهم الأمن وهم مهتدون).[٤][٥]

---

(١) الآيتان ٥٤ و٥٥ من سورة هود.

(٢) جزء من الآية ٣٦ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٨١ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

(٥) انظر في ظلال القرآن ١١٤٢/٧

الثاني: أن يترك الإنسان مايجب عليه خوفاً من بعض النـاس فهذا محرم وهـو نوع من الشرك بالله المنـافى لكمال التوحيـد وهـذا هو سبب نزول قوله تعالى: (إنما ذٰلـكم الشيطٰن يخوف أولياءه فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين).(١)

فقـد أخرج الواحدى(٢) عن عمرو بن دينـار(٣) أن رسـول اللـــه صلى اللــه عليـه وسلم استنفــر النـاس بعـد أحد حين انصـــرف المشـركون فاستجاب له سبعون رجلاً فطلبهـم،فلقـي أبو سفيـان (٤) عيراً من خزاعـة فقـال لهم: إن لقيتم محمداً يطلبنى فـأخبروه أنى في جمـع كثير فلقيهـم النبي صلى اللـه عليـه وسلم فسـألهـم عـن أبي سفيان فقالوا لقينـاه في جمـع كثير ونراك في قلـة ولا نأمن عليك فأبى رسول الله صلى اللـه عليه وسلم إلا أن يطلبـه فسبقه أبوسفيان فدخل مكة فأنزل الله تعالى فيهـم: (الذين استجابوا

---

(١) الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) هـو الإمـام العالم الأستاذ أبو الحسـن علي بن أحمد بن محمـد بن علي الـواحدى النيســابورى الشافعى صاحب التفسير إمام علماء التأويل لـزم الثعلبي وأكثر عنه وأخذ العـربية وصنف التفاسير الثلاثة البسيـط والوسيـط، والوجيز، وله كتاب أسباب النزول، مات بنيسابور سنة ٤٦٨هـ. انظر السير ٣٣٩/١٨، والكـامل لابن الأثير ١٠١/١٠

(٣) هـو عمـرو بن دينار الإمام الحافـظ أبومحمد الجمحي مولاهـم المكـى الأثرم أحد الأعلام، ولـد في إمرة معاوية سنة ٤٥ أو ٤٦ وسمع من ابن عبـاس وجابر وابن عمر وأنس وغيرهم من الصحابة والتابعين، وكان من الحفـاظ المقدمين، أفتى بمكة ثلاثين سنـــة وكـان فقيهـاً. انظـر طبقـات ابن سعـد ٤٧٩/٥، وسير أعلام النبلاء ٣٠٠/٥

(٤) هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب رأس قـريش وقائدهم يوم أحد والخندق تداركه اللـه بالإسلام يوم الفتح فـأسلم شبه مكره ثم بعد أيام صلـح إسلامه شهد قتال الطـائف واليرمـوك وأبلى بلاءً حسنـاً، توفى بالمدينـة سنـة ٣١ وقيـل غير ذلك وله تسعـون سنـة. انظر سير أعلام النبلاء ١٠٥/٢، شذرات الذهب ٣٧/١

للـه والرسول... حتى بلغ ... فلا تخافـوهم وخافـون إن كنتم مـؤمنين)[١][٢]

القسم الثالث: الخوف الطبيعـى وهـو الخوف مـن عدو أو سبـع أو غير ذلـك فهذا لايذم فاعله كما قال تعالى في قصة موسى عليـه السلام: (فخرج منها خائفاً يترقب).[٣][٤] والخوف المحمود الصادق ماحال بين صـاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.[٥]

وهنـاك منزلـة أخص من الخوف وهـي ذات ارتبـاط وثيـق بها وهى منزلـة الإشفـاق وهى رقة الخوف، فـالإشفاق خوف برحمـة مـن الخائف لمن يخاف عليـه فنسبته إلى الخوف نسبـة الرأفة إلى الرحمـة فإنها ألطف الرحمة وأرقها فيشفق على عمله أن يكون من الأعمال التى قال الله عز وجل فيها: (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلنٰـه هبـاء منثوراً)[٦] وهي الأعمال التى كانت لغير الله أو على غير أمـره وسنة رسوله صلى اللـه عليه وسلم ويخاف

---

(١) الآيات ١٧٢ إلى ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الواحدى في أسباب النزول ص١٣٠-١٣١ هكذا مرسلاً.
ويشهـد لـه ما اتفق عليه الشيخـان مـن حديث عائشة رضـى اللـه عنها في قوله تعـالى: (الذين استجابوا للـه والرسول من بعد ماأصابهـم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) (آل عمران: ١٧٢) قالت لعروة: ياابن أختى كان أبواك منهـم: الزبير وأبوبكر لما أصـاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف عنـه المشركون خاف أن يرجعـوا، قـال: مـن يذهـب في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبوبكر والزبير".
أخرجه البخـارى في صحيحه ١١٠/٣ كتـاب المغازى (٦٤) باب "الـذين استجابوا لله والرسول" (٢٥) حديث رقم (٤٠٧٧).
ومسلم في صحيحـه ١٨٨١/٤ كتـاب فضائل الصحابة (٤٤) باب مـن فضائل طلحة والزبير رضى الله عنهما (٦) حديث رقم (٢٤١٨/٥١) و(٥٢).

(٣) جزء من الآية ٢١ من سورة القصص.

(٤) انظر هـذه الأقسام الثلاثة في فتـح المجيـد شرح كتــاب التـوحيد ص٣٥٢-٣٥٣

(٥) انظر مدارج السالكين ٥١٤/١

(٦) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل إما بتركه وإما بمعاص تفرقه وتحبطه فيذهب ضائعاً ويكون حال صاحبه كالحال التى قال الله تعالى فيها: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهٰر له فيها من كل الثمرٰت وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الأيٰت لعلكم تتفكرون)[١] ويشفق على وقته أن يضيع في غير مايرضى الله ويشفق على قلبه أن يزاحمه عارض من شبهة أو شهوة.

واعلم أن من أعظم مايعين على الرجاء والخوف التفكر في آيات الله عز وجل وكثرة ذكره تبارك وتعالى، قال تعالى: (لأيٰت لقوم يتفكرون)[٢] وقال كذلك: (لأيٰت لأولى الألبٰب. الذين يذكرون الله قيٰماً وقعوداً وعلى جنوبهم...).[٣][٤]

---

(١) الآية ٢٦٦ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة الرعد.

(٣) جزء من الآيتان ١٩٠ و١٩١ من سورة آل عمران.

(٤) انظر الرعاية لحقوق الله ص٦٤-٦٥

المبحث الثامن

الوجل

الـوجل استشعـار الخوف يقـال وجل يوجل فهـو وجل[١] وجمعه وجال، والأنثى وجله،ولا يقال وجلاء،وقوم وجلون ووجال.[٢]

وهنـاك مـن عَرّف الـوجل بالخوف والفـزع[٣] ولكـن هذه الألفـاظ متقـاربة غير مترادفـة كما يقول ابن القيم رحمـه الله،[٤] فالخوف توقع أمـر مؤلم في المستقبل قد يصحبـه شعـور بالألم والفـزع وقـد يفـارقه لضعفـه أو لاعتقاد بعد أجله،فالوجل والفزع أخص منه،فالوجل هو الشعور بالخوف يلم بالقلب،وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة،وقـد يكون من الإجلال والهيبـة،والظن بأن الوجل لايكون إلا من خوف العـذاب لايصدر إلا ممن لم يذق طعـم الخشيـة، والـوجل مـن هيبـة اللـه وعظمتـه وكبريائه وعـزه وسلطـانه وغير ذلـك من معانى أسمـائه وصفاته،وممن لم يقـرأ قـوله تعالى: (إنما يخشـى الله من عباده العلمـٰؤا)[٥]،وممن لم يعلم أن من عباد اللـه من يخشع قلبه ويفيض دمعه من ذكر أسماء الله في آخر سـورة الحشر[٦] أو في غيرها من الآيات.[٧]

---

(١) المفردات ص٥١٣ عند مادة (وجل).

(٢) اللسان عند مارة (وجل) ٧٢٢/١١-٧٢٣

(٣) انظر البيضاوى ٣٧٤/١، وفتح القدير ٢٨٥/٢ والتحرير والتنوير ٢٥٦/٩

(٤) انظر مدارج السالكين ٥١٢/١

(٥) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٦) وهو قوله تعالى: (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمـن المهيمن العزيز الجبـار المتكبر سبحـان اللـه عمـا يشـركون هو الله الخـالـق البـارىء المصـور له الأسمـاء الحسنى يسبـح لـه مـافي السمـوات والأرض وهـو العـزيز الحكيم) (الحشر:٢٢-٢٤).

(٧) انظر تفسير المنار ٥٨٩/٩-٥٩٠

وقد ورد ذكر الوجل في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءايٰته زادتهم إيمٰنا وعلى ربهم يتوكلون).(١)

وفي هذه الآية يثني ربنا تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله عز وجل وجلت قلوبهم وانقادوا لأمره وخضعوا لذكره خوفاً منه وفرقاً من عقابه، وإذا قرأت عليهم آيات كتابه صدقوا بها وأيقنوا أنها من عند الله فازدادوا بتصديقهم ذلك بما كان قد بلغهم منه قبل ذلك تصديقاً وذلك هو زيادة ماتلي عليهم من آيات الله إياهم إيماناً،وبالله يوقنون في أن قضاءه فيهم ماض فلا يرجون غيره ولا يرهبون سواه.(٢)

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: "المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون إذا غابوا ولايؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله سبحانه أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف المؤمنين فقال: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه وإذا تليت عليهم ءايٰته زادتهم إيمٰنا" يقول تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول: لايرجون غيره.(٣)

وروى كذلك عن مجاهد (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال:

---

(١) الآية ٢ من سورة الأنفال.

(٢) انظر جامع البيان ١٧٨/٩

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٨/٩-١٧٩

فرقـــــت.[١][٢]

وروى كذلك عن السدى في قوله: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلـت قلوبهم) قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهـم بمعصية أحسبه قال: فينزع[٣] عنه.[٤]

وروى كذلك عن أبي الـدرداء[٥] في قـوله: (إنما المؤمنون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: الوجل في القلب كإحراق السعفة[٦]، أما تجد له قشعريرة؟[٧] قـال: بلى قال: إذا وجدت ذلـك في القلب فـادع اللـه فإن الدعاء يذهب بذلك.[٨] فالوجل إذاً ارتعاشه وجدانية تنتاب القلـب المؤمن حين يذكر الله في أمر أو نهي فينبعث إلى العمل.[٩]

وروى ابن جرير كذلك عن قتادة في قوله: (إنما المؤمنـــون الذين إذا

---

(١) فرقت: أي فزعت. انظر القاموس المحيط عند مادة (فرق) ١١٨٣

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٣) ينزع عنـه: أي يترك ماهم به مـن الذنب ونزع عن الأمـور نزوعـاً انتهى عنها. انظر القاموس المحيط عند مادة (نزع) ص٩٨٩

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٥) هو أبو الدرداء الإمام القدوة قاضي دمشق صاحب رسول الله عويمر بن زيد بن قيـس الأنصاري الخزرجي حكيم هذه الأمة وسيد القراء بدمشـق وروى عن النبي عـدة أحاديث وجمـع القـرآن وتصـدر للإقـراء في خلافـة عثمـان مـن العلمـاء والفقهاء، توفى سنة ٣٢هـ. انظر السير ٣٣٥/٢ وطبقـات ابن سعد ٣٩١/٧-٣٩٣

(٦) السعفـة: واحدة السعف، محركـة، جريد النخل. انظر القـاموس المحيـط عند مادة (سعف) ص١٠٥٨

(٧) اقشعـر جلـده: أخذته قشعريرة: أي رعـدة. القـاموس المحيـط عنـد مادة (قشعر) ص٥٩٤

(٨) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٩) انظر في ظلال القرآن ١٤٧٥/٩

ذكـر الله وجلت قلوبهم) قـال: "فرقاً من الله ووجلاً مـن اللـه وخوفاً من الله تبارك تعالى".[١]

وهـذه صفة المؤمن حقاً الذى إذا ذكر الله وجل قلبـه أي خاف منه ففعـل أوامـره وترك زواجره كقـوله تعـالى: (والذين إذا فعلـوا فٰحشة أو ظلمـوا أنفسهم ذكروا الله فـاستغفروا لذنوبهم ومن يغفـر الذنوب إلا الله ولم يصـروا على مافعلوا وهـم يعلمون)[٢] وكقوله تعالى: (وأما مــن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى).[٣]

ولهذا قال سفيان الثوري[٤] سمعت السدى يقول في قول تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية فيقال له: اتق الله فيجل قلبه.[٥]

وقـال تعالى في آية أخرى مـادحاً المؤمنين المخبتين (الـذين إذا ذكـر اللـه وجلـت قلـوبهم والصٰبرين على مـاأصابهم والمقيمــى الصلٰوة وممـا رزقنـٰهم ينفقون).[٦]

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٢) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآيتان ٤٠ و٤١ من سورة النازعات.

(٤) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى شيخ الإسلام أبو عبدالله الكوفى المجتهد مصنـف كتـاب الجامـع، ولد سنـة ٩٧هـ وطلـب العلم وهو حدث باعتنـاء والـده المحدث الصادق، مات سنة ١٦١هـ كان ينوه بذكره في صغـره من أجل فرط ذكائه وحفظه وحدث وهـو شاب وكان يلقـب بأمير المؤمنين في الحديث. انظـر السير ٢٢٩/٧، والجرح والتعديل ٢٢٢/٤

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٦) الآية ٣٥ من سورة الحج.

وهـذه الآية تفسر معنى الإخبـات الـوارد قبلهـا[١] فهـي تشتمل على نعوت صدرت بوجل القلب عند ذكر الله عز وجل.

وقد روى ابن جرير عند هذه الآية عـن ابن زيد[٢] في قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: لاتقسوا قلوبهم.[٣]

ومما سبـق تبين لنا أن الـوجل يتضمن الخوف ويدل عليـه ويدعـو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور.

ومما يدل على ذلك أيضاقوله تعالى: (والذين يؤتون ماءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم رٰجعون)[٤].

وقـد قالت عائشة رضى الله عنها عند هذه الآية: سـألت رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم عـن هـذه الآية: (والـذين يؤتون مـاءاتوا وقلـوبهم وجلـة) أهـم الـذين يشربون الخمـر ويسـرقون؟ قـال: "لا يابنـة الصـديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لايقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات".[٥]

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[٦] فأخبر

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٢١/٥

(٢) هـو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمـرى المدني فيه لين وكـان صاحب قرآن وتفسير جمع تفسيراً في مجلد وكتاباً في الناسخ والمنسوخ توفي سنة ١٨٢هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٨، شذرات الذهب ٢٩٧/١

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ١٦٢/١٧

(٤) الآيه ٦٠ من سورة المؤمنون.

(٥) أخرجه أحمـد في المسنـد ٢٠٥،١٥٩/٦ والترمـذى في السنن ٣٢٧/٥ كتـاب تفسير القرآن (٤٨) باب ومن سورة المؤمنون (٢٤) حديث رقم (٣١٧٥).
وابن مـاجة في السنن ٤٠٤/٢ كتـاب الزهد (٣٧) باب التـوقي على العمـل (٢٠) حديث رقم (٤١٩٨).
وصححـه الشيـخ الألباني كمـا في صحيـح سنن الترمذى ٧٩/٣-٨٠ حديث رقـم (٣٤٠١-٢٥٣٧)

(٦) الآية ١٥٤ من سورة الأعراف.

أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله.

وعلى هذا يحمل ماروى عن السدي قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية أحسبه قال فينزع عنه.[١]

وهؤلاء هم الذين قال الله عز وجل فيهم: (ولمن خاف مقام ربه جنتان).[٢]

قال مجاهد عند هذه الآية: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر مقام ربه فينزع.[٣]

وكذا قال إبراهيم[٤]: إذا أراد أن يذنب أمسك مخافة الله.[٥]

وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون).[٦]

وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى: (آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين).[٧]

وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى: (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى).[٨]

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٢) الآية ٤٦ من سورة الرحمن.

(٣) رواه الطبرى في تفسيره ١٤٥/٢٧

(٤) هو الإمام الحافظ فقيه العراق أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى اليمانى الكوفى أحد الأعلام مفتي أهل مكة وصيرفى الحديث توفى وله ٤٩ سنة وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، مات سنة ٩٦هـ. انظر السير ٥٢٠/٤، والحلية ٢١٩/٤

(٥) رواه الطبرى في تفسيره ١٤٦/٢٧

(٦) الآية ٥ من سورة البقرة.

(٧) الآيتان ١ و٢ من سورة البقرة.

(٨) جزء من الآية ١٢٣ من سورة طه.

وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يشق فهو مرحوم.

وهـؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم اللـه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فإن أهل الـرحمة ليسـوا مغضوباً عليهـم وأهل الهدى ليسوا ضـالين فتبين أن أهـل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب.

وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب.

وممـايدل على هذا المعنى أيضا قوله تعالى: (إنما يخشـى اللهَ من عباده العلمٰؤا).[١]

والمعنى أنه لايخشاه إلا عالم فقد أخبر الله أن كـل من خشي اللهَ فهو عالم كما قال في الآية الأخرى: (أمن هو قٰنتٌ ءاناء الله ساجداً وقائماً يحذر الأخرة ويرجون رحمـة ربه قـل هـل يستـوى الـذين يعلمـون والـذين لايعلمون).[٢]

والخشية أبداً متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطاً كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا فأهل الخوف للـه والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله تبارك وتعالى.

والمقصـود أن الخوف يستلزم فعل الواجب كما دل عليـه قوله تعالى: (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظٰـلمين ولنسكننكم الأرض مـن بعدهم ذلـك لمن خاف مقامى وخاف وعيد).[٣]

وقـوله تعـالى: (ولمن خاف مقـام ربه جنتـان)[٤] فـوعد بنصر الـدنيا

---

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٢) جزء من الآية ٩ من سورة الزمر.

(٣) جزء من الآية ١٣ والآية ١٤ بتمامها من سورة إبراهيم.

(٤) الآية ٤٦ من سورة الرحمن.

وبثواب الآخرة لأهل الخوف وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر: لايخاف الله.

وكل خائف من الله فهو عالم مطيع وكل عاص لله فهو جاهل وذلك لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعص، فإن الخوف من الله يستلزم العلم به،والعلم به يستلزم خشيته،وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه.(١)

ومما ذكر أهل التفسير عند الآيات التي ورد فيها ذكر وجل القلب الجمع بين حالتي الوجل والاطمئنان اللتين أثبتهما الله عز وجل للقلب المؤمن عند ذكر الله عز وجل كما في قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم).(٢)

وقوله تعالى: (الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).(٣)

ووجه الجمع هو أن الطمأنينة بذكر الله تعالى تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد وصدق ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فطمأنينتهم بذلك قوية لأنها لم تتطرق إليها الشكوك ولا الشبه والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى وعدم تقبل الأعمال كما قال تعالى عن الراسخين في العلم: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا)(٤) وقال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتٰباً متشٰبهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين

(١) انظر كتاب الإيمان من ١٦ إلى ٢١

(٢) جزء من الآية ٢ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٤) جزء من الآية ٨ من سورة آل عمران.

يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).[١]

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: "يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" [٢][٣]

قال القرطبي[٤] رحمه الله في ذلك: "وقد جمع الله بين المعنيين في قوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتٰباً متشٰبهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام[٥] من الزعيق والزئير ومن النهاق الذى يشبه نهاق الحمير فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تُساوِي حال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١١٢/٣،٢٥٧ والترمذى في السنن ٤٤٨/٤ كتاب القدر (٣٣) باب ماجاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن (٧) الحديث رقم (٢١٤٠) وقال: هذا حديث حسن.
وصححه الشيخ الألبانى كما في صحيح سنن الترمذى ٢٢٥/٢ حديث رقم (١٧٣٩-٢٢٤٠).
وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك" ٢٠٤٥/٤ كتاب القدر (٤٦) باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٣) حديث رقم (٢٦٥٤/١٧).

(٣) انظر أضواء البيان ٦٩٤/٥-٦٩٥

(٤) هو محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى الخزرجي الأندلسي أبو عبدالله القرطبي من كبار المفسرين، صالح متعبد من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق وتوفى فيه، من كتبه الجامع لأحكام القرآن، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر نفح الطيب ٤٢٨/١، الأعلام ٣٢٢/٥

(٥) الطغام: أوغاد الناس وأحمقهم وأرذلهم. انظر القاموس المحيط عند مادة (طغم)

والخوف منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً منه تعالى ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشٰهدين)(١) فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم فمن كان مستناً فليستن ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً والجنون فنون.

روى مسلم (٢) عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة(٣) فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: سلونى لاتسألونى عن شيء إلا بينته لكم مادمت في مقامى هذا، فلما سمع ذلك القوم أرموا(٤) ورهبوا أن يكون بين يدى أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكى وذكر الحديث.(٥)

---

(١) الآية ٨٣ من سورة المائدة.

(٢) هو الإمام الكبير الحافظ المجود أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى صاحب الصحيح، ولد سنة ٢٠٤هـ سمع بمكة والكوفة والعراق والحرمين ومصر، كان ثقة من الحفاظ، وتوفى سنة ٢٦١هـ بنيسابور عن بضع وخمسين. انظر السير ٥٥٧/١٢، الجرح والتعديل ١٨٢/٨

(٣) أحفوه في المسألة: أى ألحوا عليه بها. انظر القاموس المحيط عند مادة(حفا) ص١٦٤٦

(٤) أرموا: سكتوا. انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر عند مادة (رمم) ٢٦٧/٢

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٣٤/٤ كتاب الفضائل (٤٢) باب توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لاضرورة إليه أو لايتعلق به تكليف ومالا يقع ونحو ذلك (٣٧) حديث رقم (١٣٧).
والبخارى في صحيحه ٣١٩/٤ كتاب الفتن (٩٢) باب التعوذ من الفتن (١٥) حديث رقم (٧٠٨٩).

وروى الترمذى وصححه عن العرباض بن سارية[١] قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب... الحديث"[٢] ولم يقل زعقنا[٣] ولا رقصنا ولا زفنا[٤] ولا قمنا.[٥]

---

(١) هو العرباض بن سارية أبو نجيح السلمي الصحابي كان من أهل الصفة وهو من البكائين نزل الشام وسكن حمص، وتوفى سنة ٧٥هـ. انظر تهذيب اللغات والأسماء ١٣٣/١، الإصابة ٤٦٦/٢

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٢٦/٤-١٢٧) والدارمى في السنن ٤٤/١-٤٥ المقدمة باب اتباع السنة، وأبو داود في السنن ١٣/٥-١٥ كتاب السنة (٣٤) باب لزوم السنة (٦) حديث رقم (٤٦٠٧) والترمذى في السنن (٤٤/٥) كتاب العلم (٤٢) باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (١٦) حديث رقم (٢٦٧٦) وقال: "هذا حديث حسن صحيح" وابن ماجه في السنن ١٦/١، المقدمه باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٦) حديث رقم (٤٣).
وصححه الشيخ الألبانى كما في صحيح سنن الترمذى ٣٤١/٢-٣٤٢ حديث رقم (٢١٥٧-٢٨٢٨).

(٣) الزعق: الصياح. انظر اللسان عند مادة (زعق) ١٤٢/١٠

(٤) زفن يزفن: رقص. انظر القاموس المحيط عند مادة (زفن) ص١٥٥٣

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٣٦٦/٧

المبحث التاسع

الخشـوع

الخشـوع أصله من خشع يخشع خشوعاً واختشع وتخشـع: رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته.[١]

والخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن.[٢]

والخشـوع والخضوع متقاربان وقيـل الخضوع في البـدن والخشـوع في الصـوت والبصر، والخشوع السكـون والتذلل والضـراعة والسكـوت وقيل أكثر مـا يستعمـل فيما يوجد في الجوارح والضـراعة أكثر مـاتستعمل فيمـا يوجد في القلب.[٣][٤]

فالخشوع في أصل اللغة إذاً هو الانخفاض والذل والسكون قال تعالى: (وخشعـت الأصوات للرحمٰـن فلا تسمـع إلا همسـاً)[٥] أى سكنت وذلـت وخضعـت،ومنـه وصـف الأرض بالخشـوع وهـو يبسهـا وانخفـاضها وعـدم ارتفـاعها بالري والنبات قال تعالى: (ومن ءايـته أنك ترى الأرض خـٰشعه فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت).[٦]

والخشـوع في الشرع هو تذلـل القلوب لعلام الغيـوب ومحلـه القلب وثمرته تظهر على الجوارح.[٧]

---

(١) لسان العرب مادة (خشع) ٧١/٨

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (خشع) ٣٤/٢

(٣) بصائر ذوى التمييز ٥٤١/٢ وانظر المفردات ص١٤٨ عند مادة (خشع).

(٤) وهـذا في الغالب وإلا فالخشـوع يطلق أيضاً على مايوجد في القلـب كما في قوله تعـالى: (ألم يأن للـذينءامنـوا أن تخشـع قلوبهم لذكر اللـه ومـا نزل من الحق) (الحديد: ١٦).

(٥) جزء من الآية ١٠٨ من سورة طه.

(٦) جزء من الآية ٣٩ من سورة فصلت.

(٧) مدارج السالكين ٥٢٠/١-٥٢١

فالأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده والخشوع عبادة قلبية إذا لم يقم القلب بها فالأعضاء أولى بأن لاتقوم بها بل حتى وإن قامت بها من غير قيام القلب بذلك فإنه لايعتد بها قال تعالى: (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون..)(١) وليس المراد بالسهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين وإنما هو السهو عن واجبها إما عن الوقت وإما عن الحضور والخشوع والصواب أنه يعم النوعين(٢)،وقد قال تعالى: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خٰشعون)(٣). ووصف به الذين أوتوا العلم فقال تعالى: (وقرءانا فرقنٰه لتقرأه على الناس على مكث ونزلنٰه تنزيلا قل ءامنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحٰن ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً).(٤)

وفي الحديث: "إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها".(٥)

وقد جاء كذلك في الحديث "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلم أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل لاه".(٦)

---

(١) الآيتان ٤ و٥ من سورة الماعون.

(٢) انظر مدارج السالكين ٥٢١/١

(٣) الآيتان ١ و٢ من سورة المؤمنون

(٤) الآيات ١٠٦ و١٠٧ و١٠٨ و١٠٩ من سورة الإسراء.

(٥) أخرجه أبو داود ٢١١/١ كتاب الصلاة، باب ماجاء في نقصان الصلاة برقم ٧٩٦ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ١٥١/١ برقم ٧١٤

(٦) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح ٥١٧/٥ كتاب الدعوات (٤٩) باب (٦٦) حديث رقم (٣٤٧٩) وقال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه سمعت عباساًالعنبري يقول: اكتبوا عن عبدالله بن معاوية الجمحي فإنه ثقة، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٤/٣) حديث رقم (٢٧٦٦).

ولـذلك كـان النبي صلى اللـه عليه وسلم يستعيـذ باللـه عز وجل من القلب الذى لايخشع[١] وليس معنى ذلك أن الخشوع يكون مـن القلب فقط بل لابد مـن ظهور أثر ذلك على الجوارح ولذلك كان النبي صلى اللـــــه عليـه وسلم يقـول في ركـوعه "خشـع لـك سمعـى وبصـرى ومخى وعظمـي وعصبي"[٢] إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه ومن أعظمهـا القلب الذى هو ملك الجوارح، والأعضاء كلهـا تابعة له ولخشوعه.

وقـــد أورد ابن أبي حاتم[٣] رحمـه الله تعـالى عنـد قولـه تعـالى: (واستعينوا بالصبر والصلوٰة وإنها لكبيرة إلا على الخٰـشعين)[٤] أربعة آثار:

أولها: عن ابن عباس رضى الله عنهما يقول: المصدقين بما أنزل الله[٥] وهذا من مقتضيات الخشوع.

والثانى: عن مجاهد قال: المؤمنين حقاً[٦]. وهذا أعم.

---

(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إنى أعوذ بك مـن علم لاينفع ومن قلب لايخشـع ومـن نفـس لاتشبع ومـن دعـاء لايستجاب له" أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٨٨/٤ كتـاب الـذكر (٤٨) باب التعـوذ مـن شـر ماعمـل (١٨) حديث رقـم (٢٧٢٢/٧٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٥٣٥/١ كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٦) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٢٦) حديث رقم (٧٧١/٢٠١).

(٣) هـو العلامـة الحافظ أبومحمد عبـدالرحمن بن محمد بن إدريس بن المنـذر الحنظلي الغطفـاني كان بحراً لاتكدره الـدلاء وكان زاهداً تقياً، لـه كتـاب نفيس في الجرح والتعـديل وكتـاب الرد على الجهميـة وتفسير كبير فى عـدة مجلـدات، من أحسن التفـاسير، توفي رحمــه الله سنـــة ٣٢٧هـ. انظـــر سير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣، وشذرات الذهب ٣٠٨/٢

(٤) الآية ٤٥ من سورة البقرة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٦/١ رقم الأثر (٤٩٣).

(٦) المرجع السـابق نفسه ورقم الأثر (٤٩٤) وصحـح المحقق فضيلـة الشيـخ الدكتور أحمد الزهرانى إسناد هذا الأثر.

والثالث: عن أبي العالية[١] قال: يعنى الخائفين[٢]. وهذا من مقتضيات الخشوع أيضاً.

والرابع: عن مقاتل بن حيان[٣] قال: يعنى به المتواضعين[٤]. وهذا أقرب المعاني للخشوع. وذلك لأن الذل والانكسار والتواضع بين يدى الله عز وجل تقتضى التصديق بما أنزل الله والاستسلام لأحكامه عز وجل الكونية والشرعية ومراقبه الله عز وجل والخوف منه تعالى ومن عذابه.

وهذه الآية تدل على أن الصبر والصلاة ثقيلان إلا على الخاشعين أى المتواضعين لله المتذللين له المصدقين بما أنزل، الخائفين من غضبه وعقابه فهي تظهر لنا إذاً ثمرة الخشوع التى هى الأعمال الصالحة.

ولما كان الخشوع بهذه المنزلة العظيمة فقد عاتب الله عز وجل أخص عباده المؤمنين لأنهم لم يصلوا إلى تلك المرتبة التى يريدها لهم وذلك بقوله تعالى: (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتـٰب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فـٰسقون)[٥] ولوح لهم في هذه الآية بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق في الأعمال وحذرهم من هذا المآل الذى انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم مع فتح باب الأمل أمامهم بتذكيرهم بعون الله عز وجل الذي يحيي القلوب كمايحي الأرض

---

(١) هو أبو العالية رفيع بن مهران الإمام المقرىء الحافظ المفسر الرياحى البصرى أحد الأعلام أدرك زمان النبي وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر وسمع من عمر وعلي وأبي ذر وحفظ القرآن وتصدر لإفادة العلم وبعد صيته، مات سنة ٩٠هـ. انظر الطبقات ١١٢/٧

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٦/١ رقم الأثر (٤٩٥) الحلية ٢١٧/٢

(٣) هو مقاتل بن حيان بن دوال دور الأمام العالم المحدث الثقة أبو بسطام النبطى البلخى الخراز طوف وجال وحدث عن الشعبي ومجاهد هرب من خراسان إلى كابل فدعاهم إلى الله فأسلم على يده خلق، توفى حدود الخمسين ومائة. السير ٣٤٠/٦، تهذيب التهذيب ٢٧٧/١٠

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٧/١ رقم الأثر (٤٩٦).

(٥) الآية ١٦ في سورة الحديد.

بعـد موتها (اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قـد بينـا لكم الأيـٰت لعلكم تعقلون).[(١)(٢)]

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجـابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها من فضله فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربهـا ونزل عليها الآيات البينـات ليخرجها مـن الظلمـات إلى النور وأراها من آياته في الكون والخلق مايبصر ويحذر.

عتـاب فيه الود وفيه الحض وفيـه الاستجاشة إلى الشعـور بجلال الله والخشـوع لـذكره وتلقى مانزل مـن الحق بما يليق بجلال الحق مـن الـروعة والخشية والطاعة والاستسلام مع رائحة الاستبطاء في السؤال (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق).

وإلى جانب التحضيـض والاستبطاء تحذير من عاقبـةالتباطؤ والتقاعس عن الاستجابةوبيان لمايغشـى القلوب من الصدأ حين يمتـد بهـا الزمن بدون جلاء ومـاتنتهي إليه من القسـوة بعد اللين حين تغفـل عن ذكر الله وحين لاتخشع للحق.

(ولايكونوا كالذين أوتوا الكتـٰب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فـٰسقون).

وليس وراء قسوة القلب إلا الفسق والخروج.

إن هـذا القلـب البشري سـريع التقلـب سريع النسيـان وهـو يشـف ويشـرق فيفيض بالنور ويرف كالشعاع فإذا طال عليه الأمـد بلا تذكير ولا تذكـر تبلـد وقسـا، وانطمست إشـراقته وأظلم وأعتم فلابد مـن تذكير لهـذا

---

(١) الآية ١٧ في سورة الحديد.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٣٤٨٨/٢٧

القلب حتى يتذكر ويخشع، ولابد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ولابد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة.

ولكن لابأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله،فالله يحيي الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة وتزخر بالنبت والزهر وتمنح الأكل والثمار وكذلك القلوب حين يشاء الله (اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها) ففي هذا القرآن مايحيي القلوب كما تُحيا الأرض وما يمدها بالغذاء والري (قد بينا لكم الأيـٰت لعلكم تعقلون).[١]

وقد قال عبدالله بن مسعود[٢] رضى الله عنه عند هذه الآية: "ماكان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين".[٣]

فالله أكبر أربع سنوات فقط يعاتب الله عز وجل بعدهن أخص عباده على عدم بلوغهم المرتبة التى يريدها لهم.

ومن الأمور التى ينبغى أن تعلم أن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذللاً وكان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك وهذا هو الخشوع المحمود.

وأما الخشوع المذموم فهو الذي يتكلف صاحبه التباكي ومطأطأة

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٧٩/٢٧

(٢) هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي المكي المهاجرى البدري حليف بني زهرة، كان من السابقين الأولين ومن النجباء العاملين، شهد بدراً وغيرها، وهاجر الهجرتين، روى علماً كثيراً، توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين.
انظر السير ٤٦١/١، وشذرات الذهب ٣٨/١

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٣١٩/٤ كتاب التفسير (٥٤) باب في قوله تعالى: (ألم يأن للذينءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) (١) حديث رقم ٢٤-٣٠٢٧).

الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوا بعين البر والإجلال وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان.[١]

فالخشوع إذاً خشوع إيمان وخشوع نفاق والفرق بينهما كمابُيِّنَ قبل قليل أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو فيخشع القلب لامحالة فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع[٢]

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا خشوع الإيمان وأن يحمينا من خشوع النفاق.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/٣٧٤-٣٧٥

(٢) الروح ص(٣١٢).

المبحث العاشر

الإخبات

الخبت مااتسع من بطون الأرض وجمعه أخبات وخبوت، قال ابن الأعرابي:[١] الخبت مااطمأن من الأرض واتسع.[٢]

وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد.[٣]

وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى اختلاف أهل التأويل في معنى الإخبات في قوله تعالى: (إن الذينءامنوا وعملوا الصٰلحت وأخبتوا إلى ربهم)[٤] فنقل عن بعضهم أن معناه (وأنابوا إلى ربهم)[٥] ونقل عن آخرين بأن معنى ذلك: خافوا.[٦] ونقل عن بعضهم بأن معنى ذلك: اطمأنوا.[٧] ونقل عن آخرين بأن معنى ذلك: خشعوا وتواضعوا.[٨]

ثم قال ابن جرير رحمه الله: وهذه الأقوال متقاربة المعاني وإن اختلفت ألفاظها لأن الإنابة إلى الله من خوف الله،ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة،والطمأنينة إليه من الخشوع له،غير أن نفس الإخبات عند العرب الخشوع والتواضع.[٩]

---

(١) هو إمام اللغة أبو عبدالله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي مولاهم النسابة ولم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه كان صالحاً زاهداً ورعاً له مصنفات أدبية وكان صاحب سنة واتباع توفي سنة ٢٣١هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٠/٦٨٧، وتاريخ بغداد ٥/٢٨٢

(٢) لسان العرب عند مادة (خبت) ٢/٢٧

(٣) المفردات عند مادة (خبت) ص١٤١

(٤) جزء من الآية ٢٣ من سورة هود

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ١٢/٢٤

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ١٢/٢٤

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن مجاهد ١٢/٢٤

(٨) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن قتادة ١٢/٢٤

(٩) أنظر جامع البيان ١٢/٢٤-٢٥

وهـذه الأقوال جميعها تدور على معنيين كمـا يقـول ابن القيم رحمه الله تعالى: التواضع والسكون إلى الله عز وجل ولـذلك عدى بإلى تضميناً لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله.(١)

والإخبـات أول منازل الطمـأنينة، فالسالك إلى ربه مسـافر سـافر إليه على مـدى أنفـاسه لاينتهى مسيره إليـه مـادام نفسـه يصحبـه، شبـه حصول الإخبات له بالماء العذب الذى يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله فيرويه مورده ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام سفـره أو رجوعه إلى وطنه لمشقـة السفـر، فإذا ورد ذلـك الماء زال عنه التردد وخاطـر الـرجوع كذلك السـالك إذا ورد مـورد الإخبـات تخلـص مـن التردد والـرجوع ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره وجد في السير.(٢)

ولما كـان الإخبات ثمرة مـن ثمار الإيمان جيء به بعــده في قوله تعالى: (وليعلم الــذين أوتوا العلم أنه الحق مــن ربك فيـــؤمنوا به فتخبـــت لـــه قلوبهم)(٣) أي تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن وكل ميسر لما خلق لـــــه.(٤)

---

(١) انظر مدارج السالكين ٣/٢

(٢) مدارج السالكين ٢/٣-٤

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٤) مفاتيح الغيب ٥٦/٢٣

المبحث الحادى عشر

الإنابــة

النـوب رجوع الشـيء مرة بعـد أخرى يقـال ناب نوباً ونوبة وأناب إليـه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة ونابتـه نائبة أى حادثة من شأنها أن تنوب دائماً، والإنابة إلى اللـه تعالى الـرجوع إليـه بالتـوبة وإخلاص العمل.(١)

فـإذا استقـرت قـدم العبد في منزلـة التـوبة نزل بعـدها منزلـة الإنابة.

وقـد أمـر الله تعالى بها في كتـابه وأثنى على خليلـه بهـا فقال تعالى: (وأنيبوا إلى ربكـم)(٢) وقـال: (إن إبرٰهيم لحليم أوّٰه منيـب)(٣) وأخبر أن آياته إنما يتبصـر بهـا ويتذكـر أهـل الإنابة فقال: (أفلم ينظـروا إلى السمـاء فوقهم كيف بنينـٰها وزينـٰها -إلى أن قـال- تبصـرة وذكـرى لكـل عبـد منيب)(٤) وقـال تعـالى كذلك: (هـو الـذي يريكم ءايـٰته وينزل لكـم مـن السماء رزقاً وما يتذكر إلا مـن ينيب)(٥) وقال تعالى: (منيبين إليـه واتقوه وأقيموا الصلـوة...)(٦) وقال تعالى عن نبيه داود: (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب).(٧)

وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة فقـال: (وأزلفت الجنــة

---

(١) انظـر لسان العرب عند مادة (نوب) ٧٧٤/١-٧٧٥، والمفـردات عند مادة (نوب) ص٥٠٧-٥٠٨

(٢) جزء من الآية ٥٤ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٧٥ من سورة هود.

(٤) الآيات ٦ و٧ و٨ من سورة ق.

(٥) الآية ١٣ من سورة غافر.

(٦) جزء من الآية ٣١ من سورة الروم.

(٧) جزء من الآية ٢٤ من سورة ص

للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أوّاب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلٰم)[١] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة (والذين اجتنبوا الطٰغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى)[٢][٣]

والإنابة نوعان:

النوع الأول: إنابة لربوبية الله تعالى وهذه الإنابة يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال تعالى: (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه)[٤] وهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو **الأصل**.[٥]

وهذه الإنابة لاتستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء: (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون. ليكفروا بما ءاتينهم)[٦] فهذا حالهم بعد الإنابة.

والنوع الثاني: إنابة لإلٰهيته تعالى وهى إنابة عبودية ومحبة وهى تتضمن محبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع وتفسير السلف لهذه اللفظة

---

(١) الآيات ٣١ و٣٢ و٣٣ بتمامها وجزء من الآية ٣٤ من سورة ق .

(٢) جزء من الآية ١٧ من سورة الزمر.

(٣) انظر مدارج السالكين ٤٣٣/١-٤٣٤

(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة الروم.

(٥) أما مشركوا زماننا من القبوريين فهم لم يحققوا حتى هذا النوع من التوحيد فهم لايدعون الله ولا يضرعون إليه إلا في الرخاء أما إذا اشتد بهم الكرب أو ضاق بهم مسلك أو تعذر عليهم مطلب فإنهم ينسون الله سبحانه وتعالى ويذكرون أولياءهم فيجعلون منهم آلهة فيتقربون إليهم في ضراعة وخشوع بالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. انظر كيف نفهم التوحيد ص١٦

(٦) جزء من الآية ٣٣ وجزء من الآية ٣٤ من سورة الروم.

يدور على ذلك.[١]

فقد روى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: (ان إبراهيم لحليم أوّٰه منيب)[٢] قال القانت الرجاع.[٣]

وروى كذلك عن قتادة في قوله تعالى: (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)[٤] قال مقبل.[٥]

ولما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته كان من تتمة ذلك مايلى:

أولاً: الرجوع إليه بالاجتهاد والنصح فى طاعته كما قال تعالى: (إلا من تاب وءامن وعمل عملاً صٰلحاً)[٦] وقال تعالى: (إلا الذين تابوا وأصلحوا)[٧] فلابد من توبة وعمل صالح؛ ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

ثانياً: الرجوع إليه بالوفاء بعهده فطالما أنك رجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً فعليك بالرجوع بالوفاء بماعاهدته عليه ثانياً والدين كله عهد ووفاء فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم وعلى هؤلاء بالتعلم ومدح

---

(١) انظر مدارج السالكين ٤٣٤/١

(٢) الآية ٧٥ من سورة هود.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨٠/١٢

(٤) الآية ٣٣ من سورة ق.

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٧٣/٢٦

(٦) جزء من الآية ٧٠ من سورة الفرقان.

(٧) جزء من الآية ١٦٠ من سورة البقرة.

الموفين بالعهد وأخبر بما لهم عنده من الأجر فقال: (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)[١] وقال: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً)[٢] وقال: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)[٣] وغير ذلك من الآيات.

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخلق وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من علامات النفاق الغدر بعد العهد.[٤]

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده فالإنابة لاتتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

ثالثاً: الرجوع إليه حالاً كما رجعت إجابة فهو سبحانه وتعالى قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولاً فلابد من الإجابة حالاً تصدق به المقال فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه بالحال.[٥]

واعلم أن الإنابة مفتاح لخير كثير فإن القلب إذا نزل منزلة الإنابة نزل

---

(١) جزء من الآية ١٠ من سورة الفتح.

(٢) جزء من الآية ٣٤ من سورة الإسراء.

(٣) جزء من الآية ٩١ من سورة النحل.

(٤) كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" أخرجه البخارى في صحيحه ١/ ٢٨كتاب الإيمان (٢) باب علامة المنافق (٢٤) حديث رقم (٣٤).
ومسلم في صحيحه ٧٨/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال المنافق (٢٥) حديث رقم (١٠٦-٥٨).

(٥) انظر مدارج السالكين ٤٣٥/١-٤٣٦

بعد ذلك منازل كثيرة منها:

منزلة التذكر: وهي قرينة الإنابة قال تعالى: (ومايتذكر إلا من ينيب)(١) وقال تعالى: (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب).(٢)

والتذكر تفعل من الذكر وهو ضد النسيان وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب واختير له بناء التفعل لحصوله بعد مهلة وتدرج كالتبصر والتفهم والتعلم.

وجعل الله التبصر والتذكر لأهل الإنابة لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر فاستدل بها على ماهي آيات له فزال عنه الإعراض بالإنابة والعمى بالتبصرة والغفلة بالتذكر.(٣)

ومنها وهي أعظمها **منزلة الهداية** فالإنابة طريق إلى الهداية قال تعالى: (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب).(٤)

والإنابة مما اتصف به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قال تعالى: (وظن داوود أنما فتنّٰه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب)(٥) وقال تعالى عن سليمان (ولقد فتنا سليمٰن وألقينا على كرسية جسداً ثم أناب)(٦) وقال تعالى: (إن ابرٰهيم لحليم أوّٰه منيب)(٧) وغير ذلك من الآيات. والناس مأمورون بالاقتداء بالأنبياء والمرسلين. قال تعالى: (أولٰئك الذين هدى الله فبهدٰهم اقتده).(٨)

جعلنا الله من المنيبين إليه المخلصين له المقتدين بأنبيائه ورسله.

---

(١) جزء من الآية ١٣ من سورة غافر.
(٢) الآية ٨ من سورة ق.
(٣) انظر مدارج السالكين ١/٤٤٠-٤٤٢
(٤) جزء من الآية ٢٧ من سورة الرعد.
(٥) جزء من الآية ٢٤ من سورة ص.
(٦) الآية ٣٤ من سورة ص
(٧) الآية ٧٥ من سورة هود.
(٨) جزء من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

المبحث الثانى عشر

التقـوى

التقوى اسم وفعلها وقى وقاه الله وقياً ووقاية وواقية: صانه.

وتوقى واتقى بمعنى وقد توقيت واتقيت الشيء تقية وتقاء: حذرته.(١)

وفي حديث معاذ(٢) "وتوق كرائم أموالهم"(٣) أى تجنبها لاتأخذها في الصدقـــة.

والاسـم التقـوى والتاء مبـدلة مـن الواو والـواو بدل مـن الياء.(٤)

قـال صـاحب المفـردات الـوقاية حفـظ الشـيء ممـا يؤذيه ويضـره والتقوى جعل النفس في وقاية(٥) مما يخاف هذا تحقيقه.(٦)

وأمـا في الشرع فالتقوى: هـى عبارة عن امتثال المأمـورات واجتناب

---

(١) لسان العرب عند مادة (وقى) ٤٠١/١٥-٤٠٢

(٢) هـو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عـائذ بن عدى بن كعـب بن عمـر بن أدى بن سعـد الخزجي السيـد الإمـام المقدم في الحلال والحرام، أبو عبـدالرحمن الأنصارى الخزرجى المدنى البدرى، شهد المشاهد كلها وروى أحاديث بعثـه النبي صلى اللـه عليـه وسلم إلى اليمـن وقـدم منهـا في خلافة أبى بكـــر الصديــــق رضـى الله عنه، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة ١٧هـ أو التى بعـدها، وله ٣٤ سنـة وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء ٤٤٣/١، الإصـابه ٤٠٦/٣ برقم (٨٠٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحــه ٥٠/١ كتــاب الإيمان (١) باب الـدعاء إلى الشهـادتين وشرائع الإسلام (٧) حديث رقم (٣١-٣٩).
وأخرجه البخارى في صحيحه ٣٥٧/٣ كتاب الزكاة (٢٤) باب أخذ الصـدقة من الأغنياء (٦٣) حديث رقم (١٤٩٦) بلفظ (فإياك وكرائم أموالهم).

(٤) لسان العرب عند مادة (وقي) ٤٠٢/١٥

(٥) لعل الأولى أن يقول في حفظ أو صيانة حتى لايكون في التعريف دور.

(٦) المفردات ص٥٣٠

المنهيـــــات.[1]

وقـد أخرج بن جرير بسنده إلى ابن عبـاس في تعـريف المتقين قـال: الـذين يحذرون مـن الله عـز وجل عقـوبته في ترك مـايعرفون مـن الهدى ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به.[2]

وعـن الحسـن أنه قال في قـوله تعـالى: (للمتقين): اتقـوا مـاحرم الله عليهم وأدوا ما افترض عليه.[3]

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن التقوى ثلاث مراتب:

الأولى: حماية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حمايتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول ومالايعنى.

ثم قال رحمه الله: فالأولى تعطى العبد الحياة، والثـانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سرور وفرحه وبهجته.[4]

ومـن حقق هذه المراتب فإنه يرجى له أن يكون قـد قام بما أمر الله به بقوله: (يـٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته).[5]

وقد أخرج البخـارى[6] عـن ابن عمر رضى الله عنهما تعليقـاً قال:

---

(١) بصائر ذوى التميز ٢٥٧/٥

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٩٩/١

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٩٩/١

(٤) انظر الفوائد ص٦٥-٦٦

(٥) جزء من الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.

(٦) هـو الإمـام الحجـة محمـد بن إسمـاعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، ولـد في شـوال سنـة ١٩٤هـ وأُلهِم حفـظ الحديث وهـو في الكتـاب سمـع ببخارى ومكة والمدينة وبلاد كثيرة، وروى عنه خلق كثير منهم الترمذي وأبو حاتم، كتب عن ألـف شيخ وأكثر وأثنى عليه العلمـاء، كان ورعاً سمحـاً كـريماً صاحب الصحيح والتـاريخ والتصـانيف. انظـر سير أعلام النبلاء ٣٩١/١٢، تاريخ بغـداد ٤/٢، ٣٣

"لايبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ماحاك في الصدر".[١]

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود في تفسير قوله تعالى: (اتقوا الله حق تقاته) قال: أن يُطاع فلا يُعصى وأن يُذكَر فلا يُنسَى وأن يُشكَر فلا يُكفَر.[٢]

ومن أعظم علامات تقوى القلوب تعظيم شعائر الله عز وجل قال تعالى: (ذٰلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)[٣] وقد اختار ابن جرير رحمه الله أن شعائر الله هى ماجعله الله أعلاماً لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم من الأماكن التى أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال التى ألزمهم عملها في حجهم.[٤]

ولعل الراجح أنه يدخل في شعائر الله كل ماجعل عَلَمَاًلطاعةالله عز وجل سواء كان من مناسك الحج أو غيرها،بمعنى أنها الدين كله وقد نسب الماورديُّ[٥] هذا القولَ إلى الحسن.[٦] ولذلك جعل الله عز وجل تعظيم النبي صلى‌الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت في حضرته صلى‌الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه معلقاً ١٩/١ كتاب الإيمان (٢) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس" (١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠٢/٢ وقد ذكر ابن كثير هذا الأثر في تفسيره بنفس الإسناد ثم قال: وهذا إسناد صحيح موقوف ٧١/٢

(٣) الآية (٣٢) من سورة الحج.

(٤) جامع البيان ١٥٧/١٧

(٥) هو العلامة القاضى أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى الماوردي الشافعي صاحب التصانيف الحسان في مختلف الفنون وهو متهم بالاعتزال ويوافقهم في القدر له كتاب الحاوى والنكت في التفسير والأحكام السلطانية وغيرها، توفى سنة١٤٥هـ وله (٨٦ سنة). انظر سير إعلام النبلاء ٦٤/١٨ شذرات الذهب (٢٨٥/٣-٢٨٧).

(٦) النكت والعيون ٧٩/٣

من الأمور التى يتميز بها القلب المتقى من غيره قال تعالى: (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى).[١] ففي هذه الآية يقول الله تعالى ذكره هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها فاصطفاها وأخلصها للتقوى يعنى لإنقائها بأداء طاعته واجتناب معاصيه كما يمتحن الذهب بالنار فيخلص جيده ويبطل خبيثه وبمثل هذا القول قال: مجاهد في قوله تعالى: (امتحن الله قلوبهم) قال: أخلص، وقال قتادة: أخلص الله قلوبهم فيما أحب.[٢]

وبهذا يتبين لنا أن التقوى من أعظم أوصاف القلب المؤمن إذ بها يعظم القلب حرمات الله عز وجل وبها يفعل الطاعات ويجتنب المحرمات وبالله التوفيق.

---

(١) جزء من الآية (٣) من سورة الحجرات.

(٢) كما أخرج ذلك ابن جرير في جامع البيان ١٢٠/٢٦

المبحث الثالث عشر

المراقبـة

الـرقيب الحفيظ وهو اسم من أسماء الله عز وجل ورقبـه يرقبه رقبة ورقبـاناً بالكسـر فيهما ورقـوباً وترقبـه وارتقبـه انتظـره ورصده.[١] والمراد بالمراقبـة هنا دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحـانه وتعالى على ظاهره وباطنـه فاستدامته لهذا العلم واليقين هـى المراقبة وهـى ثمرة علمـه بأن الله سبحـانه رقيب عليه ناظر إليـه سامع لقوله وأنه مطلـع على عمله كل وقت وكـل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين فالمراقبة هى مقتضـى التعبد بأسمائه تعـالى الـرقيب الحفيـظ السميع العليم البصير.[٢] قـال تعالى: (إن اللـه كان عليكم رقيباً)[٣] أى مطلعاً على العباد في حال حركاتهم وسكـونهم وسرهم وعلنهـم وجميع الأحوال مراقبـاً لهم فيها مما يوجب مـراقبته وشدة الحياء منه ولزوم تقواه[٤] وقال تعالى: (وكان الله على كـل شيء رقيباً)[٥] وقال تعالى: (وهو معكم أينمـا كنتم)[٦] وقال تعالى: (ألم يعلم بأن اللـه يرى)[٧] وقال تعالى: (يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور).[٨]

ولن يحقق هذا الوصف العظيم إلا من بلغ مرتبة الإحسان التى قال في تعريفهـا نبينـا صـلى اللـه عليـه وسـلم كمـا فـي حديـث جبريـل المشهـور:

---

(١) اللسان عند مادة (رقب) ٤٢٥/١

(٢) انظر مدارج السالكين ٦٥/٢-٦٦

(٣) جزء من الآية ١ من سورة النساء.

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن ٣/٢

(٥) جزء من الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

(٦) جزء من الآية ٤ من سورة الحديد.

(٧) الآية ١٤ من سورة العلق.

(٨) الآية ١٩ من سورة غافر.

"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[١] ومعنى ذلك أن العبد يظل دائمًا مع الله عز وجل فينتج عنه سرور قلبه بالله وفرحه به وقرة عينه به لايشبه ذلك شيء من نعيم الدنيا أبداً وليس له نظير يقاس به وهو حال من أحوال أهل الجنة حتى قال بعضهم: وإنه لتمر بى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، فلا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.[٢]

قال ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه فإن الرب تعالى شكور، يعنى أنه تعالى يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.[٣]

والمراقبة توجب صيانة الباطن والظاهر فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة وصيانه الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطن التى منها رفض معارضة أمر الله عز وجل وخبره فيتجرد الباطن من كل شهوة تعارض أمره ومن كل إرادة تعارض إرادته ومن كل شبهة تعارض خبره ومن كل محبة تزاحم محبته وهذه حقيقة القلب السليم الذى لاينجو إلا من أتى الله تعالى به.[٤]

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٣٧) رقم الحديث (٥٠).
ومسلم في صحيحه ٤٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) رقم الحديث (١٠/٧).

(٢) انظر مدارج السالكين ٦٧/٢

(٣) انظر مدارج السالكين ٦٨/٢

(٤) انظر مدارج السالكين ٦٨/٢

المبحث الرابع عشر

الحياء

فإذا نزل العبد منزلة المراقبة وأيقن أن الله عز وجل مطلع عليه عليم سميع بصير بكل حركاته وسكناته يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور نزل بعد ذلك منزلة الحياء، وقد ورد في الصحيح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: "دعه فإن الحياء من الإيمان".(١)

وعن عمران بن حصين(٢) رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحياء لايأتى إلا بخير"(٣)، وعن أبى هريرة(٤) رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الإيمان بضع

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٧٤/١ كتاب الإيمان (٢) باب الحياء من الإيمان (١٦) رقم الحديث (٢٤).
ومسلم في صحيحه ٦٣/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (١٢) حديث رقم (٥٩-٣٦).

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف القدوة الإمام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو نجيد الخزاعي أسلم هو وأبوه في وقت واحد سنة سبع وله عدة أحاديث ولى قضاء البصرة وبعثه عمر إلى أهلها ليفقههم وقد غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة وكان ينزل ببلاد قومه ويتردد على المدينة وكان ممن اعتزل الفتنة في سنة (٥٢هـ). انظر سير أعلام النبلاء ٥٠٨/٢، أسد الغابة ٢٨١/٤

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه (٥٢١/١٠) كتاب الأدب (٧٨) باب الحياء (٧٧) رقم الحديث (٦١١٧).
ومسلم في صحيحه (٦٤/١) كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان... (١٢) رقم الحديث (٣٧/٦٠).

(٤) هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوهريرة الدوسي اليمانى سيد الحفاظ الأثبات اختلف في اسمه على أقوال ==

وسبعـون شعبة أو بضع وستون شعبـة فأفضلها قول لا إلـه إلا الله وأدناها إمـاطة الأذى عـن الطـريق والحيـاء شعبـة مـن الإيمان".[١] وعن أبي سعيـد الخدرى رضى الله عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حيـاءً مـن العذراء في خدرهـا فـإذا رأى شيئاً يكرهـه عـرفناه في وجهه".[٢] وقـال صلى الله عليه وسلم: "وإن مما أدرك الناس من كلام النبـوة الأولى: "إذا لم تستح فاصنع ماشئت"[٣] وفي هذا قولان:

أحدهما: أنه أمـر تهـديد ومعنـاه الخبر أى من لم يستـح صنـع ماشاء.

والثاني: أنه أمـر إباحة أي انظـر إلى الفعل الذى تريد أن تفعلـه فإن كان مما لايستحيا منه فافعله. والأول أصح وهو قول الأكثرين.[٤]

وفي الترمذى مرفوعاً: "استحيوا من الله حق الحيـاء قالوا: إنا نستحي يارسول الله، قال: ليس ذلكم ولكن من استحيا من اللـه حق الحياءفليحفظ

(=) جمـة أرجحها عبدالرحمن بن صخـر وكذا في اسم أبيه أقـوال كان كثير العبادة والذكر حسن الأخلاق ولى إمرة المدينة مسنده أربعة وسبعـون وثلاثمائة وخمسة آلاف حديث، توفى عـام (٥٧هـ) وقيـل (٥٨هـ) بالمدينـة. انظـر سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢، شذرات الذهب ٦٣/١

(١) أخرجه البخـارى في صحيحـه ٥١/١ كتـاب الإيمان (٢) باب أمـور الإيمان (٣) حديث رقم (٩) ومسلم في صحيحه ٦٣/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان (١٢) حديث رقم (٥٨-٣٥).

(٢) أخرجه البخـارى في صحيحـه ٥٦٦/٦ كتـاب المنـاقب (٦١) باب صفـة النبـي صلى اللـه عليـه وسلم (٢٣) حديث رقـم (٣٥٦٢) ومسلم في صحيحـه ١٨٠٩/٤ كتـاب الفضـائل (٤٣) باب كثرة حيـائه صلى الله عليه وسلم (١٦) حديث رقـم (٦٧-٢٣٢٠).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه (٥٢٣/١٠) كتاب الأدب (٧٨) باب إذا لم تستـح... (٧٨) حديث رقم (٦١٢٠).

(٤) انظـر مـدارج السالكين ٢٥٩/٢ وانظـر كـذلك النهاية في غـريب الحديث والأثر ٤٧٠/١-٤٧١

الرأس وما وعى وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء".(١)

والحياء الحشمة وقد حيي منه حياء واستحى واستحيا.(٢)

قال الراغب: والحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها.(٣)

وقد جعل الحياء من الإيمان وذلك أن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي فصار كالإيمان الذى يقطع بينها وبينه وإنما جعل بعضه لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله به وانتهاء عما نهى الله عنه فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان.(٤) وقد قسم ابن القيم رحمه الله تعالى الحياء على عشرة أوجه:

حياء جناية ومنه حياء آدم عليه السلام لما فر هارباً في الجنة قال الله تعالى: (ياآدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء).(٥)

وحياء التقصير ومنه حياء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من الله تبارك وتعالى كما في حديث الشفاعة الكبرى.(٦)

---

(١) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٦٣٧/٤ كتاب صفة القيامة (٣٨) باب (٢٤) حديث رقم (٢٤٥٨) وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن اسحاق عن الصباح بن محمد.
وقد حسنه الشيخ الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٢٩٩/٢ رقم الحديث (٢٠٠٠-٢٥٨٨).

(٢) اللسان عند مادة (حيا) ٢١٧/١٤

(٣) المفردات ص١٤٠ عند مادة (حيي).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٧٠/١

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٢٩/١ حديث رقم (٣٩٢) وقد صحح محقق هذا الجزء الدكتور أحمد بن عبدالله الزهرانى إسناده بمجموع طرقه.

(٦) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٩/٣-١٩٠ كتاب التفسير (٦٥) ==

وحياء الإجلال وهو حياء المعرفة فعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم كحياء النبي صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم لوليمة زينب [١] فأطالوا عليه الحديث بعدما أكلوا وشبعوا فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يستحي منهم أن يقول لهم شيئاً.[٢]

وحياء الحشمة كحياء ابن عمر رضى الله عنهما عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن شجرة لاتسقط ورقها وأنها مثل المسلم فعرف أنها النخلة ولكنه استحي.[٣]

وحياء الاستحقار واستصغار النفس كحياء العبد من ربه حين يسأله حوائجه احتقاراً لشأن نفسه واستصغاراً لها.

كماحصل لعائشة رضي الله عنها في حادثةالإفك[٤] وأنها كانت

(=) سورة البقرة (٢) باب قول الله (وعلم ءادم الأسماء كلها) (١) حديث رقم (٤٤٧٦).

(١) هى زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم وابنة عمته تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث وقيل خمس من الهجرة ونزلت بسببها آية الحجاب وكانت قبله عند زيد وفيها نزلت (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) فكانت تفخر على نساء النبي بأنه زوجها الله من فوق سبع سموات توفيت سنة عشرين رضى الله عنها. انظر الإصابة ٣٠٧/٤ برقم (٤٧٠)، أعلام النساء ٥٩/٢

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٠٥٢/٢ كتاب النكاح (١٦) باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (١٥) حديث رقم (١٤٢٨/٩٥).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٨/١ كتاب العلم (٣) باب قول المحدث (حدثنا) أو (أخبرنا) و (أنبأنا) (٤) حديث رقم (٦١).

(٤) الإفك: الكذب. اللسان عند مادة (أفك) ٣٩٠/١٠

والمراد من حادثة الإفك ماحصل من المنافقين من اتهام لأم المؤمنين الطاهرة المطهرة عائشة بنت الصديق بالزنا كذباً وزوراً فبرأها الله عز وجل ==

تسأل ربها تبارك وتعالى أن ينزل براءتها وكانت تقول: والله ماكنت أظن أن اللـه منزل في شأنى وحياً يتلى ولشأني في نفسي كـان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى.(١)

وحياء المحبة وهو حياء المحب من محبوبه.

وحيـاء العبودية وهو حيـاء ممتزج من محبة وخوف ومشـاهدة عـدم صلاح عبـوديته لمعبـوده وأن قـدره أعلى وأجل منهـا فعبـوديته لـه توجب استحياءه منه لامحالة.

وحيـاء الشرف والعزة وهو حيـاء النفس العظيمة إذا صـدر منها ماهو دون قـدرها مـن بذل أو عطـاء وإحسان فإنه يستحى مـع بذلـه حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان:

أحدهما: هذا. والثانى: استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل حتى إن بعـض أهـل الكرم لاتطـاوعه نفسـه بمواجهة مـن يعطـي حياء منه.

وحياء المرء من نفسه وهو حياء النفوس الشريفة العـزيزة الرفيعة من رضـاها لنفسها بالنقص وقنـاعتها بالدون فيجد نفسه مستحيـاً مـن نفسه حتى كأن له نفسين يستحي بإحداهما من الأخرى وهذا أكمل مايكون من الحياء فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.(٢)

(=) مـن فـوق سبع سموات بقوله تعـالى: (إن الذين جاءوا بالإفـك عصبـة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم مااكتسـب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم...) الآيات (النور: ١١-٢٦).
وقـد أخرج حديث الإفـك مطـولاً البخارى في صحيحه ٨/٤٥٢-٤٥٥ كتـاب التفسير (٦٥) سورة النـور (٢٤) باب (لولاإذ سمعتمـوه قلتم مـايكون لنا أن نتكلم بهـذا سبحـٰنك هذا بهتـٰن عظيم لـولا جاءوا عليـه بأربعـة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهـداء فـأولئك عنـد اللـه هم الكـٰذبون)(٦) رقـم الحديث (٤٧٥٠).

(١) جزء من حديث الإفك الذى تقدم تخريجه.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٢٦١-٢٦٣

المبحث الخامس عشر

الصــدق

الصــدق نقيض الكذب صــدق يصدق صَدْقاً وصِـدْقاً وتصـادقاً[١] وهو الطـريق الـذي مـن لم يسر عليـه فهـو من المنقطعين الهـالكين، به تميز أهـل النفـاق من أهل الإيمان وسكـان الجنان من أهل النيران وهـو سيف الله في الأرض الذى ماوضع على شيء إلا قطعه ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومـن نطـق به علت على الخصـوم كلمتـه، وهو روح الأعمـال، ومحك الأحوال، والحامـل على اقتحــام الأهـوال، والبـاب الـذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهـو أساس بناء الدين، وعمـود فسطاط اليقين، ودرجتـه تالية لدرجة النبوة التى هـى أرفع درجات العالمين.

وقـد أمر الله سبحانه أهـل الإيمان أن يكونوا مـع الصـادقين، وخص المنعـم عليهم بالنبيين والصـديقين والشهداء والصالحين فقـال تعالى: (يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مـع الصـٰدقين)[٢] وقال تعالى: (ومن يطع اللـه ورسـوله فأولئك مع الـذين أنعم الله عليهم مـن النبيين والصـديقين والشهداء والصـٰلحين وحسن أولـئـك رفيقاً)[٣] وأخبر تعالى أن من صدقه فهـو خير لـه فقال: (فإذا عـزم الأمر فلو صدقوا اللـه لكـان خيراً لهم)[٤] وأخبر تعــالى عـن أهـل البر وأثنى عليهــم بأحســن أعمــالهم مـن الإيمان والإسلام والصدقة والصبر وأخبر بأنهم أهل الصدق فقال: (ولـكن البر من

---

(١) اللسان عند مادة (صدق) ١٩٣/١٠,

(٢) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٦٩ من سورة النساء.

(٤) جزء من الآية ٢١ من سورة محمد.

ءامن بالله واليوم الأخر والملٰئكة والكتٰب والنبيٖن وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتمى والمسٰكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلٰوة وءاتى الزكٰوة والموفون بعهدهم إذا عٰهدوا والصٰبرين في البأساء والضراء وحين البأس أولٰئك الذين صدقوا وأولٰئك هم المتقون)[١] وهذا صريح في أن الصدق له تعلق بالأعمال الظاهرة والباطنة وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقد قسم الله الناس إلى صادق ومنافق قال تعالى: (ليجزى الله الصدقين بصدقهم ويعذب المنفقين إن شاء أو يتوب عليهم)[٢] فالإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لاينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه قال تعالى: (قال الله هذا يوم ينفع الصدقين صدقهم لهم جنت تجرى من تحتها الأنهر خلدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم)[٣] وقال تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولٰئك هم المتقون)[٤] فالذى جاء بالصدق من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله.

فالصدق في هذه الثلاثة:

أولاً: الصدق في الأقوال وهو استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

ثانياً: الصدق في الأعمال وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

---

(١) جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة.

(٤) الآية ٣٣ من سورة الزمر.

ثالثا: الصـــدق في الأحوال وهـــو استـــواء أعمال القلـــوب والجوارح على الإخلاص واستفـراغ الـوسع وبذل الطـاقة فبـذلك يكـون العبـد من الذين جاؤا بالصـدق وبحسـب كمال هـذه الأمور فيه وقيامهـا به تكـون صديقيته ولـذلك كان لأبي بكـر الصـــديق[١] رضـى اللـه عنـه وأرضـاه ذروة سنـام الصـــديقية وسمـى الصـديق على الإطلاق والصـــديق أبلـــغ مـن الصـدوق والصـدوق أبلـغ من الصادق فـأعلى مراتب الصدق الصـديقية وهـي كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم مع كمال الإخلاص للمرسل.[٢]

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: (يـٰأيها الـذين ءامنوا اتقوا اللـه وكونوا مع الصـٰدقين) أى: اصدقوا والزموا الصـدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل الله لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.[٣]

وقـد قـال النبي صلى اللـه عليه وسلم: "عليكم بالصـدق فـإن الصدق يهـدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ومايزال الـرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجـور وإن الفجـور يهدى إلى النـار ومـا يزال الـرجل يكـذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا".[٤]

---

(١) هـو عبدالله بن عثمان بن عـامر بن عمرو بن كعب بن سعـد بن تيم بن مرة بن كعـب بن لـؤي أبوبكر الصديق صحـب النبي صلى اللـه عليـه وسلم قبـل البعثة وسبـق إلى الإيمان به، ورافقـه في الهجـرة، وفي الغـار، وفي المشـاهد كلهـا، أول الخلفـاء الراشدين ومناقبه كثيرة جداً، مـات سنة ١٣هـ رضـى الله عنه. انظر صفة الصفوة ٢٣٥/١، الإصابة ٣٣٣/٢ برقم (٤٨١٧).

(٢) انظر مدارج السالكين ٢٦٨/٢-٢٦٩-٢٧٠

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٧٠/٤

(٤) أخرجه البخـارى في صحيحه ١٠٩/٤ كتـاب الأدب (٧٨) باب قـول اللـه تعالى: (يأ يهـا الـذينءامنـوا اتقوا اللـه وكـونوا مع الصادقين) الحديث رقـم (٦٠٩٤) ومسلم في صحيحـه ٢٠١٣/٤ كتـاب البر (٤٥) باب قبـح الكـذب... (٢٩) حديث رقم (١٠٥/٢٦٠٧).

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله تعالى: (والذى جاء بالصدق وصدق به) قال: والذى جاء بالصدق: من جاء بلاإله إلا الله وصدق به يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم.[١] وقال مجاهد: والذى جاء بالصدق وصدق به: الذين يجيئون يوم القيامة بالقرآن فيقولون هذا الذى أعطيتمونا فاتبعنا بما فيه.[٢] قال ابن كثير: وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به والرسول صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.[٣]

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأله أن يجعل مُدخله ومُخرجه على الصدق فقال تعالى: (وقل رب أدخلنى مُدخل صدق وأخرجنى مُخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطٰناً نصيرا).[٤]

وأخبر عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال تعالى: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين).[٥]

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: (وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم).[٦] وقال: (إن المتقين في جنٰت ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر).[٧]

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣/٢٤
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤/٢٤
(٣) تفسير القرآن العظيم ٩٠/٧
(٤) الآية ٨٠ من سورة الإسراء.
(٥) الآية ٨٤ من سورة الشعراء.
(٦) جزء من الآية ٢ يونس
(٧) الآيتان ٥٤ و٥٥ من سورة القمر.

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق، وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله وهو ماكان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة؛ فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لاغاية له يوصل إليها ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر ومخرج الصدق كمخرجه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ماطلبه في الدنيا والآخرة بخلاف مدخل الكذب الذى رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن بالله ولا لله بل كان محادة لله ورسوله فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار، فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله وهو مدخل صدق ومخرج صدق؛ وماذكر ابن جرير عن ابن عباس وغيره من السلف[١] أن معنى مدخل الصدق هو مدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة حين هاجر إليهم ومخرج الصدق مخرجه من مكة وغير ذلك من الأقوال إنما هو على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه صلى الله عليه وسلم وإلا فمداخله كلها مداخل صدق ومخارجه مخارج صدق إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته[٢] وأما لسان الصدق فقد

---

(١) كما أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وقتادة وابن زيد ١٥/١٤٨-١٤٩

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٢٧٠-٢٧١

قال بعض السلف في قوله تعالى: (واجعل لى لسان صدق في الأخرين)(١) قال: اللسان الصدق: الذكر الصدق والثناء الصالح والذكر الصالح في الآخرين من الناس، من الأمم.(٢) وذلك كما في قوله تعالى عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (وجعلنا لهم لسان صدق عليا)(٣) فلما كانت أداة إبراز الصدق اللسان أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقاً وعبر به عنه(٤) وأما قدم الصدق فقد فسره بعضهم بثواب الأعمال الصالحة(٥) وفسره بعضهم بما سبق في اللوح المحفوظ من السعادة(٦) وفسره بعضهم بمحمد صلى الله عليه وسلم(٧) وقد اختار ابن جرير رحمه الله قول من قال معناه أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب وذلك أنه محكي عن العرب: هؤلاء أهل القدم في الإسلام،أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيراً فكان لهم فيه تقديم ويقال له عنده قدم صدق وقدم سوء وذلك ما قدم إليه من خير أو شر ومنه قول حسان بن ثابت(٨) رضى الله عنه:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا ... لأولنا في طاعة الله تابع

قال رحمه الله: فتأويل الكلام إذاً وبشر الذين آمنوا أن لهم تقدمة

---

(١) الآية (٨٤) من سورة الشعراء.

(٢) كما أخرج ذلك ابن جرير بسنده إلى ابن زيد في تفسيره ٨٦/١٩

(٣) جزء من الآية ٥٠ من سورة مريم.

(٤) انظر مدارج السالكين ٢٧٢/٢

(٥) كما أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره ٨١/١١-٨٢ عن ابن عباس رضى الله عنهما، والضحاك والربيع بن أنس.

(٦) كما أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره ٨٢/١١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) كما أخرج ذلك ابن جرير أيضاً في تفسيره عن قتادة أو الحسن وزيد ابن أسلم ٨٢/١١

(٨) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمر بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار سيد الشعراء المؤمنين المؤيد بروح القدس ==

خيرمن الأعمال الصالحةعند ربهم.[١] وقد قال ابن القيم رحمه الله: وحقيقة القدم ماقدموه ومايقدمون عليه يوم القيامة وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقدمون على الجنة التى هى جزاء ذلك فمن فسره بالجنة أراد مايقدمون عليه ومن فسره بالأعمال والنبي صلى الله عليه وسلم فلأنهم قدموهاوقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثةقدم صدق.[٢]

وأما مقعد الصدق فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق ودوامه ونفعه وكمال عائدته فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله فهو صدق غير كذب وحق غير باطل ودائم غير زائل ونافع غير ضار وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل[٣] ومما ينبغى أن يذكر في هذا المقام أن الصادق مطلوبه رضا ربه وتنفيذ أوامره وتتبع محابه فهو متقلب فيها يسير معها أينما توجهت ركائبها ويستقل معها أينما استقلت مضاربها فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان إلى الخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع ثم في أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة أو نصر مظلوم إن أمكن إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع فكل أعماله وحركاته وسكناته لله وفي الله.[٤]

(=) أبو الوليد الأنصارى الخزرجي النجاري المدني شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، عاش ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام كان يضع له النبي صلى الله عليه وسلم منبراً في المسجد يقوم عليه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى سنة ٥٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥١٢/٢، الإصابة ٢٣٧/٢

وانظر البيت في ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه ص١٥٥

(١) جامع البيان ٨٢/١١-٨٣

(٢) مدارج السالكين ٢٧٢/٢

(٣) مدارج السالكين ٢٧٢/٢

(٤) انظر مدارج السالكين ٢٨٥/٢

المبحث السادس عشر

التوكـل

التـوكل إظهـار العجز والاعتمـاد على الغير، والاسـم التكلان، يقـال توكـل بالأمـر إذا ضمن القيـام به،ووكلت أمري إلى فلان أى ألجأته إليـه واعتمـدت فيـه عليه، ووكل فلان فلاناً إذا استكفـاه أمـره ثقـة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه.(١)

والتـوكل في الشرع اعتماد القلب على الله، واستنـاده وسكونه إليه، وحسـن الظن والثقة به، وتفويض الأمر له، والرضا بما قـدر تعالى مع بذل الأسباب المشروعة.

وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقـامات التوحيد بل لايقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كمـا جاء في حديث السبعين ألفـاً الذين يدخلون الجنـة بلا حساب ولا عذاب(٢) فالتوكل نصف الدين والنصف الثـاني الإنابة، فـإن الـدين استعـانه وعبـادة فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هى العبادة، ولذلك أمـر الله به في غير آية من كتابه، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام، ومفهـوم ذلـك انتفـاء الإيمان

---

(١) اللسـان عنـد مـادة (وكل) ٧٣٦/١١ والنهـاية فى غـريب الحديث والأثر ٢٢١/٥

(٢) كمـا في حديث ابن عباس رضى اللـه عنهما المرفوع وفيـه "فرأيت سواداً كثيراً سـد الأفـق فقيل: هؤلاء أمتـك ومع هؤلاء سبعون ألفاً قـد امهـم يدخلون الجنة بغير حسـاب، هـم الـذين لايتطيرون ولا يسترقـون ولا يكتـوون وعلى ربهـم يتوكلون".
أخرجه البخـارى في صحيحـه ٤٦/٤ كتـاب الطب (٧٦) باب مـن لم يرق (٤٢) حديث رقم (٥٧٥٢) ومسلم في صحيحه ١٩٩/١ كتاب الإيمان (١) باب الدليل على دخول طـوائف مـن المسلمين الجنـة بغير حسـاب ولا عـذاب (٩٤) رقـم الحديث (٣٧٤/٢٢٠).

والإسلام عند انتفائه، كما في قوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين).[١]

قال سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه.[٢]

وكما في قوله تعالى: (وقال موسى يـٰقوم إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[٣] أى إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا وبوعده فثقوا إن كنتم في إيمانكم مستسلمين مذعنين بالفعل وإنما يكون الإيمان يقينا إذا صدقه العمل وهو الإسلام.[٤]

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه وعنصر القوة الذى يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة، أمام الجبروت الطاغى، فإذا هي أقوى وأثبت، فقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام وجعل التوكل على الله مقتضياً لهذا وذاك، ومقتضياً للاعتقاد في الله ومقتضياً لإسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد.[٥]

وكما في قوله تعالى (ولله غيب السمـٰوت والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، وماربك بغـٰفل عما تعملون)[٦] فقرن في هذه الآية التوكل بالعبادة، وكثيراً مايقرن الله عز وجل بينهما كما في

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة المائدة.
(٢) في ظلال القرآن ٨٧٠/٦
(٣) الآية ٨٤ من سورة يونس.
(٤) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ٤٧٠/١١
(٥) انظر في ظلال القرآن ١٨١٥/١١
(٦) الآية ١٢٣ من سورة هود.

قوله تعالى: (قل هو الرحمٰن ءامنا به وعليه توكلنا)[١] وقوله تعالى: (رب المشرق والمغرب لا إلٰه إلا هو فاتخذه وكيلاً)[٢] وأمر الله المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات عديدة (إياك نعبد وإياك نستعين)[٣].[٤]

وماذاك إلا لما قدمنا من أن التوكل نصف الدين والنصف الآخر العبادة وكما في قوله تعالى: (وتوكل على الحي الذى لايموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً).[٥]

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: أى في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذى لايموت أبداً، الذى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم، الدائم الباقى السرمدى الأبدى، الحى القيوم رب كل شىء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذى يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: (يٰأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)[٦].[٧]

وغير ذلك من الآيات، وفي الحديث "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا).[٨]

---

(١) جزء من الآية ٢٩ من سورة الملك.
(٢) الآية ٩ من سورة المزمل.
(٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٢٣/٤
(٥) الآية ٥٨ من سورة الفرقان.
(٦) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة.
(٧) تفسير القرآن العظيم ١٢٨/٦
(٨) أخرجه أحمد في المسند ٥٢،٣٠/١ وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ٢٤٣/١ رقم الحديث (٢٠٥) وأخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٥٧٣/٤ كتاب الزهد (٣٧) باب في التوكل على الله (٣٣) حديث رقم (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألبانى في صحيح الترمذى ٢٧٤/٢ رقم الحديث (١٩١١-٢٤٦١).

وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له:(إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل).(١)(٢)

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذى لايموت والجن والإنس يموتون".(٣)

فما سبق كله يدل على أن التوكل على الله شرط في الإيمان ينتفى الإيمان عند انتفائه، فمن لاتوكل له لا إيمان له.(٤)

قال ابن القيم رحمه الله: وأفضل التوكل التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مسألة دينية أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف، ومن

---

(١) جزء من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٢١١/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة آل عمران (٣) باب (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم...) الآية (١٣) رقم الحديث (٤٥٦٣).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ١٥٦/٤ كتاب الدعوات (٨٠) باب الدعاء إذا انتبه من الليل (١٠) رقم الحديث (٦٣١٧) ومسلم في صحيحه ٢٠٨٦/٤ كتاب الذكر... (٤٨) باب التعوذ من شر ماعمل... (١٨) رقم الحديث (٦٧/٢٧١٧).

(٤) انظر مدارج السالكين ١٢٩/٢، وتيسير العزيز الحميد ٤٩٥-٤٩٦-٤٩٧

صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضيا كانت له العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ماحصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته.(١)

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين ثمان درجات للتوكل:(٢)

الدرجة الأولى: معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات فمن ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ماقدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمر الله.(٣) فالالتفات إلى الأسباب قدح في التوحيد،ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل،

---

(١) مدارج السالكين ١١٤/٢

(٢) انظر هذه الدرجات في مدارج السالكين ١١٧/٢ إلى ١٢٣

(٣) وهذه المسألة سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاب عنها بما لاتحتاج بعده إلى إيضاح كما في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: "مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) الآية". أخرجه البخارى في صحيحه ٤١٨/١-٤١٩ كتاب الجنائز (٢٣) باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (٨٢) رقم الحديث (١٣٦٢). ومسلم في صحيحه ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر (٤٦) باب كيفية الخلق الآدمي... (١) رقم الحديث (٢٦٤٧/٦).

والإعـراض عن الأسباب المأمـور بها قدح في الشرع فعلى العبـد أن يكـون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب مايصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة لـه وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله، كما يؤدي الفرائض، وكمـا يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس لباس الحرب، ولايكتفى في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد والاستعداد له، ومَنْ تَرَكَ الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم.

قـال صلى الله عليه وسلم: "المؤمـن القوى خير وأحب إلى اللـه مـن المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصـابك شيء فلا تقل لـو أني فعلت كان كذا وكـذا، ولكـن قل قدر الله وماشاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان".(١)

الدرجة الثالثة: رسـوخ القلب في مقام توحيد التوكل، فعلى قـدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير اللـه أخذ ذلك الالتفـات شعبة من شعب قلبـه فنقص من توكله على اللـه بقدر ذهاب تلك الشعبـــة.

الدرجة الرابعة: اعتمـاد القلب على الله، واستناده إليـه، وسكونه إليه، بحيـث لا يبقـى فيه اضطراب مـن تشويش الأسباب، ولا سكـون إليهـا، بل يخلـع السكون إليها من قلبـه، ويلبس السكون إلى مسببهـا وعلامة هذا أنه لايبـالى لإقبـالها وإدبارها، ولا يضطـرب قلبه ويخفق عنـد إدبار مـايحب منها وإقبال مايكره، لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحـه ٢٠٥٢/٤ كتاب القدر (٤٦) باب في الأمـر بالقوة وترك العجز (٨) رقم الحديث (٢٦٦٤/٣٤).

من خوفها ورجائها.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعية كلها إليه، وقطع منازعاته كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده.

الدرجة السابعة: التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو القاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لاكرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته وحسن ولايته، وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها، فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها، وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته.

الدرجة الثامنة: درجة الرضا، وهي ثمرة التوكل بل هي أجل ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله، وهذا كما في دعاء الاستخارة (١): "اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم" فهذا توكل وتفويض، ثم قال: "فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب" فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ماتوسل إليه به

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٦١/١ كتاب التهجد (١٩) باب ماجاء في التطوع مثنى... (٢٨) رقم الحديث (١١٦٦).

المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحة عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذه هي حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: "واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به" وقد اشتمل هذا الدعاء العظيم على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية، التي من جملتها التوكل، والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بماقضى له، فتفويضه معلول فاسد، .د قال صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً".(١) وقد تضمن هذا الحديث الرضى بربوبية الله وألوهيته والرضى برسوله والانقياد له والرضى بدينه والتسليم له ومن اجتمعت له هذه الأربع فهو الصديق حقاً وهي سهلة بالدعوى واللسان ولكنها من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ولاسيما إذا جاء مايخالف هوى النفس ومرادها،والرضى بالوهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه والجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه فهو يتضمن عبادته والإخلاص له،والرضى بربوبيته يتضمن الرضى بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكل مايفعل به،فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به،والثانى يتضمن رضاه بما يقدر عليه،وأما الرضا بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقن الهدى إلا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٦٢/١ كتاب الإيمان (١) باب الدليل على أن من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن (١١) رقم الحديث (٣٤/٥٦).

من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه ولا يحكم عليه غيره ولا يرضى بحكم غيره البتة لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ولا في شيء من حقائق الإيمان ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه ولا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلا بحكمه،وأما الرضى بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضى كل الرضى ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليماً ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواه أو قول مقلده وشيخه وطائفته وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد فإنه والله عين العزة.(١)

وأما بالنسبة لحكمه فالرضى بالقضاء الدينى الشرعى واجب،فهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض.

قال الله تعالى: (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)(٢) فأقسم أنهم لايؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليماً وهذا حقيقته الرضى بحكمه فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان والتسليم في مقام الإحسان فمتى خالط القلبَ بشاشةُ الإيمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحى وتمهدت طبيعته وانقلبت النفسُ الأمارةُ مطمئنةً راضيةً موادعة وتلقى أحكام الرب بصدر واسع منشرح مسلم فقد رضى كل الرضى بهذا القضاء الدينى المحبوب لله ولرسوله. والرضى بالقضاء الكونى القدرى الموافق لمحبة العبد

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٧٢-١٧٣

(٢) الآية ٦٥ من سورة النساء.

وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب لـه وليس في الرضى به عبـودية بل العبـودية في مقـابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعهـا التى يحب الله أن توضـع فيها وأن لايعصى المنعم بها وأن يرى التقصير في جميـع ذلك وأما الـرضى بالقضاء الكوني القـدرى الجارى على خلاف مراد العبـد ومحبته مما لايلائمه ولا يدخل تحت اختياره فهو مستحب وهو من مقـامات أهل الإيمان وفي وجوبه قـولان: وهـذا كـالمرض والفقـر وأذى الخلـق لـه والحر والبرد والآلام ونحو ذلـك، وأما الـرضى بالقدر الجارى عليـه باختيـاره مما يكرهه اللـه ويسخطـه وينهـى عنه كـأنواع الظلم والفسـوق والعصيـان فهـو حرام يعـاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله لايرضـى بذلك ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضى مايسخطه الحبيب.(١)

---

(١) انظر مدارج السالكين ١٩٢/٢-١٩٣ .
وقـد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين ١٧١/٢ إلى ٢٤٢ كلامـاً جليلاً في منزلة الرضا فليرجع إليه.

المبحث السابع عشر

الشكـر

وهـو مـن الأوصـاف العظيمـة فهـو فوق وصف الـرضى لأن الـرضا مندرج في الشكر وقد أمر الله عز وجل به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزاء وجعلـه سبباً للمزيد من فضلـه وحارساً وحافظاً لنعمتـه وأخبر أن أهله هم المنتفعـون بآياته فاشتق لهـم اسماً من أسمائه فإنه سبحـانه هو الشكور فهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً قال تعالى: (وكان الله شاكراً عليما)[١] وهـو غاية العبد من ربه وأهله هم القليـل من عباده قال تعـالى: (واشكروا للــه إن كنتم إياه تعبـدون)[٢] وقال تعالى: (واشكـروا لي ولاتكفرون)[٣] وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: (إن إبرٰهيم كـان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شـاكراً لأنعمه)[٤] وقال عن نبيه نوح عليه السلام: (إنه كان عبـداً شكوراً)[٥] وقال تعالى: (والله أخرجكـم من بطون أمهٰتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصٰـر والأفئدة لعلكم تشكرون)[٦] وقـال تعـالى كذلك: (وإذ تأذن ربكـم لئن شكـرتم لأزيدنكـم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد).[٧]

قال سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: ونقف نحن أمام هـــــذه

---

(١) جزء من الآية ١٤٧ من سورة النساء.
(٢) جزء من الآية ١٧٢ من سورة البقرة.
(٣) جزء من الآية ١٥٢ من سورة البقرة.
(٤) الآية ١٢٠ بتمامها وجزء من الآية ١٢١ من سورة النحل.
(٥) جزء من الآية ٣ من سورة الإسراء.
(٦) الآية ٧٨ من سورة النحل.
(٧) الآية (٧) من سورة إبراهيم.

الحقيقة الكبيرة حقيقة زيادة النعمة بالشكر والعذاب الشديد على الكفر نقف نحن أمام هذه الحقيقه تطمئن إليها قلوبنا للأول وهله لأنها وعد من الله صادق فلابد أن يتحقق على أية حال فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ونبحث عن أسبابها المدركة لنا فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب.

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعى في الفطرة المستقيمة، هذه واحده... والأخرى أن النفس التى تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر الدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها فيكونون له عوناً ويصلح روابط المجتمع فتنموا فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفى لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أم لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها، أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي، كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد.. وكله كفر بنعمة الله.

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة عيناً بذهابها، أو سحق آثارها على العبد، فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين ! وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله، ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لايمضى بلا جـــزاء،

ذلك لأن الشكر لاتعود على الله عائدته، وهذا الكفر لايرجع على الله أثره فالله غنى محمود بذاته لايحمد الناس وشكرهم على عطاياه.[١]

قال تعالى: (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم).[٢] قال ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية: يقول: ومن شكر نعمة الله عليه وفضله عليه فإنما يشكر طلب نفع نفسه، لأنه ليس ينفع بذلك غير نفسه، لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خلقه، وإنما دعاهم إلى شكره تعريضاً منه لهم للنفع، لا لاجتلاب منه بشكرهم إياه نفعاً إلى نفسه، ولا دفع ضر عنها، (ومن كفر فإن ربي غنى كريم) يقول: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه لنفسه ظلم وحظها بخس، والله غنى عن شكره، لاحاجة به إليه، لايضره كفر من كفر به من خلقه، كريم ومن كرمه إفضاله على من يكفر نعمه ويجعلها وصلة يتوصل بها إلى معاصيه.[٣]

والشكر عرفان الإحسان ونشره والشكور: الكثير الشكر يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح.[٤]

قال الراغب: الشكر هو تصور النعمة وإظهارها، قيل وهو مقلوب عن الكشر أى الكشف ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها.

ثم قال: والشكر ثلاثة أضرب:

الأول: شكر القلب وهو تصور النعمة.

الثاني: شكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١٣/٢٠٨٨-٢٠٨٩

(٢) جزء من الآية ٤٠ من سورة النمل.

(٣) جامع البيان ١٩/١٦٥

(٤) انظر لسان العرب عند مادة (شكر) ٤/٤٢٣-٤٢٤، والقاموس المحيط عند مادة (شكر) (ص٥٤٧).

الثالث: شكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه (اعملوا آل داوود شكراً).(١)(٢)

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله إن حقيقة الشكر في العبودية ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً وعلى قلبه شهوداً ومحبة وعلى جوارحه انقياداً وطاعة. ثم قال: والشكر مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته وثناؤه عليه بها، وأن لايستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هى أساس الشكر وبناؤه عليها فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.(٣)

ومما ينبغى ذكره في هذا المقام أن إمام الشاكرين هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيحين أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً".(٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بسؤال الله عز وجل الإعانة على الشكر فقال لمعاذ رضى الله عنه: "يامعاذ إنى لأحبك فقال له معاذ: بأبى أنت وأمى

---

(١) جزء من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٢) المفردات عند مادة (شكر) ص٢٦٥

(٣) انظر مدارج السالكين ٢٤٤/٢

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٩٣/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة التفتح (٤٨) باب (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك) (٢) رقم الحديث (٤٨٣٦) ومسلم في صحيحه ٢١٧١/٤ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (١٨) رقم الحديث (٢٨١٩/٧٩).

يارسـول الله وأنا أحبك قال: أوصيك يامعاذ لاتدعـن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".[١]

---

(١) أخرجه أحمـد في المسنـد ٢٤٤/٥-٢٤٥ وأبو داود ٨٦/٢ كتـاب الصلاة باب في الاستغفار رقم الحديث (١٥٢٢).
وصححـه ابن حجـر العسقلانى رحمـه الله في نتـائج الأفكـار في تخريج أحاديث الأذكار ٢٨٢/٢
وصححـــه كـذلك الشيــخ الألبـانى في صحيــح سنن أبي داود ٢٨٤/١ برقـــم (١٣٤٧/١٥٢٢).

المبحث الثامن عشر

الاعتصـام

العصمـة في كلام العرب المنـع عصمه يعصمه عصمـاً منعـه ووقاه.[١]

والعصمـة الحفظ يقال: عصمتـه فانعصم واعتصمت باللـه إذا امتنعت بلطفـه من المعصية وعصمه الطعـام منعه من الجوع وهـذا طعـام يعصم أى يمنع من الجوع.[٢]

قال ابن القيم رحمه الله: الاعتصام افتعال من العصمـة وهو التمسك بما يعصمـك ويمنعـك من المحـذور والمخـوف والعصمـة الحمية والاعتصـام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها.[٣]

وهو نوعان:

اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله.

قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا).[٤]

وقـال تعـالى: (واعتصمـوا باللـه هـو مولـٰكم فنعـم المولى ونعـم النصير).[٥]

فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصـام به يعصم من الهلكـة فإن السائر إلى اللـه كالسائر على طريق نحو مقصـده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعـد حصول الأمرين فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليـل والاعتصام باللـه

---

(١) اللسان عند مادة (عصم) ١٢/٤٠٣
(٢) المرجع نفسه ١٢/٤٠٤
(٣) مدارج السالكين ١/٤٦٠
(٤) جزء من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.
(٥) جزء من الآية ٧٨ من سورة الحج.

يوجب لـه القـوة والعدة والسلاح والمادة التى يسير بهـا في طـريقه ولهـذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشـارتهم كلهم إلى هذا المعنى.[١]

وقد قال ابن جرير رحمه الله عند قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا): يعنى بذلك جل ثناؤه وتعلقوا بأسباب الله جميعاً يريد بذلـك تعالى ذكره وتمسكوا بدين اللـه الذى أمركم به وعهـده الـذى عهده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمـر الله.[٢]

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصمـوا بحبل الله جميعـاً ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال وكثرة السـؤال وإضاعة المال".[٣]

قال النووى[٤] رحمـه الله عند شرح هـذا الحديث: "وأمـا الاعتصام بحبـل الله فهو التمسك بعهـده وهو اتباع كتابه العـزيز وحدوده والتـأدب بأدبه.[٥]

وقـد أخرج الطبرى عن قتادة والسـدى والضحاك[٦] أن المراد بحبل

---

(١) انظر مدارج السالكين ٤٦٠/١-٤٦١

(٢) جامع البيان ٣٠/٤

(٣) أخرجه مسلم في صحيحـه ١٣٤٠/٣ كتـاب الأقضيـة (٣٠) باب النهـي عـن كثرة المسائل من غير حاجة... (٥) رقم الحديث (١٧١٥/١٠).

(٤) هـو الشيـخ محي الدين أبو زكـريا يحى بن شرف الحزامـي سـار في الآفاق ذكره وعلا بين الناس قدره صاحب التصانيف المشهورة المباركة النافعة ، ولد بنوا قرية مـن الشـام عام ٦٣١هـ وتفقه على جمـاعة منهـم المقدسي والإربلى وكـان عـاملاً زاهـداً مـن مصنفاته المجموع والأذكـار وغيرها، مات سنـة ٦٧٦هـ ودفـن ببلده. انظر طبقات الشافعية للأسنوى ٤٧٦/٢، تذكرة الحافظ ٢٥٠/٤

(٥) شرح النووى على صحيح مسلم ١١/١٢

(٦) هو الضحاك بن مزاحم الهلالى أبو محمد وقيل أبو القـاسم صاحب التفسير ==

الله هو القرآن.(١)

وعن ابن مسعود: أن المراد بحبل الله الجماعة.(٢)

وعن أبي العالية: أن المراد بحبل الله الإخلاص لله وحده.(٣)

وعن ابن زيد: أن المراد بالحبل الإسلام.(٤)

وهـذا اختلاف تنوع يجمعه كلام النـووى المتقدم واللـه تعـالى أعلم.

وأمـا الاعتصام به تعالى فهو التوكل عليه والامتنـاع به والاحتماء به وسـؤاله أن يحمى العبد ويمنعـه ويعصمه ويدفع عنه فـإن ثمرة الاعتصـام به هو الدفع عن العبد والله يدافـع عن الذين آمنوا فيـدفع عـن عبده المؤمن إذا اعتصـم به كـل سبـب يفضـى به إلى العطـب ويحميه منـه فيـدفع عنه الشبهـات والشهـوات وكيد عـدوه الظاهر والباطن وشـر نفسـه ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقـادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنـه فتفقـد في حقـه أسباب العطب فيدفع عنـه موجباتها ومسبباتها فيـدفع عنه قدره بقدره وإرادته بإرادته ويعيذه به منه.(٥)

قـال تعـالى: (فـأقيموا الصلـوٰة وءآتوا الزكـوٰة واعتصمـوا باللـه هـو مولـٰكم فنعم المولى ونعم النصير).(٦)

(=) كـان من أوعية العلم وليس بالمجود لحديثه وهو صدوق في نفسـه وثقه أحمد بن جنبـل ويحى بن معين وحديثه في السنن لا في الصحيحين وضعفـه يحي بن سعيد القطـان، وقيـل إنه لم يصح لـه سمـاع مـن الصحابة ولا مـن ابن عبـاس، توفى (١٠٢هـ) وقيـــل (١٠٥هـ) وقيـــل (١٠٦هـ) فـــالله أعلم. انظـــر سير أعلام النبلاء ٥٩٨/٤، البداية والنهاية ٢٣١/٩

(١) أخرج هذه الآثار الطبرى في تفسيره ٣١/٤

(٢) أخرجه الطبرى في تفسيره ٣٠/٤

(٣) أخرجه الطبرى في تفسيره ٣١/٤

(٤) أخرجه الطبرى في تفسيره ٣٢/٤

(٥) انظر مدارج السالكين ٤٦٢/١

(٦) جزء من آية ٧٨ من سورة الحج.

قال ابن جرير رحمه الله عند قوله: (واعتصموا بالله) يقول: واتقوا الله وتوكلوا عليه في أموركم.[١]

وقال ابن كثير رحمه الله: أى اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به، ولهذا قال عز وجل بعد ذلك هو مولاكم أى حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم (فنعم المولى ونعم النصير) يعنى نعم الولى ونعم الناصر من الأعداء.[٢]

---

(١) جامع البيان ١٧/٢٠٩

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٥/٤٥٣

المبحث التاسع عشر

الرأفة والرحمة

ومن أوصاف القلب السليم الرأفة والرحمة.

والرأفة هى الرحمة وقيل أشد الرحمة[١] رأف به يرأف ورئف ورؤف رأفة ورآفة.[٢] وفي التنزيل (ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله).[٣]

والرحمة: الرقة والتعطف[٤] قال صاحب البصائر: الرحمة رقة تقتضي الإحسان للمرحوم.[٥] وقد ذكر ابن القيم رحمه الله[٦] أن صفة الرحمة ينشأ عنها الرقة في القلب ثم قال: إذا أشرق في القلب نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيماً رفيق القلب بكل ذى قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره، فضلاً عن بنى جنسه فهذا أقرب القلوب إلى الله.

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذاأراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمةوالرأفةوأبدل له بهماالغلظةوالقسوة.

وفي الحديث: "لاتنزع الرحمة إلا من شقى"[٧] وفيه: "من لايرحم

---

(١) قال الألوسي رحمه الله: والرأفة في المشهور الرحمة لكن قال بعض الأفاضل: إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة مافيه درء الشر ورأب الصدع وبالرحمة مافيه جلب الخير ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح. روح المعانى ١٩٠/٢٧

(٢) اللسان عند مادة (رأف) ١١٢/٩

(٣) جزء من الآية (٢) من سورة النور.

(٤) اللسان عند مادة (رحم) ٢٣٠/١٢

(٥) بصائر ذوى التمييز ٥٣/٣

(٦) انظر الروح ص٣٣٧

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٢/٢ وأبو داود في السنن ٢٣٢/٥ كتاب الأدب ==

لايرحم".[١]

وفيه: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".[٢]

وفيه: "أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربي ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال".[٣]

والرب تعالى هو الرؤوف الرحيم وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته.[٤]

والقول بأن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم باطل لأن الضعف والخور مذمومان من الآدميين والرحمة ممدوحة وقد قال تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).[٥]

وندب النبي صلى الله عليه وسلم إليها كما في الأحاديث السابقة

(=) (٣٥) باب في الرحمة (٦٦) رقم الحديث (٤٩٤٢). والترمذى في السنن كتاب البر (٢٨) باب ماجاء في رحمة المسلمين (١٦) رقم الحديث (١٩٢٣). وحسنه الألبانى في صحيح أبى داود ٩٣٣/٣ برقم (٤١٣٣/٤٩٤٢).

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٩١/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب رحمة الولد (١٨) رقم الحديث (٥٩٩٧) ومسلم في صحيحه ١٨٠٨/٤-١٨٠٩ كتاب الفضائل (٤٣) باب رحمة النبي صلى الله عليه وسلم (١٥) رقم الحديث ٦٥/٢٣١٨

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٦٠/٢، وأبو داود في السنن ٢٣١/٥ كتاب الأدب (٣٥) باب الرحمة (٦٦) برقم (٤٩٤١). والترمذى في السنن ٣٢٣/٤-٣٢٤ كتاب البر (٢٨) باب ماجاء في رحمة المسلمين (١٦) برقم ١٩٢٤، وصححه الألبانى في صحيح أبي داود ٩٣٣/٣ برقم ٤١٣٢-٤٩٤١

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٩٧/٤-٢١٩٨ كتاب الجنة... (٥١) باب الصفات التى يعرف بها في الدنيا... (١٦) رقم الحديث (٦٣/٢٨٦٥) ضمن رواية مطولة.

(٤) الروح ٢٣٧-٢٣٨

(٥) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

والتى منهـا قـوله صلى اللـه عليـه وسلم:"لاتنزع الـرحمة إلا مـن شقـي".[١]

وعال أن يقول: لاينزع الضعف والخور إلا من شقى ولكن لما كانت الـرحمة تقـارن في حق كثير مـن النـاس الضعـف والخور -كمـا في رحمـة النساء ونحو ذلك- ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً.[٢]

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) انظر الفتاوى ١١٧/٦

المبحث العشرون

الاستقامة

الاستقامة الاعتدال وقام الشيء واستقام اعتدل واستوى.

قال كعب بن زهير:[١]

وهم صرفوكم حين جزتم عن الهدى

بأسيافهم حتى استقمتم على القيم[٢]

وهى في الشرع لزوم المنهج القويم.[٣]

قال ابن القيم رحمه الله: وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد وهي تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات والاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله[٤] وقد أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستقامة فقال: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير).[٥]

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المشهور صحابي معروف آذى المسلمين بشعره فأهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمه فأسلم كعب وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدة بانت سعاد فقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم وكساه بردة له.

وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر القصيدة وأنه ورد في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه بردته حين أنشده القصيدة قال رحمه الله: وهذا من الأمور المشهورة جداً ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة -يعنى الكتب التى ذكرته كدلائل النبوة وسيرة ابن إسحاق وغيرها- بإسناد أرتضيه فالله أعلم. انظر الإصابة ٢٧٩/٣، والبداية والنهاية ٣٦٧/٤

(٢) اللسان مادة (قوم) ٤٩٨/١٢

(٣) بصائر ذوى التمييز ٣١١/٤

(٤) مدارج السالكين ١٠٥/٢

(٥) الآية ١١٢ من سورة هود.

قال ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية: يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم أنت يامحمد على أمر ربك والدين الذى ابتعثك به والدعاء إليه كما أمرك ربك (ومن تاب معك) يقول: ومن رجع معك إلى طاعة الله والعمل بما أمره به ربه من بعد كفره (ولا تطغوا) يقول: ولا تعدوا أمره إلى مانهاكم عنه (إنه بما تعملون بصير) يقول إن ربكم أيها الناس بما تعملون من الأعمال كلها طاعتها ومعصيتها بصير ذو علم بها لايخفى عليه منها شيء وهو لجميعها مبصر يقول تعالى ذكره فاتقوا الله أيها الناس أن يطلع عليكم ربكم وأنتم غافلون بخلاف أمره فإنه ذو علم بما تعملون وهو لكم بالمرصاد.[١]

وكان سفيان يقول في قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت) قال: استقم على القرآن.[٢]

قال سيد قطب رحمه الله: وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهى الذى أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه من يقظة وتحرج قد ينتهى إلى الغلو والمبالغة التى تحول هذا الدين من يسر إلى عسر والله يريد دينه كما أنزله ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء.[٣]

---

(١) جامع البيان ١٢٦/١٢

(٢) المرجع السابق نفسه ١٢٦/١٢

(٣) في ظلال القرآن ١٩٣١/٤

ولما كانت الاستقامة أمراً يحتاج إلى جهد عظيم وعمل شاق فقد قال صلى الله عليه وسلم لما قال له أبو بكر رضى الله عنه: يارسول الله قد شبت قال: "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت "[١] وماذاك إلا لما ذكرنا ولما في هذه السور من أهوال يوم القيامة والمثلات[٢] النوازل بالأمم الماضية فإنه أخذ منه مأخذه صلى الله عليه وسلم حتى شاب قبل أوانه.[٣]

وقد ذكر الله تعالى في كتابه جزاء المستقيمين فقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملـٰئكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون).[٤]

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في وقت تنزل الملائكة على المستقيمين بالبشرى ثلاثة أقوال:

الأول: أن ذلك يكون عند الموت.ونسبه إلى مجاهد والسدى وزيد بن أسلم[٥] وابنه ويشهد لهذا القول حديث البراء.[٦]

---

(١) أخرجه الترمذى ٤٠٢/٥ كتاب تفسير القرآن (٤٨) الباب السابع والخمسون حديث رقم (٣٢٩٧) وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. وصححه الألبانى في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥).

(٢) المثلة: نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره، وجمعه مثلات ومثلات. انظر المفردات مادة (مثل) ص٤٦٣

(٣) انظر تحفة الأحوذى ١٩٣/٤

(٤) الآية (٣٠) من سورة فصلت.

(٥) هو الإمام الحجة القدوة أبو عبدالله العدوي العمري المدني الفقيه، حدث عن والده أسلم مولى عمر، كان من العلماء العاملين، توفى في ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومئة. انظر سير أعلام النبلاء ٣١٦/٥، وشذارت الذهب ١٩٤/١

(٦) انظر حديث البراء في مسند الإمام أحمد ٢٨٧/٤-٢٨٨،٢٩٥،٢٩٩، وسنن أبي داود ١١٤/٥-١١٦ كتاب السنة (٣٤) باب المسألة في القبر (٢٧) رقم الحديث (٤٧٥٣) وقد صححه الألبانى في صحيح أبى داود ٩٠١/٣ برقم ٣٩٧٩

الثاني: أن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. وقد حكى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما.(١)

القول الثالث: أن ذلك يكون عند موته وفي قبره وحين يبعث.كما نقل ذلك ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم.

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذه الأقوال وهذا القول -يعنى الأخير- يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.(٢)

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله رضى الله(٣) عنه قال: قلت: يارسول الله قل لى في الإسلام قولاً لاأسأل عنه أحداً غيرك ؟ قال: "قل آمنت بالله ثم استقم".(٤)

وفيه عن ثوبان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولايحافظ على الوضوء إلا مؤمن"(٥) فالمطلوب من العبد الاستقامة وهى السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت

---

(١) انظر جامع البيان ١١٦/٢٤

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ١٦٥/٧-١٦٦

(٣) هو سفيان بن عبدالله بن أبي ربيعة بن الحارث بن مالك الثقفي الطائفي أسلم مع الوفد، استعمله عمر على صدقات الطائف وشهد حنيناً. انظر الإصابة ٥٣/٢

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح ٦٥/١ كتاب الإيمان (١) باب جامع أوصاف الإسلام (١٣) رقم الحديث (٣٨/٦٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن ١٠١/١،١٠٢ كتاب الطهارة (١) باب المحافظة على الوضوء (٤) الحديث (٢٧٧).

وأحمد في المسند ٢٨٠/٥، ٢٨٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٩٥٢

يارسول الله؟ قال: ولاأنا إلاأن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل".[١] فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهى السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال وأخبر في حديث ثوبان[٢] أنهم لايطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهى أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذى يرمى إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا "فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله .[٣]

وحتى تتحقق الاستقامة لابد من أصلين وهما: **الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة** فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها ولم يظفر به من باب اقتطاعه عنها أمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلاً له إن هذا خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها

---

(١) أخرجه البخارى في الصحيح ١٨٤/٤ كتاب الرقاق (٨) باب القصد والمداومة (١٨) حديث رقم (٦٤٦٣).
وأخرجه مسلم في الصحيح ٢١٦٩/٤ كتاب صفات المنافقين (٥٠) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (١٧) رقم الحديث (٢٨١٦/٧١).

(٢) هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سبي من أرض الحجاز فاشتراه النبي صلى الله عليه وسلم وأعتقه، فلزم النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظ عنه كثيراً من العلم، وطال عمره، واشتهر ذكره، شهد فتح مصر، توفي سنة أربع وخمسين. انظر سير أعلام النبلاء ١٥/٣، وشذرات الذهب ٥٩/١

(٣) انظر مدارج السالكين ١٠٥/٢

فيخرج عن حدها، فكما أن الأول خارج عن هذا الحد فكـذلك هذا الآخر خارج عـن الحد الآخر، وهـذا حال الخوارج الـذين يحقـر أهـل الاستقـامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم.

فكلا الأمـرين خروج عن السنـة إلى البدعة لكـن أحدهمـا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقـال بعض السلف: ماأمر اللـه بشيء إلا وللشيطـان فيـه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة وهى الإفراط ولا يبالى بأيهمـا ظفر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما(١) تنبيهـاً على ذلك: "ياعبداللـه بن عمرو إن لكل عامـل شره ولكل شرة فتره فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعـة خاب وخسر"(٢) وقـد قال له ذلك حين أمره بالاقتصـاد بالعمل فكل الخير في اجتهـاد باقتصاد وإخلاص مقرون بالاتباع.(٣)

---

(١) هـو عبدالله بن عمرو بن العـاص بن وائل بن هاشم بن سعيـد القرشي السهمي إمام حبر عابد أسلم قبل أبيه، وله مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل، توفي سنـــة ثلاث وستين، وقيـــل سنـة خمـس وستين. انظـــر سير أعلام النبلاء ٧٩/٣، شذرات الذهب ٧٣/١

(٢) أخرجه الإمـام أحمد في المسنـد ١٨٨/٢ وصحح اسناده أحمـد شاكر ٤٠/١١ برقم ٦٧٦٤

(٣) انظر مدارج السالكين ١٠٧/٢-١٠٨

المبحث الحادي والعشرون

الإيثار

آثره: أكـرمه ورجل أثير مَكِين مُكْـرَم والجمـع أُثَرَاء والأنثى أثيرة وآثره عليه فضله وآثرت فلاناً على نفسى من الإيثـار أى فضلته وقدمته.(١)

فالإيثار ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة.(٢) والإيثار ضد الشح فإن المؤثر على نفسه تارك لما هـو محتاج إليه والشحيـح حريص على ماليس بيـده فـإذا حصل بيده شيء بخل بإخراجه فـالبخل ثمرة الشـح والشـح يأمر بالبخل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والشـح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا".(٣)

فـالبخيل مـن أجاب داعـى الشح والمؤثر من أجاب داعـى الجود.(٤) والإيثار أعلى مراتب الجود فإن مراتب الجود ثلاثة:

أحدها: أن لاينقصه البذل ولا يصعب عليه فهو منزلة السخاء.

الثانية: أن يعطـى الأكثر ويبقـي له شيئاً أو يبقي مثـل ما أعطى فهو الجـــود.

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشـى مـع حاجتـه إليـه وهـو مـرتبة الإيثـار، وعكس الإيثار الأثرة وهو استئثاره عن أخيه بماهو محتـاج إليه وهى المرتبة التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار رضى الله عنهـــم

---

(١) انظر اللسان في مادة (أثر) ٤/٧

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٩٣

(٣) أخرجه مسلم في الصحيـح ٤/١٩٩٦ كتاب البر (٤٥) باب تحريم الظلم (١٥) برقـم ٥٦/٢٥٧٨

(٤) انظر مدارج السالكين ٢/٢٩١

"إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".[١]

والأنصار هم الذين وصفهم الله عز وجل بالإيثار في قوله تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[٢] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء وكان ذلك فيهم معروفاً.[٣]

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) يعنى حاجة أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفضل الصدقة جهد المقل[٤]"[٥] وهذا المقام أعلى من حال الذين وصفهم الله بقوله: (ويطعمون الطعام على حبه)[٦] وقوله: (وءاتى المال على حبه)[٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ماتصدقوا به وقد لايكون لهم حاجة إليه ولاضرورة، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ماأنفقوا، ومن هذا المقام تصدق الصديق رضى الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١/٣ كتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" (٨) برقم ٣٧٩٣، ومسلم في صحيحه ٤٧٢/٣ كتاب الإمارة ٣٣ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٠) برقم ١٨٤٣/٤٥

(٢) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر.

(٣) مدارج السالكين ٢٩٢/٢

(٤) جهد المقل: أى قدر مايحتمله حال القليل المال. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (جهد) ٣٢٠/١

(٥) أخرجه أبو داود ٧٩/٢ كتاب الصلاة أبواب الوتر برقم ١٤٤٩، والنسائى ٥٨/٥ كتاب الزكاة (٢٣) باب جهد المقل (٤٩) برقم ٢٥٢٦، وأحمد في المسند ٣٥٨/٢، وصححه الألبانى في صحيح أبى داود ٢٧١/١-٢٧٢ برقم (١٢٨٦/١٤٤٩).

(٦) جزء من الآية ٨ من سورة الإنسان.

(٧) جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

"ماأبقيت لأهلك؟" فقال: "أبقيت لهم الله ورسوله".[١]

ومنه أيضاً مارواه البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يارسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتدخريه شيئاً، فقالت: والله ماعندى إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانه فأنزل الله عز وجل: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[٢][٣] .[٤]

ومما ينبغى أن يعلم أنه لايحل إيثار يؤدى إلى ارتكاب إتلاف لايجوز في الدين مثل أن تؤثر بمالك وتقعد كلاً مضطراً مستشرفاً للناس أو سائلاً وكذلك الإيثار بكل ما يحرمه على المؤثر دينه لأنه سفه وعجز، يذم المؤثر به عند الله وعند الناس، وكذلك لايحل إيثار يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك وتوجهك إلى الله فتكون

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن ٣١٢/٢-٣١٣ كتاب الزكاة (٣) باب في الرخصة في ذلك (٤٠) برقم ١٦٧٨، والترمذى في السنن ٦١٤/٥-٦١٥ كتاب المناقب (٥٠) باب في مناقب أبي بكر (١٦) برقم ٣٦٧٥ وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الألبانى في صحيح الترمذى ٢٠٢/٣-٢٠٣ برقم ١٩٠٢، ٣٩٣٩

(٢) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر.

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٢/٣ كتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب قول الله (ويؤثرون على أنفسهم) (١٠) برقم ٣٧٩٨

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم ٩٦/٨-٩٧

قد آثرته على الله وآثرت بنصيبك من الله مالايستحق الإيثار فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه فأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق، وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره وما أقل المؤثرين الله تعالى على غيره، وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح أيضاً، وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهمات الناس ومصالحهم التي لاتتعين على المرء على الفكر النافع واشتغال القلب بالله ونظائر ذلك لاتخفى وذلك حال الخلق والغالب عليهم فكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحداً فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لاتعلم، ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقُرَبِ وقالوا: إنه مكروه أو حرام لمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو أو يؤثره بِقُرْبِهِ من الإمام يوم الجمعة أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه ويدفعه عليه فيفوز به دونه.[1]

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٢٩٧-٢٩٩

المبحث الثاني والعشرون

الصفاء

أصل الصفاء خلوص الشيء من الشوب ومنه الصفاء الحجارة الصافية قال تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله) [١][٢]

والمقصود هنا خلوص القلب من كل ماقد يشوب سلامته فيخلص توحيده لله عز وجل في المعرفة والإثبات والقصد والطلب من كل شرك صغيره وكبيره، ويخلص علمه المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل شبهة ويخلص قلبه من كل شهوة.

فيالها من صفة عظيمة رفيعة القدر أنعم الله عز وجل على أنبيائه الكرام بها، قال تعالى: (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار)[٣] وقال تعالى: (الله يصطفي من الملـٰئكة رسلاً ومن الناس)[٤] وقال تعالى: (إن الله اصطفي ءادم ونوحاً وءال إبرٰهيم وءال عمران على العـٰلمين).[٥]

واصطفاء الله تعالى بعض عباده قد يكون بإيجاده إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر ذلك من الأول.

والصفى والصفية مايصطفيه الرئيس لنفسه.[٦]

ولايتم هذا الوصف للعبد المسلم إلا بملازمة الكتاب والسنة وترك

---

(١) جزء من الآية ١٥٨ من سورة البقرة.
(٢) المفردات عند مادة (صفو) ص٢٨٣
(٣) الآية ٤٧ من سورة ص
(٤) جزء من الآية ٧٥ من سورة الحج.
(٥) الآية ٣٣ من سورة آل عمران.
(٦) انظر المفردات عن مادة (صفو) ص٢٨٣

الأهـواء والبدع والاقتداء بالسلـف وترك ما أحدثه الآخرون والإقـامة على ماسلكه الأولون.[١][٢]

---

(١) انظر مدارج السالكين ١٤٢/٣

(٢) وأمـا بالنسبة لاختيار الأنبياء ليكونوا أنبياء وإعدادهـم لذلك فهذا اختيار خاص خاضـع لمشيئة الله تعالى ولا يمكـن لأحد أن يكتسبه مهمـا بلـغ في إيمانه وتقواه قال تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار) (القصص: ٦٨).

المبحث الثالث والعشرون

الفـرح

الفرح نقيض الحزن فرح فرحاً ورجل فَرِح وفَرُح ومفروح.[١]

قـال ابن القيم رحمه اللـه: وهو لذة تقع في القلـب لإدراك المحبوب ونيل المشتهى فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور كما أن الحزن والغـم مـن فقـد المحبـوب فـإذا فقـده تولـد من فقده حالـة تسمـى الحزن والغم.[٢]

وقد جاء الفرح في القرآن الكريم على **نوعين**:[٣]

مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء في الـذم كقـوله تعـالى: (لاتفـرح إن اللـــه لايحب الفرحين)[٤] وقوله تعالى: (إنه لفرح فخور).[٥]

وقد قال ابن عباس عند قوله تعالى: (إن الله لايحب الفرحين) يقول: المرحين.[٦]

وقـال مجاهد: المتبذخين الأشـرين البطرين الذين لايشكـرون الله على ماأعطاهم.[٧]

وقال كذلك: يعنى به البغى.[٨]

---

(١) اللسان مادة (فرح) ٥٤١/٢

(٢) مدارج السالكين ١٥٧/٣

(٣) انظر مدارج السالكين ١٥٧/٣-١٥٨

(٤) جزء من الآية ٧٦ من سورة القصص.

(٥) جزء من الآية ١٠ من سورة هود.

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١١١/٢٠

(٧) المرجع نفسه.

(٨) جامع البيان ١١١/٢٠

والمقيد نوعان أيضا:

الأول: مقيد بالدنيا ينسى صاحبه فضل الله ومنته وهو مذموم وهوالمذكور في قوله تعالى: (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنـٰهم بغتة فإذا هم مبلسون).(١)

قال صاحب الظلال رحمه الله عند هذه الآية حتى إذا فرحوا بما أوتوا غمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها بلا شكر ولاذكر وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه وانحصرت اهتماماتهم فى لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هى عادة المستغرقين في اللهو والمتاع وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع بعد فساد القلوب والأخلاق وجر هذا وذاك إلى نتائج طبيعية من فساد الحياة كلها عندئذ جاء موعد السنة التى لاتتبدل (أخذنـٰهم بغتة فإذا هم مبلسون) فكان أخذهم على غِرَّة وهم في سهوة وسكرة فإذا هم حائرون منقطعوا النجاة في الرجاء عاجزون عن التفكير في أي اتجاه فإذا هم مهلكون بجلتهم حتى آخر واحد منهم فقطع دابر القوم الذين ظلمون والحمد لله رب العالمين.(٢)

والثاني مقيد بفضل الله وبرحمته وهو نوعان أيضاً

فرح بالسبب وفرح بالمسبب

فالأول: كقوله تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فبذٰلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).(٣)

قال ابن القيم رحمه الله: ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التى تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهـــدى

---

(١) جزء من الآية ٤٤ من سورة الأنعام.
(٢) الظلال ١٠٩٠/٧
(٣) الآية ٥٨ من سورة يونس.

والـرحمة،فأخبر سبحانه أن ماآتى عباده من الموعظة التى هـى الأمر والنهى المقرون بالترغيب والترهيب وشفاء الصدور المتضمن لعـافيتها من داء الجهل والظلمـة والغـي والسفه فـذلك خير من كل ما يجمـع النـاس من أعراض الـدنيا وزينتهـا أى هذا الـذى ينبغى أن يُفرَح به ومـن فـرح به فقد فرح بأَجَلِّ مفـروح به، لا مايجمع أهل الدنيا فيها فإنه ليـس بموضع للفرح لأنه عرضة للآفات ووشيك الزوال ووخيم العـاقبة وهو طيـف خيال زار الصب في المنام ثم انقضى المنام وولى الطيف وأعقب مزاره الهجران.(١)

وقـال صاحب الظلال: والإسلام لايحقر أغراض الحيـاة الدنيا ليهجرها النـاس ويزهدوا فيها إنما هـو يزنها بوزنها ليستمتع النـاس بهـا وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد مطمحهم أعلى من هذه الأعراض وآفـاقهم أسمى من دنيا الأرض، الإيمان عنـدهم هـو النعمـة وتأدية مقتضيـات الإيمان هـى الهـدف والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لاسلطان لها عليهم.(٢)

ثم قال أيضاً رحمه الله: إن القيمة العليا يجب أن تبقـى لفضل الله ورحمتـه المتمثلين في هداه الـذي يشفى الصدور ويحرر الـرقاب ويعلى مـن القيم الإنسانية في الإنسان وفي ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الـــذى أعطـــاه للنـــاس في الأرض وبالتصنيـــع الـــذى يوفـــرالإنتاج المادى وبالتيسيرات المادية التى تقلـل مـن شدة الكدح وبسائر هـذه القيم التى تدق الجاهلية حولها الطبول في الأرض وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بهاالناس لأنهايومئذتستخدم في إعلاء القيمـة الحيـوية والآليـة على حساب القيم الإنســانية العلـوية.(٣)

---

(١) انظر مدارج السالكين ١٥٧/٣

(٢) الظلال ١٧٩٩/١١

(٣) الظلال ١٨٠١/١١

والثاني: هو الفرح بالمسبب كقوله تعالى: (فرحين بما ءاتـٰهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم).[١]

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: أى الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم وأنهم لايخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ماتركوه وراءهم.[٢]

وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق[٣] قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية (لاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)[٤] فقال: أما إنا قد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: "أرواحهم في جوف طير خضرٍ لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً فقالوا أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا"[٥] فهذا فرح بما نالوه بسبب استشهادهم في سبيل الله تعالى.

---

(١) جزء من الآية ١٧٠ من سورة آل عمران.

(٢) تفسير ابن كثير ١٤٢/٢

(٣) هو الإمام القدوة العلم أبو عائشة الوادعي الهمداني الكوفي مسروق بن الأجدع ابن مالك بن أمية يقال إنه سُرِق وهو صغير ثم وُجِد فَسُمِّي مسروقاً من كبار التابعين روى عن عدد من الصحابة مات سنة ٦٢هـ وقيل ٦٣هـ. انظر السير ٦٣/٤، شذرات الذهب ٧١/١

(٤) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح ١٥٠٢/٣، كتاب الإمارة (٣٣) باب بيان أرواح الشهداء (٣٣) الحديث (١٨٨٧/١٢١).

والفرح بالله وبرسوله ويالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن من أعلى المقامات قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمٰنا)[١] وقال تعالى:(والذين ءاتينٰهم الكتٰب يفرحون بما أنزل إليك)[٢] فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمها عند صاحبها ومحبته لها وإيثاره لها على غيرها فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه فمن ليس له رغبة في الشيء لايفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته فالفرح تابع للمحبة والرغبة والفرق بينه وبين الاستبشار أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله ولهذا قال تعالى: (فرحين بما ءاتٰهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم).[٣]

والفرح صفة كمال ولذلك يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها كفرحه بتوبة التائب[٤]. والمقصود أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته فالفرح والسرور نعيمه والهم والحزن عذابه والفرح بالشيء فوق الرضا به فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح والفرح لذة وبهجة وسرور فكل فَرِحٍ راضٍ وليس كل راضٍ فَرِحاً ولهذا كان الفرح ضد الحزن والرضا ضد السخط والحزن يؤلم صاحبه والسخط لايؤلمه إلا إذا كان مع العجز عن الانتقام.[٥]

---

(١) جزء من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

(٢) جزء من الآية ٣٦ من سورة الرعد.

(٣) جزء من الآية ١٧٠ من سورة آل عمران.

(٤) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "لله أشد فرحاً بتوبة عبده.. الحديث أخرجه البخاري في الصحيح ١٥٤/٤ كتاب الدعوات (٨٠) باب التوبة (٤) برقم ٦٣٠٩ ومسلم في صحيحه ٢١٠٤/٤-٢١٠٥ كتاب التوبة (٤٩) باب في الحض على التوبة (١) برقم (٢٧٤٧/٧)

(٥) انظر مدارج السالكين ١٥٨/٣-١٥٩

المبحث الرابع والعشرون

الغَـيْرة

وهى بالفتح مصدر من قولك غار الرجل على أهلـه وغار الرجل على امـرأته والمرأة على بعلهـا تغـار غَيْرةً وغَيْراً وغَـاراً وغِيَـاراً ورجل غيران والجمع غَيارى وغُيارى، وغَيُور والجمع غُيُر.(١)

والغيرة إمـا أن تكون مـن الشىء أو عليه، فالغيرة مـن الشـىء هى كراهة مزاحمته ومشاركته لـك في محبوبك والغيرة عليـه هـى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به.

والغيرة على أنواع:

أعلاها: غيرة الحق تعـالى على عبـده وهى أن لايجعلـه للخلق عبداً بل يتخذه لنفسه عبداً فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين بل يفرده لنفسه ويضِن به على غيره وكذلك يغار عليه أن يقع فيما حرم عليه. قـال تعالى: (قل إنما حرم ربي الفوٰحـش ماظهر منها ومابطن).(٢)

وفي الصحيـح أن رسول اللـه صلى الله عليه وسلم قـال: "ليـس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش".(٣)

النوع الثانى: غيرة العبد لربه **وهى نوعان أيضا:**

غيرة من نفسه، وغيرة من غيره.

فالتى من نفسـه أن لايجعـل شيئـاًمنأعماله وأقـواله وأحوالـه وأوقـاته

---

(١) اللسان في مادة (غير) ٥/٤١-٤٢

(٢) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه البخـارى ٣٢٨/١ كتـاب الكسـوف (١٦) باب الصـدقة في الكسـوف (٢) برقـم ١٠٤٤ ومسلم ٢١١٣/٤ كتـاب التـوبة (٤٩) باب غيرة اللـه (٦) برقـم ٢٧٦٠/٣٢

وأنفاسه لغير ربه.

وأما التى من غيره فهى أن يغضب لمحارم الله عز وجل إذا انتهكها المنتهكون ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

وغيرة العبد من نفسه أهم من غيرته من غيره لأنك إذا غرت من نفسك صحت لك غيرتك لله من غيرك وإذا غرت له من غيرك ولم تغر من نفسك فالغيرة مدخولة معلولة فتأملها وحقق النظر فيها.

وأما الغيرة على الله فأعظم الجهل وأبطل الباطل وصاحبها من أعظم الناس جهلاً وربما أدت بصاحبها إلى معاداته وهو لايشعر وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام وربما كان صاحبها شراً على السالكين إلى الله من قطاع الطريق بل هومن قطاع طريق السالكين حقيقةلكنه أخرج قطع الطريق في قالب الغيرة وإلا فأين هذا من الغيرة لله التى توجب تعظيم حقوقه وتصفية أعماله وأحواله لله فالعارف يغار لله والجاهل يغار على الله.

وقد حُكى عن واحد من مشهوري الصوفية أنه قال لاأستريح حتى لا أرى من يذكر الله يعنى غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم والعجب أن هذا يعد من مناقبه ومحاسنه وغاية هذا أن يعذر فيه لكونه مغلوباً على عقله وهو من أقبح الشطحات وذكرالله على الغفلةوعلى كل حال خير من نسيانه بالكليةوالألسن متى تركت ذكرالله الذى هو محبوبها اشتغلت بذكر مايبغضه ويمقت عليه فأى راحة للعارف في هذا وهل هو إلاأشق عليه وأكره إليه؟.

وقول آخر لا أحب أن أرى الله ولا أنظر إليه فقيل له كيف قال غيرة عليه من نظر مثلى فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة الدالة على جهل صاحبها مع أنه في خفارة ذله وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه.[1]

---

(١) انظر مدارج السالكين ٤٢/٣ إلى ٤٥

المبحث الخامس والعشرون

التواضـــع

التـواضع لغـة هو التذلـل وتواضـع الرجل ذل وتواضعـت الأرض: انخفضت عما يليها.[١]

وهـو في الشرع انكسار القلـب لله وتلقي سلطان الحق بالخضـوع لـه والـذل والانقياد وخفض جنـاح الذل والرحمة لعباد اللـه فلايرى لـه على أحد فضلاً ولايرى لـه عند أحد حقاً بل يرى الفضل للنـاس عليه والحقوق لهم قبله.

ولهـذا فسر النبي صلى اللـه عليه وسلم الكبر بضده فقـال: "الكبر بطر الحق وغمط النـاس.[٢] فبطـر الحق: رده وجحـده والدفع في صـدره كدفع الصـائل. و"غمط الناس" احتقارهم وازدراؤهم، ومتى احتقـرهم وازدراهم، دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها.[٣]

والتواضع نوعان:

أحدهما: محمود وهو ماتقدم تعريفه.

والثانى: مذموم وهو ضعـة[٤] لا تواضـع وهو الـدناءة والخسـة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه والله تعالى يحب التواضع

---

(١) اللسان عند مادة (وضع) ٣٩٧/٨

(٢) أخرجه مسلم في صحيحـه ٩٣/١ كتاب الإيمان (١) باب تحريم الكبر وبيـانه (٣٩) رقم الحديث (٩١/١٤٧).

(٣) انظر الروح ص٣١٣ ومدارج السالكين ٣٣٣/٢

(٤) الضعة: خلاف الرفعة في القدر وهي الذل والهوان والدناءة.
اللسـان عنـد مـادة (وضع) ٣٩٧/٨ والنهـاية لابن الأثير باب الضـاد مـع العين ٨٩/٣

ويبغض الضعة والمهانة.[١]

وكلامنا سوف يكون بإذن الله عز وجل حول التواضع المحمود على اعتبار أنه أحد أوصاف القلب السليم.

ويشترط للتواضع **شرطان** حتى يحمد فاعله وهما:

الأول: الإخلاص: لأن الله عز وجل لايقبل من العمل إلا ماكان خالصاً لوجهه الكريم[٢] وقد جاء مصرحاً بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله".[٣]

الثاني: القدرة: فإن من ترك الشيء لأنه لايقدر عليه لايعد متواضعاً قال صلى الله عليه وسلم: "من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها".[٤]

والتواضع على **درجتين**:[٥]

الدرجة الأولى: التواضع للدين: وهو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستسلام له والإذعان وذلك **بثلاثة أمور**:

---

(١) انظر الروح ص٣١٣-٣١٤

(٢) كما في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه" أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٨٩/٤ كتاب الزهد والرقائق (٥٣) باب من أشرك في عمله غير الله وفي نسخة باب تحريم الرياء (٥) رقم الحديث (٢٩٨٥/٤٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٠١/٤ كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب استحباب العفو والتواضع (١٩) رقم الحديث (٢٥٨٨/٦٩).

(٤) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٦٥٠/٤ كتاب صفة القيامة (٣٨) باب (٣٩) رقم الحديث (٢٤٨١) وقال الترمذى: هذا حديث حسن.
وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذى ٣٠٣/٢ برقم (٢٠١٧-٢٦١١).

(٥) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين ٣٣٣/٢ إلى ٣٣٨

الأول: أن لايعارض شيئاً مماجاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحى بمعقولاتهم الفاسدة وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل وعزلنا النقل إما عزل تفويض وإما عزل تأويل.

والله عز وجل بين لنا أن الذى يدفعهم إلى ذلك هو الكبر الذى في قلوبهم قال تعالى: (إن الذين يجٰدلون في ءايٰت الله بغير سلطٰن أتٰهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببٰلغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير).[١]

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا إذا تعارض القياس والرأى والنصوص: قدمنا القياس على النص ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف الزهد فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر، والتواضع التخلص من ذلك كله.

الثانى: أن لايتهم دليلاً من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالةأو قاصرهاأو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه وقد أحسن من قال:[٢]

---

(١) الآية ٥٦ من سورة غافر.

(٢) هذان البيتان ذكرهما ابن القيم في مدارج السالكين ٢/٣٣٤

وكـم مـن عائب قولاً صحيحـاً   وآفتـه مـن الفهـم السقيـــــم
ولكـن تأخـذ الأذهـان منــــه   على قــدر القـــرائح والفهـــوم

الثالث: أن لايجد إلى خلاف النص سبيلاً البتةلابباطنه ولا بلسانه ولا بفعله واعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه وشيخه ومقلده أو لرأيه ومعقوله وذوقه وسياسته إن كان عند الله معذوراً -ولا والله ماهو بمعذور- فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند الله ورسوله وملائكته والمؤمنين من عباده. فواعجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً أو تأويلاً أو لغير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من خالف أقواله وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل[١]، ونعوه الغوائل[٢]، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذا، وقذفوه بمصابهم، وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذاً لهم ومعاذا.

واعلم أنه لايحقق ذلك كله[٣] إلا من استنارت بصيرته ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، ولا يكون ذلك إلا بتقوى الله عز وجل وإدارة النظر في أعلام الحق وأدلته والتجرد لله من الهوى، قال تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم).[٤] وقال تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وءامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم).[٥]

---

(١) الحبائل: هي المصايد، واحداتها حبالة بالكسر وهي مايصاد بها من أي شيء كان. انظر اللسان ١٣٦/١١ مادة (حبل).
(٢) الغوائل: هي الدواهي. انظر اللسان ٥٠٧/١١ مادة (غول).
(٣) المراد تحقيق الأمور الثلاثة التي بها يكون التواضع للدين.
(٤) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.
(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد.

قال سيد قطب رحمه الله عند آية الأنفال: هذا هو الزاد وهذه هى عدة الطريق زاد التقوى التى تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقي، وعدة النور الهادي الذى يكشف منحنيات الطريق ودروبه على حد البصر فلا تغبشه الشبهات التى تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة، ثم هو زاد المغفرة للخطايا، الزاد المطمئن الذى يسكب الهدوء والقرار وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفذ الأزواد وتقصر الأعمار.

إنها حقيقة: إن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له متعرجات الطريق ولكن هذه الحقيقه -ككل حقائق العقيدة- لايعرفها إلا من ذاقها فعلاً! إن الوصف لاينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذقها!

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر، والباطل يظل ملتبساً بالحق عند مفارق الطريق ! وتظل الحجة تفحم ولكن لاتقنع، وتسكت ولكن لايستجيب لها القلب والعقل، ويظل الجدل عبثاً والمناقشة جهداً ضائعاً.. ذلك مالم تكن هى التقوى.. فإذا كانت استنار العقل، ووضح الحق وتكشف الطريق واطمأن القلب، واستراح الضمير، واستقرت القدم وثبتت على الطريق.

إن الحق في ذاته لايخفى على الفطرة.. إن هناك اصطلاحاً من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه والذى خلقت به السموات والأرض.. ولكنه الهوى هو الذى يحول بين الحق والفطرة، الهوى هو الذى ينشر الغبش ويحجب الرؤية ويعمى المسالك ويخفى الدروب.. والهوى لاتدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى.. تدفعه مخافة الله ومراقبته في السر والعلن .. ومن ثم هذا الفرقان الذى ينير البصيرة ويرفع اللبس ويكشف الطريق، وهو أمر لايقدر بثمن.. ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب، ثم يضيف إليهما "الفضل العظيم".

ألا إنه العطاء العميم الذى لايعطيه إلا الرب الكريم ذو الفضل العظيم ![1]

الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً وأن لا ترد على عدوك حقاً، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

لأن عدم رضاك بمن رضى به خالقك وسيدك عبداً أخاً عين الكبر وأى قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله لايرضى بأخوته وسيده راض بعبوديته؟

ويترتب على ذلك أن المتكبر غير راض بعبودية سيده إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده، وقد ذكر الله عز وجل أخوة المؤمنين في مواطن عديدة من كتابه وأثنى عليها فقال تعالى: (إنما المؤمنون إخوة)[2] وقال تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخونا)[3] وقال صلى الله عليه وسلم:"المسلم أخو المسلم".[4]

وكذلك تشمل هذه الدرجة قبولك الحق ممن تحب وممن تبغض قال تعالى: (يأيها الذين ءامنوا كونوا قوّمين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).[5]

وتشمل كذلك قبول معذرة المعتذر فإن هذا من تمام التواضع وحتى

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٩٩/٣

(٢) جزء من الآية ١٠ سورة الحجرات.

(٣) جزء من الآية ١٠٣ سورة آل عمران.

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ١٩٠/٢ كتاب المظالم (٤٦) باب لايظلم المسلم المسلم (٣) رقم الحديث (٢٤٤٢) ومسلم في صحيحه ١٩٩٦/٤ كتاب البر (٤٥) باب تحريم الظلم (١٥) رقم الحديث (٢٥٨٠/٥٨).

(٥) الآية ٨ سورة المائدة.

إن رأيت في عـذره خللاً لاتوقفـه عليه ولا تحاجه وقـد قال صلى اللـــــه عليه وسلم: "المؤمن غر كريم[١] والفاجر خب[٢]لئيم".[٣]

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إمام المتواضعين ومن أمثلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله".[٤]

وعـن أنس رضى الله عنه قـال: "ولقد رهن رسول اللـه صلى اللـــه عليـه وسلم درعـه بشعير، ومشيـت إلى النبي صلى الله عليـه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخه[٥]، ولقـد سمعتـه يقول: مـا أصبـح لآل محمد صلى اللــــه عليه وسلم إلا صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات".[٦]

---

(١) غـر كـريم: أي ليس بذي نكر فهـو ينخـدع لانقيـاده ولينـه والمراد أن المؤمـن المحمـود من طبعه الغرارة وقلـة الفطنة للشر وترك البحـث عنه وليس ذلك منه جهلاً ولكنـه كـرم وحســن خلـق. انظـر النهـاية في غـريب الحديث والأثر مـادة (غرر) ٣/٣٥٤-٣٥٥

(٢) الخب بالفتـح الخداع وهو الذي يسعى بين الناس بالفسـاد وقد تكسر خاؤه وأما المصـدر فبالكسر لاغير. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مـادة (خبب) ٢/٤

(٣) أخرجه أحمـد في المسند ٢/٣٩٤، وأبو داود في السنن ٥/١٤٤ كتـاب الأدب رقم (٣٥) باب في حسـن العشرة (٦) رقـم الحديث (٤٧٩٠) والترمـذى في الجامـع الصحيـح ٤/٣٤٤ كتـاب البر (٢٨) باب مـاجاء في البخيـل (٤١) رقـم الحديث (١٩٦٤) وقـال الترمذى: هذا حديث غـريب لانعرفه إلا مـن هذا الوجه، وحسنه الشيخ الألبانى في صحيح أبي داود ٣/٩٠٩ برقم (٤٠٠٦-٤٧٩٠).

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢/٤٩٠ كتاب أحاديث الأنبيـاء (٦٠) باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم) (٤٨) رقم الحديث (٣٤٤٥).

(٥) الإهـالة السنخة: كل شيء من الأدهـان مما يؤتدم به إهـالة وقيـل هو ما أذيب من الألية والشحم وقيل الدسم الجامد والسنخة المتغيرة الـريح. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (أهل) ١/٨٤

(٦) أخرجه البخــارى في صحيحـه ٢/٢١٠ كتــاب الـرهن (٤٨) باب في الــرهن في الحضر...(١) رقم الحديث (٢٥٠٨).

وقــد قــال صلى صلى اللــه عليــه وسلم: "إن اللــه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد".[١]

وقال صلى الله عليه وسلم: "مانقصت صدقة من مال ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله".[٢]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢١٩٧-٢١٩٩ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا (١٦) رقم الحديث (٦٤/٢٨٦٥).

(٢) تقدم تخريجه ص(١٨٨)

المبحث السادس والعشرون

الطهـر

الطهـر نقيـض النجاسة والجمـع أطهـار وقد طهـر يطهـر وطهـر طهراً وطهارة.[١]

والطهـارة ضـربان: **جسمانية ونفسـانية** وحمـل عليهمـا عـامة الآيات.[٢]

فمن الأول: قوله تعالى: (فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقـربوهن حتى يطهرن).[٣] وقـوله تعـالى: (وإن كنتم جنبـاً فـاطهروا).[٤] وغير ذلك مـن الآيات.

ومن الآخر: قوله تعالى: (وإذ قالت الملـٰئكة يـٰمريم إن الله اصطفـٰـك وطهرك واصطفـٰـك على نساء العـٰـلمين)[٥] وقوله تعالى:(إنما يريدالله ليذهب عنكـم الـرجس أهل البيـت ويطهركـم تطهيرا)[٦] وغير ذلـك مـن الآيات.

وطهارة القلب لاريب أنها من الضرب الثاني قال تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنـوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكـم إلى طعـام غير نـٰظرين إنـٰه ولكـن إذا دعيتم فـادخلوا فـإذا طعمتم فـانتشروا ولا مستـأنسين لحديث ان ذلكـم كـان يؤذى النبى فيستحيي منكـم والله لايستحيي مـن الحق وإذا سألتموهن متـٰعاً فسئلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهـــن

---

(١) اللسان عنده ماده (طهر) ٥٠٤/٤

(٢) بصائر ذوى التمييز ٥٢٨/٣

(٣) جزء من الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٥) الاية ٤٢ من سورة آل عمران.

(٦) جزء من الاية ٣٣ من سورة الأحزاب.

وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزوٰجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عندالله عظيما)[١]

وهذه الآية هي آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية عظيمة.

روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:" لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو يتأهب للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فالقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: (يٰأيها الذين ءامنوا لاتدخلوا بيوت النبي) الآية".[٢] وفي هذه الآية يأمر الله عباده بالتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دخول بيوته ووضع لدخولهم شرطين الإذن منه صلى الله عليه وسلم بالدخول وأن يكون الجلوس بمقدار الحاجة لأن الانتظار الزائد كان يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ويشق عليه حبسهم إياه عن شؤون بيته وأشغاله فيه فيستحيي أن يقول لهم اخرجوا كما هي عادة الناس وخصوصاً أهل الكرم منهم يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم ولكن الله لايستحيي من الحق فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً فإن الحزم اتباعه وأن يجزم بأن ماخالفه ليس من الأدب في شيء، ثم بين تعالى

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٣/٢٧٨-٢٧٩ كتاب التفسير (٦٥)، تفسير سورة الأحزاب (٣٣) باب لاتدخلوا بيوت النبي.. الاية(٨) برقم ٤٧٩١

الأدب في مخاطبة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم عند الحاجة إلى ذلك بأن يسألن من وراء حجاب أي يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله[١]. ثم ذكر الحكمة في ذلك بقوله: (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) لأنه أبعد عن الريبة وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر فإنه أسلم وأطهر لقلبة ثم ذكر الله تعالى القاعدة العامة(وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله) أي أذية قولية أو فعلية بجميع مايتعلق به. (ولا أن تنكحوا أزوٰجه من بعده أبداً) وهذا من جمله مايؤذيه فإنه صلى الله عليه وسلم له مقام التعظيم والرفعة والإكرام وتزوج أزواجه من بعده مخل بهذا المقام وأيضاً فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة والزوجية باقية بعد موته[٢] فلذلك لايحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته (إن ذٰلكم كان عند الله عظيماً) وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر واجتنبت مانهى الله عنه ولله الحمد والشكر.[٣]

وقال تعالى: (يٰأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر)[٤] روى البخارى رحمه الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى أنه قال: "فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا هوالملك الذى جاءني بحراء جالس على كرسي بين

---

(١) وذلك في قوله تعالى: (فلاتخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً) (الأحزاب: ٣٢).

(٢) وهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وأما غيره فقد يكون من البر به التزوج بامراته بعد موته حفاظاً عليها وعلى أبنائه.

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن ١١٩/٦-١٢٠

(٤) الآيات ١-٥ من سورة المدثر.

السمـاء والأرض فجئثت منه رعبـاً. فرجعت فقلت زملـونى زملـونى فدثرونى فأنزل الله تعالى: (يـٰأيها المدثر -إلى- والـــرجز فــاهجر) قبـل أن تفـرض الصلاة وهي الأوثان"[١] وقـد ذكر العلماء في قوله تعالى: (وثيـابك فطهر) أقوالاً كثيرة ولكنها في رأيي ترجع إلى قولين:

الأول: أن المراد بالثياب القلب.

الثانى: ان المراد بالثياب الملبوسات في الظاهر.

وبالقول الأول قال ابن عباس رضـى الله عنهما[٢] وهو قول إبراهيم وقتاده والضحاك والشعبى[٣] والزهرى[٤][٥] وقال سعيد بن جبير[٦]: وقلبك

---

(١) أخرجه البخـارى في صحيحـه ٣١٧/٣، كتـاب التفسير (٦٥) سـورة المدثر (٧٤) باب (وثيابك فطهر) (٤)، رقم الحديث (٤٩٢٥).

(٢) فقد جاءه رجل فقال: أرأيت قول الله: (وثيابك فطهر) قال: لاتلبسها على معصية ولا على غدرة ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

إنى بحمد الله لاثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤٥/٢٩

(٣) هو عامر بن شراحيل الشعبي الحميري أبوعمرو الكوفي علامة الكوفة وكان إماماً حافظاً أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة مـن التابعين أثنى عليه الحفاظ كثيراً، توفي سنة ١٠٩هـ. انظر البداية والنهاية ٢٣٩/٩، وتهـذيب التهذيب ٦٥/٥

(٤) هـو محمـد بن مسلم بن عبيداللـه بن شهاب بن زهرة الإمام العلم الحافـظ أبوبكـر القـرشي الزهرى المدني نزيل الشـام كان عابداً عالماً بالسنـة والحديث، توفي سنة أربع أو ثلاث وعشرين ومائة رحمه الله تعالى. انظر صفة الصفوة ١٣٦/٢، وسير أعلام النبلاء ٣٢٦/٥

(٥) انظـر جامع البيان ١٤٥/٢٩-١٤٦، وتفسير البغوى ٤١٣/٤، وفتـح البارى ٦٧٩/٨

(٦) هـو سعيد بن جبير بن هشام الإمـام الحافظ المقرىء المفسـر أبو محمـد ويقال أبو عبدالله الأسدى الوالبى مولاهم الكوفي أحد الاعلام، روى عـن ابن عباس وعن غيره مـن الصحـابة وحدث عنه خلـق قتلـه الحجاج عام ٩٥هـ رحمـه اللـه تعالى ورضى الله عنه. انظر السير ٣٢١/٤، شذرات الذهب ١٠٨/١

ونيتك فطهر.[١]

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق.[٢]

ثم اختار رحمه الله تعالى العموم فقال: الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم وإن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها.[٣] لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات فإن الملابسة الظاهرة تسرى إلى الباطن ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور[٤] لما يكسب القلب من الهيئة التى تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.والمقصود أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها. فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها فالمقصود

---

(١) ذكره البغوى في تفسيره ٤١٣/٤

(٢) إغاثة اللهفان ٥٢/١

(٣) منها حديث معاوية لما قال له المقدام: أنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها قال: نعم .. الحديث أخرجه أبو داود ٦٨/٤ كتاب اللباس باب في جلود النمور والسباع برقم ٤١٣١ وصححه الألبانى في صحيح أبي داود ٧٧٨/٢ برقم (٣٤٧٩).

(٤) كما في حديث علي قال: نهانى رسول الله عن خاتم الذهب وعن لبس القسى والمثيرة الحمراء أخرجه أبو داود ٤٩/٤ كتاب اللباس باب من كره لبس الحرير برقم ٤٠٥١، وصححه الألبانى في صحيح أبى داود ٧٦٤/٢-٧٦٥ برقم (٣٤١٧).

لنفسه أولى أن يكون مأموراً به.

وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم إلا بذلك فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.[١]

وقال ابن حجر[٢] رحمه الله أيضاً بعد أن ذكر الأقوال ويجوز أن يكون المراد جميع ذلك.[٣]

والطهارة والزكاة متلازمان ولذلك جمع الله بينهما في قوله تعالى: (خذ من أمولهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٤] فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن وبمنزله الدغل في الزرع وبمنزله الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا مانع فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجوانب القاسية والمواد الرديئة فإذا تم له ذلك زكا ونما وقوى واشتد وجلس على سريرملكه ونفذ حكمه فى رعيته فسمعت له وأطاعت[٥]

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٥٤-٥٥

(٢) هو أمير المؤمنين في الحديث حافظ العصر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر نسبةإلى آل حجر الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد والمنشأ والدار والوفاة الشافعى له الكثير من التصانيف النافعة منها فتح البارى بشرح صحيح البخارى وتهذيب التهذيب والإصابة في تميز الصحابة والدرر الكامنة وديوان شعر وغيرها، توفى سنة ٨٥٢ هـ رحمه الله. انظر شذرات الذهب ٧/٢٧٠، معجم المؤلفين ٢/٢٠

(٣) فتح البارى ٨/٦٧٩

(٤) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٥) كما في حديث النعمان بن بشير "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله.." الحديث

وقد تقدم تخريجه ص (٣) .

ولا سبيـل إلى زكاته إلا بعـد طهارته كما قال تعالى: (قـل للمؤمنين يغضوا من أبصـٰـرهم ويحفظوا فــروجهم ذلــك أزكــى لهــم إن اللــه خبير بما يصنعون)[١] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

وغض البصر وحفظ الفرج فيه خضوع لماأمرالله به وترك لمانهى عنه ففيهما إذاً طهارة للقلب شأنهما شأن باقي الأوامر والنواهى.

ولكننـا نلاحظ التركيز على مسألة حفظ الفرج وغـض البصر في هذه الآية وفي آية الحجـاب المتقـدمة إذ أن من أهم حِكَـم فـرض الحجاب قطعَ الطـريق على العين مـن أن تنظـر إلى الأجنبيات ممـا قـد يؤدى إلى مفسدة أعظـم وهى الوقوع في الزنا فضلاً عـن أن نظر العين إلى مـاحرم عليها أن تنظـر إليـه يعتبر زنى بحد ذاته[٢] وهـذا التركيز على مـايبدو إنما هـو لما في غض البصر من فوائد عظيمة.

منها حلاوة الإيمان ولـذته التى هـى أطيب وألذ ممـاصرف بصره عنه وتركه لله تعالى فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه والنفس مولعة بحب النظـر إلى الصور الجميلة والعين رائد القلب وقـد يرسل القلب رائده فيَتعَب ويُتعِب رائده كما قيل:[٣]

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبـك يوماً أتعبتك المناظـر
رأيت الذي لاكله أنـت قــادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النور.

(٢) كما في حديث ابن عباس: إن الله كتب على ابن آدم حظـه من الزنا أدرك ذلك لامحالـة فـزنا العين النظـر... الحديث أخرجه البخـارى ١٣٩/٤ كتـاب الاستئـذان (٧٩) باب زنا الجوارح دون الفرج (١٢) برقم ٦٢٤٣
وأخرجه مسلم في صحيحـه ٢٠٤٦/٤ كتـاب القـدر (٤٦) باب قــدر على ابن آدم حظه من الزنا(٥) برقم ٢٦٥٧/٢٠

(٣) ذكر هذه الأبيات ابن القيم في إغاثة اللهفان ٤٧/١

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة فمن أطلق لحظاته دامت حسراته.

ومنها نور القلب وصحة الفراسة وقد قال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم (الله نور السمٰوٰت والأرض)[١] وسر هذا أن الجزاء من جنس العمل فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنس ماهو خير منه فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به مالم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى والله أعلم.

ومنها قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة كما أعطاه بنوره سلطان الحجة فيجمع له بين السانين كما قال تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[٢] فلا عز إلا في طاعة الله. وفى دعاء القنوت:[٣] "وإنه لايذل من واليت"[٤].

فالمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته قال تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم)[٥] ذكر الله تعالى ذلك عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح

---

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) جزء من الآية ٨ من سورة المنافقون.

(٣) القنوت: الطاعة والسكوت والدعاء والقيام في الصلاة وأقنت دعا على عدوه. القاموس المحيط مادة (القنوت) ص٢٠٢
والمراد هنا الدعاء في صلاة الوتر.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٩٩/١ وأبو داود في السنن ١٣٣/٢-١٣٤ كتاب الصلاة (٢) باب القنوت في الوتر (٣٤٠) رقم (١٤٢٥) وصححه الشيخ الألبانى في صحيح أبي داود ٢٦٧/١ برقم (١٢٦٣).

(٥) جزء من الآية ٢١ من سورة النور.

الـزانية فـدل على أن التزكـى يكـون باجتناب ذلك واجتنـاب ذلـك طهارة للقلب.(١)

والقلـب الطـاهر قلب موحد ولـذلك فـالقلب المشـرك لم يزك لأنه لم يطهـر بخلاف قلـب المؤمـن قـال تعـالى: (وويل للمشـركين الـذين لايؤتون الزكـٰوة).(٢)

قال ابن القيم رحمه الله: قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: وهى التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان هو الذى به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ماسوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء.(٣)

والقلـب الطـاهر قلب صادق مقبـل على الحق لايحرف كلام اللـــــه عز وجل من بعد مواضعه ولـذلك قـال تعـالى عمـن اتصـف بعكـس هـذه الصفات: (أولٰئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم)(٤) قال ذلك بعد قوله تعـالى: (سمّـٰعون للكـذب سمّـٰعون لقـوم ءاخرين لم يأتوك يحرفـون الكلم من بعد مواضعه).(٥)

والقلب الطاهر مقبل على ربه لايشبع من كلامه.

قال ابن القيم رحمه الله فالقلب الطاهر لكمال حيـاته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لايشبـع من القرآن ولايتغذى إلابحقـائقه ولا يتداوى إلا بأدويته بخلاف القلب الذى لم يطهره الله تعالى فـإنه يتغذى من الأغذية

---

(١) انظر إغاثة اللهفان ٤٦/١ إلى ٤٩

(٢) جزء من الآية ٦ وجزء من الآية ٧ من سورة فصلت.

(٣) إغاثة اللهفان ٤٩/١

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٥) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

التى تناسبه بحسب مافيه من النجاسة لأنه كالبدن العليل المريض لا تلائمه الأغذية التى تلائم الصحيح.(١)

وقد دل قوله تعالى: (أولٰئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) على أن قول الباطل وتحريف الحق سبب في عدم طهارةالقلب فإنه تعالى لم يرد(٢) أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق.(٣) وقد دلت الآية كذلك على أن من لم يطهر قلبه لابد أن يناله الخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه ولهذا حرم الله سبحانه وتعالى الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره فإنها دار الطيبين: (طبتم فادخلوها خٰلدين)(٤) أى ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، قال تعالى: (الذين تتوفٰهم الملٰئكة طيبين يقولون سلٰم عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)(٥) فالجنة لايدخلها خبيث ولا من فيه شيء من الخبث فمن تطهر في الدنيا ولقى الله طاهراً من نجاسته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينيه كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد مايتطهر في النار من تلك النجاسة(٦) ثم لايخرج منها حتى إن أهل الإيمان

---

(١) انظر إغاثة اللهفان ٥٥/١

(٢) لقد أمر الله عز وجل عباده بماتطهر به قلوبهم من توحيده واتباع أوامره واجتناب نواهيه وأراد ذلك منهم شرعاً، ولكنه لم يقع من فريق منهم ومعنى ذلك أنه لم يرده كوناً إذ أن الإرادة الكونية لايستلزمها الأمر فقد يأمر الله تعالى بما لم يرده كوناً وقدراً كإيمان من أمره ولم يوفقه له فيكون الإيمان هنا مراداً له دينا لاكوناً. انظر شفاء العليل ٢٨٠-٢٨١

(٣) انظر إغاثة اللهفان ٥٥/١

(٤) جزء من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٥) الآية ٣٢ من سورة النحل.

(٦) وهذا مقيد بمشيئة الله كما هو مذهب أهل السنة والجماعة في أهل الكبائر ==

إذا جاوزوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيهذبون وينقون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة ولم توجب لهم دخول النار حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.[١] والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى الجنة موقوفاً على الطيب والطهارة فلا يدخلها إلا طيب طاهر فهما طهارتان: طهارة البدن وطهارة القلب، ولهذا شرع للمتوضيء أن يقول عقب وضوئه: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين"[٢] فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه

(=) ممن مات ولم يشرك بالله عز وجل قال تعالى: (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) (النساء: ١١٦).

(١) كما جاء مصرحاً بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم:"يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا" أخرجه البخارى في صحيحه ١٩٨/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب القصاص يوم القيامة (٤٨) رقم الحديث (٦٥٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٩/١-٢١٠ كتاب الطهارة (٢) باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٦) رقم الحديث (٢٣٤/١٧) دون قوله "اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين".
وروى الحديث بهذه الزيارة الترمذى ٧٧/١-٧٨ كتاب الطهارة (١) باب فيما يقال بعد الوضوء(٤١) الحديث (٥٥) ثم قال: وهذا حديث في اسناده اضطراب، ولايصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء. وقد صحح حديث الترمذى بزيادته الشيخ الألبانى في صحيح سنن الترمذى١٨/١ برقم (٤٨).

ومناجاته.[١] والمقصود أن التوبة والعمل الصالح هما اللذان يحصل بها تطهير القلب قال تعالى: (خذ من أمولــهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٢] وهذا دليل على أن العمل الصالح يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فقد قاله تعالى بعد قوله: (وءاخرون اعترفوا بذنوبهم)[٣] فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهماالتطهير والتزكيــة[٤] ولعل فيما تقدم الكفاية والله أعلم.

---

(١) إغاثة اللهفان ٥٦/١

(٢) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) جزء من الآية ١٠٢ من سورة التوبة.

(٤) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٣٥/١٠

المبحث السابع والعشرون

السلامــة

السلام والسلامـة البراءة وتسلم منـه: تبرأ وقيـل: السلامـة العافية.[١]

قال تعالى: (ولاتخزنى يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).[٢]

وهـذه الآيات قـالها الله عـز وجل إخبـاراً عن قـول إبراهيم عليـه الصلاة والسلام طـالباً من ربه تبارك وتعالى أن لايخزيه يوم البعـث العظيم، ذلـك اليوم الذى لاينفع الإنسان فيه ماله ولا بنوه ولا ينفـع فيه إلا سلامة القلب.

روى عبدالرزاق[٣] بسنده عن قتادة في قوله تعالى: (بقلب سليم) قال: "سليم من الشرك".[٤]

وروى ابن جرير بسنده إلى محمد[٥] قيل له ماالقلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور.[٦]

وروى عــن مجاهــد (إلا مــن أتــى اللــه بقلــب ســـليم) قــال:

---

(١) اللسان عند مادة (سلم) ٢٨٩/١٢

(٢) الآيات ٨٧-٨٩ من سورة الشعراء.

(٣) هـو عبـدالرزاق بن همـام بن نافـع الحافـظ الكبير عـالم اليمــن أبوبكـر الحميرى الصنعـانى الثقة الشيعى له كتـاب في التفسير، توفى سنة ٢١١هـ. انظـر طبقـات ابن سعد ٥٤٨/٥، السير ٥٦٣/٩

(٤) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٧٤/٢

(٥) هـو محمـد بن سيرين كما في ابن كثير ٢٠/٧ وهـو الإمام شيـخ الإسلام أبوبكـر الأنصـارى البصـرى مولى أنس بن مـالك رضى الله عنه، ولـد لسنتين بقيتـا من خلافـة عمر رضى الله عنه سمـع بعض الصحابة، كان عالماً ورعـا حليمـا عابداً، توفى سنة ١١٠هـ رحمه الله. انظر السير ٦٠٦/٤، شذرات الذهب ١٣٨/١

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨٧/١٩

لاشك فيه.[١]

وروى كذلك عن الضحاك في قول الله: (إلا من أتى الله بقلب سليم) قال هو الخالص.[٢]

ومما سبق يتبين لنا أن سلامة القلب هى إخلاصه كله لله وتجرده من كل شائبة ومن كل مرض ومن كل غرض وصفاؤه من الشهوات والشبهات والانحرافات وخلوه من التعلق بغير الله.[٣]

وقال تعالى في آية أخرى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (إذ جاء ربه بقلب سليم).[٤] وهذه الآية أيضاً تفسرها الآثار السابقة في الآية الأولى والتى تبين أن المعنى هو السلامة من الشرك ومن كل شائبة. ومعنى مجيئه إلى ربه بقلبه أى أخلص قلبه لربه وجعله خالياً من كل شؤون الحياة الدنيا فلا غش لديه ولا حقد ولا شيء مما يشينه من العقائد الزائفة والصفات القبيحة.[٥] فهو إذاً أقبل على الله بقلب خالص صحيح.

فهذه الآية فيها صورة الاستسلام الخالص من خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام تتمثل في مجيئه لربه وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه.[٦]

وبهذا القلب السليم استذكر عليه الصلاة والسلام ماعليه قومه واستبشعه، استذكار الحس السليم لكل ماتنبو[٧] عنه الفطرة الصادقة من

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨٧/١٩

(٢) المرجع السابق نفسه

(٣) انظر في ظلال القرآن ٢٦٠٤/٥

(٤) الآية ٨٤ من سورة الصافات.

(٥) انظر تفسير المراغى ٦٩/٢٣، وتفسير الرازى ١٤٦/٢٦

(٦) انظر في ظلال القرآن ٢٩٩٢/٥

(٧) النبوة: هى ماارتفع من الأرض. انظر اللسان ٣٠٢/١٥ مادة (نبا).

تصور ومن سلوك.[١]

وبهذا القلب السليم سلم من غش الخلق وحسدهم وغير ذلك من مساوىء الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله وبدأ بأبيه وقومه فقال: (إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون).[٢][٣]

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٢٩٩٢/٥

(٢) الآية ٧٠ من سورة الشعراء.

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن ١٨٩/٦-١٩٠

المبحث الثامن والعشرون

الاطمئنـــان

الطمأنينة والاطمئنان السكون بعـد الانزعاج[١]، واطمئنان القلب أى سكونه واستقراره وهدوءه.

وهـذا الهدوء والسكينة أمر يطلبه الإنسان ويحرص عليــه ولكن لن يحصـل عليه إلا من سار في الطريق الصحيح إذ أن اطمئنـان القلب لايكون إلا من رب العباد فهو الذى يملك إعطاء ذلك.

وأصل السكينة في القلب ويظهر أثرها على الجوارح وهى على أقسام أعلاها وأخص مـراتبها سكينة الأنبيـاء ويليها مـايكون لأتباع الرسـل بحسب متـابعتهم وهى سكينة تسكن القلـوب عن الريب والشـك ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعـب المواطـن وأحوج مـاكانوا إليهـا (هـو الـذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمـٰنا مع إيمـٰنهم ولله جنود السمـٰوٰت والأرض وكـان الله عليمـا حكيما)[٢] وثمرة هـذه السكينة الطمأنينـة للخير تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً فلا تدع شبهة تعـارض الخبر ولاإرادة تعـارض الأمـر،فلا تمر معارضـات السوء بالقلب إلا وهـى مجتـازة من مرور الوساوس الشيطانية التى يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه ويعلـو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها فلا يظن المؤمن أنهـا لنقص درجته عند اللـه .ومن السكينة السكينة عند القيام بوظائف العبـودية وهى التى تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدى عبوديته بقلبه وبدنه،والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح

---

(١) المفردات عند مادة (طمن) ص٣٠٧

(٢) الآية ٤ من سورة الفتح.

نتيجة خشوع القلب.[١]

ولذلك حرص الصالحون على سؤال الله عز وجل السكينة فهاهو خليل الله ونبيه إبراهيم يقول: (رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى).[٢] فسؤال إبراهيم ربّه إراءَته كيف يحي الموتى لم يكن لعارض من الشيطان عرض في قلبه كمايرى ذلك ابن جرير رحمه الله.[٣] وإنما ليسكن إلى المعاينة والمشاهدة فإنه أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخبر ليس كالمعاينة.[٤] فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يجلى ويتكشف ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله ولكنه سؤال الكشف والبيان والتعريف بهذا الشوق وإعلانه والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم مع عبده الحليم المنيب.[٥]

وأما حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: (رب أرنى كيف تحي الموتى. قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي" [٦] فأحسن ماقيل فيه ماذكره ابن قتيبة[٧]

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب أعلام الموقعين ١٥٤/٤-١٥٥

(٢) جزء من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

(٣) كما في تفسيره ٥٠/٣

(٤) وبهذا قال عدد من المفسرين كالبغوى وابن كثير والقرطبى وابن عطية وغيرهم.

(٥) انظر في ظلال القرآن ٣٠٢/١

(٦) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٦٧/٢ كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب قول الله عز وجل: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه) الآية) رقم الحديث(٣٣٧٢)

(٧) هو العلامة الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب صاحب التصانيف =

والخطابي[1] بأنه ليس في قوله "نحن أحق بالشك من إبراهيم" اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لايشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس".[2] أو قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من جميع الأنبياء.[3] فمعنى ليطمئن قلبى إذا أى بيقين النظر فاليقين جنسان أحدهما يقين السمع والآخر يقين النظر. ويقين النظر أعلى اليقينين ولـذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المخبر كالمعاين".[4][5]

وقد ورد عن عدد من السلف أن المراد ليزداد يقينى كما أخرج ذلك الطبرى عن سعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم.[6]

وأخرج الطبرى عن ابن عباس بأن معنى قوله (ليطمئن قلبى) قال: أعلم أنك تجيبنى إذا دعوتك وتعطينى إذا سألتك.[7]

ولعل المراد به علم عين اليقين، وإلا فعلم اليقين مستقر في قلب إبراهيم. وعلى هذا يحمل ماورد بأن المراد:ليطمئن قلبى بالخلة .كما أخرج

(=) التي منها : غريب القرآن ، مشكل القرآن وغيرها مات سنة ست وسبعين ومئتين .
انظر السير ١٣/ ٢٩٦ ، شذرات الذهب ٢/ ١٦٩ - ١٧٠

(١) هو الإمام العلامة الحافظ اللغوى أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستى الخطابى صاحب التصانيف، ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة. وأخذ الفقه على المذهب الشافعى وله شرح الأسماء الحسنى، وكتاب الغنية عن الكلام وأهله والعزله وأعلام الحديث وغيرها، توفى سنة ٣٨٨هـ. انظر السير ١٧/ ٢٣، شذرات الذهب ٣/ ١٢٧-١٢٨

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٩٧-٩٨ وأعلام الحديث ٣/ ١٥٤٥-١٥٤٦

(٣) انظر فتح البارى عند شرح هذا الحديث ٦/ ٤١٢

(٤) تقدم تخريجه ص٧٤

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٩٧-٩٨

(٦) أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره ٣/ ٥٠-٥١

(٧) المرجع السابق نفسه.

ذلك الطبرى عن سعيد بن جبير والسدى.[١] والله أعلم.

وهذا اليقين -أى يقين النظر- هو الذى أراده الحواريون عندما طلبوا من نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء قال تعالى: (إذ قال الحواريون يٰعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشٰهدين)[٢] فهم أرادوا أن ينتقلوا من علم اليقين إلى علم عين اليقين.[٣] وهناك من يقول إن سؤال الحواريين لذلك كان من مرض خالط قلوبهم وشك في دينهم وتصديق رسولهم ولذلك سألوا ما سألوا من ذلك اختباراً.[٤] والله أعلم.

وهذا اليقين والسكون هو الذى عنى أيضاً بقوله تعالى: (وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به)[٥] قال ابن جرير رحمه الله: يعنى تعالى ذكره وماجعل الله وعده إياكم ماوعدكم من إمداده اياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم إلا بشرى لكم يعنى بشرى يبشركم بها ولتطمئن قلوبكم به، يقول: وكى تطمئن بوعده الذى وعدكم من ذلك قلوبكم فتسكن إليه ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم وقلة عددكم".[٦]

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤٩/٣

(٢) الآيات ١١٢،١١٣ من سورة المائدة.

(٣) انظر البغوى ٧٧/٢، والرازى ١٣٧/١٢، والتحرير والتنوير ١٠٥/٦

(٤) انظر جامع البيان ١٣٠/٧

(٥) جزء من الآية ١٢٦ من سورة آل عمران.

(٦) جامع البيان ٨٤/٤

ومثـل ذلـك قـوله تعـالى في سـورة الأنفـال: (إذ تستغيثـون ربكـم فاستجاب لكم أني ممد كم بألـف مـن الملـٰٓئكة مردفين ومـا جعلـه الله إلا بشـرى ولتطمئن به قلـوبكم ومـاالنصر إلا مـن عنـد اللـه إن اللـه عـزيز حكيم).[١]

وهـذه الآية -آية الأنفـال- كانت في غزوة بدر أمـد اللـه عز وجل المؤمنين بالملائكة فباشروا معهم القتال.

كمـا روى مسلم عن عمر بن الخطـاب رضى الله عنـه قـال: "لما كان يوم بدر نظـر رسـول الله صلى اللـه عليـه وسلم إلى المشـركين وهـم ألـف وأصحـابه ثلاثمائة وتسعة عشـر رجلاً فاستقبل نبي اللـه صلى الله عليه وسلم القبلـة ثم مـد يديه فجعل يهتـف بربه اللهم أنجز لى مـاوعدتنى اللهـم آت ماوعدتنى اللهم إن تهلك هـذه العصبـة من أهل الإسلام لاتعبـد في الأرض فمازال يهتف بربه ماداً يده مستقبل القبلة حتى سقط رداءه عن منكبيه فأتاه أبوبكـر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقـال: يانبى الله كفـاك منـاشدتك ربك فإنه سينجـز لك ماوعدك فأنزل اللـه عـز وجل (إذ تستغيثـون ربكـم فاستجاب لكـم أنى ممـد كم بألف من الملـٰٓئكة مـردفين) فأمده الله بالملائكة".[٢]

وروى أيضاً عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أَثَرِ رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسـوط فوقه وصـــــوت

---

(١) الآيتـان ٩ـ١٠ من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحـه ١٣٨٣/٣-١٣٨٤ كتـاب الجهـاد (٣٢) باب الإمـداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٨) رقم الحديث (١٧٦٣/٥٨).

الفـارس يقول: أقدم حيزوم فنظـر إلى المشرك أمامه خر مستلقيـاً فنظـر إليه فإذا هو قد خطـم[١] أنفـه وشق وجهه كضـربة السوط فاخضـر ذلك أجمع فجـاء الأنصـارى فحـدث بذلـك رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم فقـال: "صدقت ذلك مدد من السماء الثالثة".[٢]

وروى البخـارى عن رفاعة بن رافـع الزرقي[٣] رضى الله عنه قـال: "جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مـاتعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين -أو كلمة نحوها- قال: وكـذلك من شهد بدراً من الملائكة".[٤]

وروى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى اللـــــه عليـــه وسلم قـــال يوم بدر: "هـــذا جبريل آخذ برأس فـــرسه عليـــه أداة الحرب".[٥]

وأما قوله تعالى: (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكـم أن يمدكم ربكـــم

---

(١) الخطـم: السمة خطمت البعير إذا كويته خطا من الأنف إلى أحد خديه، وتسمـى تلك السمة الخطام. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (خطم) ٢/ ٥٠

(٢) أخرجه مسلم في صحيحـه ١٣٨٤/٣-١٣٨٥ كتـاب الجهـاد (٣٢) باب الإمـداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٨) رقم الحديث (١٧٦٣/٥٨).

(٣) هو رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عـامر بن زريق الأنصارى الخزرجى الزرقى أبومعاذ وأمه أم مالك بنت أبي بن سلول شهد هو وأبوه العقبة وبقيـة المشاهد وهو من أهل بدر روى عـن النبي صلى اللـه عليه وسلم أحاديث، مـات سنة ٤١هـ، وقيل سنة ٤٢هـ. انظـر الإصابة ٥٠٣/١ برقـم (٢٦٦٤) الاستيعـاب ٤٨٩/١

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٩٠/٣ كتاب المغازى (٦٤) باب شهـود الملائكة بدراً (١١) رقم الحديث (٣٩٩٢).

(٥) المرجع السابق نفسه ورقم الحديث (٣٩٩٥).

بثلـٰثة ءالـٰف مـن الملـٰٓئكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقـوا ويأتوكـم مـن فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة ءالـٰف من الملـٰٓئكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ومالنصر إلا من عنـد الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين).[١]

فقـد اختلف المفسرون في هـذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين:

الأول: أن قـوله تعالى: (إذ تقـول) متعلق بقوله (ولقـد نصـركم الله ببـدر) وروى هـذا عـن الحسـن البصـرى وعـامر الشعبى[٢] واختـاره ابن جرير[٣] والبخارى[٤] وابن كثير[٥] رحم الله الجميع.

والثانى: أن هـذا الوعد متعلق بقـوله تعالى: (وإذ غـدوت مـن أهلك تبوىء المؤمنين مقـٰعد للقتال)[٦] وذلك يوم أحد، وروى ذلـك عـن

---

(١) الآيات ١٢٤-١٢٧ من سورة آل عمران.

(٢) أخرج أثري الشعبي والحسن البصرى ابن جرير في تفسيره ٧٦/٤
وقـد قال ابن حجر عن أثر الشعبي: رواه ابن أبي حاتم بسنـد صحيح إلى الشعبي كمـا في الفتح ٢٥٨/٧ والأثر في تفسير ابن أبي حاتم ٥٢٠/٢ برقـم (١٣٥٠) وقد صحح محقق هذا الجزء فضيلة الدكتور حكمت بشير ياسين إسناده أيضاً.
وأخرج ابن أبي حاتم أثر الحسن أيضا ٥١٩/٢ برقم (١٣٤٧).

(٣) انظر جامع البيان ٧٩/٤-٨٠

(٤) ويدل على اختيار البخارى لذلك أنه ذكر هذه الآيات تحت باب قصة غزوة بدر. انظـر صحيـح البخارى ٨٢/٣ كتـاب المغـازى (٦٤) باب قصـة غـزوة بدر (٣). وقـد قـال ابن حجـر بعـد أن ذكـر صنيـع البخـارى وهو المعتمـد. انظـر الفتـح (٢٨٦/٧).

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم ٩٣/٢-٩٤ وقد ذكر ابن كثير رحمه الله أن التنصيص على الألـف في سـورة الأنفـال لاينـافى الثلاثة الآلاف فمـا فـوقها لقـوله تعـالى: (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم.

(٦) جزء من الآية ١٢١ من سورة آل عمران.

عكرمة[١] والضحاك[٢] لكنهما قالا لم يحصل الإمداد لأنه كان وعداً مشروطاً بالصبر والتقوى فلما لم يتحقق الشرط لم يحصل الإمداد.

قال ابن جرير: ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ولا على أنهم لم يمدوا بهم وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو مارواه الذين أثبتوا أنه أمدهم وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة آلالاف وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم به الحجة، ولا خبر به كذلك. إلى أن قال: وأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينال منهم مانيل منهم.[٣]

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] رحمه الله أن هذه الآيات في قصة أحد لقوله تعالى بعد ذلك: (ليقطع طرفاًمن الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا

---

(١) هو العلامة الحافظ المفسر أبو عبدالله القرشي مولاهم المدنى البربرى الأصل حدث عن ابن عباس وعائشة وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة وحدث عنه خلق كثير وأثنى عليه كبار العلماء كالإمام أحمد ويحي بن معين العجلى والبخارى والنسائى وغيرهم، مات سنة ١٠٤هـ بالمدينة. انظر السير ١٢/٥، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧

(٢) كما روى ذلك ابن جرير في تفسيره ٧٩/٤

(٣) جامع البيان ٧٩/٤-٨٠

(٤) هو الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن أحمد بن عبدالحليم ابن الشيخ الإمام أبي البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ثم الدمشقى من أسرة ذات علم وفضل برع في شتى العلوم وله مصنفات كثيرة نافعة منها: منهاج السنة، درء تعارض العقل والنقل، الاستقامة وغيرها، توفى سنة ٧٢٨ بقلعة دمشق التى كان محبوساً فيها. انظر البداية والنهاية ١٤١/٤، شذرات الذهب ٨٠/٦

خائبين)[١] ولأنه وعد مقيد.

ثم قال رحمه الله وقوله فيه: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) يقتضي خصوص البشرى بهم.

وأما قصة بدر فإن البشرى بها عامة.[٢]

والذى يظهر أنه على كلا القولين فإن الإمداد بالثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف لم يتم لعدم وجود دليل على أنهم أمدوا بذلك والآية ليس فيها دلالة على ذلك، والثابت أنهم أمدوا يوم بدر بألف والله أعلم.

والمقصود أن ذلك الإمداد الذى أمد به المسلمون يوم بدر والذى وعدوا به يوم بدر أو يوم أحد إنما كان المقصود به تبشير المؤمنين بالنصر وعناية الله بهم وتطمين قلوبهم وإلا فالنصر من عند الله عز وجل وحده فهو قادر على نصرهم ولو لم يرسل معهم أى ملك ومن هنا تتبين لنا أهمية اطمئنان القلب فهو عامل عظيم من عوامل النصر على الأعداء لايكون إلا للمؤمن المتقى الصابر ولذلك فوجوده دليل وعلامة على رسوخ إيمان صاحبه ولذلك فإن من اطمأن قلبه بالإيمان لابأس عليه فيما أكره عليه من النطق بكلمة الكفر أو غير ذلك مماهو ممنوع شرعاً منه قال تعالى: (من كفر بالله من بعد إيمٰنه إلامن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمٰن ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)[٣] فأخبر تعالى أن من كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليهم لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه وأن لهم عذاباًفي الدارالآخرة

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة آل عمران.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٥/٣٧-٣٨

(٣) الآية ١٠٦ من سورة النحل.

ثم استثنى مـن كفر بلسانه ووافـق المشركين بلفظه مكـرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى مايقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.(١)

روى ابن جرير عـن ابن عبـاس قـوله: "إلا مـن أكــرهوقلبـه مطمئن بالإيم " فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه فعليـه غضب من الله ولـه عذاب عظيم فأما من أكره فتكلم به لسـانه وخالفه قلبـه بالإيمان لينجـو بذلك من عدوه فلا حرج عليه لأن الله سبحانه إنما يأخذ العبـاد بما عقدت عليه قلوبهم".(٢)

وقـد مدح الله عز وجل المؤمنين الذين اطمأنت قلـوبهم بذكره فقال تعـالى: (الـذين ءامنـوا وتطمئن قلـوبهم بذكـر اللـه ألا بذكـر اللـه تطمئن القلوب)(٣) ومعنى تطمئن قلـوبهم بذكـر الله أى تسكن قلـوبهم وتستـأنس بذكر الله.(٤)

وقـد روى ابن جرير هـذا المعنى عـن قتـادة قولـه: (وتطمئن قلـوبهم بذكر الله) يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به.(٥)

وهنـاك من قال إن قوله تعـالى: (وتطمئن قلوبهم بذكـر الله) عنى به قلـوب محمـد صلى الله عليـه وسلم وأصحابه، كما روى ذلـك الطبرى عـن مجاهد وسفيان بن عيينة.(٦)

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٥٢٤/٤-٥٢٥
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٨٢/١٤
(٣) الآية ٢٨ من سورة الرعد.
(٤) انظر جامع البيان ١٤٥/١٣
(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤٥/١٣
(٦) انظرجامع البيان ١٤٥/١٣

وقد عزا البغوى[١] إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: هذا في الحلف، يقول: إذا حلف المسلم بالله على شيء تسكن قلوب المؤمنين إليه.[٢]

وقد ورد مثل هذا عن سفيان بن سعيد الثورى.[٣]

ويحسن بنا أن نختم هذا المبحث بذكر أسباب السكينة كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله قال: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالايحصل بدونها فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذى قيامها به.[٤]

---

(١) هو الشيخ الإمام العلامة القدوة الحافظ محي السنة أبومحمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر صاحب التصانيف كـ "شرح السنة" و "معالم التنزيل" و "المصابيح " وغيرها، توفي سنة ٥١٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٣٩/١٩، شذرات الذهب ٤٨/٤-٤٩

(٢) معالم التنزيل ١٧/٣

(٣) انظر تفسير سفيان الثورى ص١٥٣

(٤) أعلام الموقعين ١٥٦/٤
ولابن القيم كلام نفيس في الطمأنينة ينبغى الرجوع إليه وذلك في كتابه الروح من ص٢٩٥ إلى ٣٠١

المبحث التاسع والعشرون

اللـين

اللين: ضد الخشونة ويستخدم في المعاني والأجسام[١] قال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).[٢]

وهـذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمـن العزيز الغفار لما يفهمـون مـن الوعد والوعيـد والتخـويف والتهديد فتقشعـر جلـودهم مـن الخشيـة والخوف (ثم تلين جلـودهم وقلـوبهم إلى ذكـر اللـه) لما يرجون ويؤملـون مـن رحمته ولطفه فهـم مخالفـون لغيرهم مـن الكفـار من وجوه:

أحدها: أن سمـاع هـؤلاء هو تلاوة القـرآن. وسمـاع أولئـك نغمات الأبيات وأصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجـدا وبكيا بأدب وخشيـة ورجاء ومحبة وفهم وعلم ولم يكـونوا عند سمـاعها متشـاغلين لاهين عنهـا بل مصغين إليهـا فـاهمين متبصـرين بمعـانيها فلهـذا إنما يعملـون بهـا ويسجدون عندها عن بصيرة لاعن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلتزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضى الله عنهـم عند سماعهم كلام اللـه من تلاوة رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله لم يكـونوا يتصارخون ولا يتكلفون ماليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالقدح المعلى[٣] في الدنيا

(١) المفردات ص٤٥٧ عند مادة (لين) وكذلك لسان العرب ١٣/٣٩٤-٣٩٥

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

(٣) المعلى بفتح اللام القدح السابع في الميسر وهو أفضلها إذا فاز حاز ==

والآخرة.[١]

قـال قتادة رحمه الله عند هـذه الآية: "هذا نعت أوليــاء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتبكى أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان.[٢]

وفي سبب القشعريرة واللين ثلاثة أقوال:[٣]

أحدها: أنها تقشعر من وعيده وتلين من وعده.

الثانى: أنها تقشعر من الخوف وتلين من الرجاء.

الثالث: تقشعر الجلود لإعظامه وتلين عند تلاوته.

وعدى الفعل تلين بإلى لتضمينه معنى السكون والاطمئنان.[٤]

(=) سبعة أنصباء من الجزور، وأريد بهذا التعبير إظهار عظم فوزهم في الدنيا والآخرة. انظر اللسان عند مادة (علا) ٩١/١٥

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٨٥/٧

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١٧٢/٢

(٣) انظر النكت والعيون ٤٦٧/٣

(٤) تفسير البيضاوى ٣٢٤/٢

المبحث الثلاثون

الصبر

الصبر الحبس صبره عنه يصبره: حبسه.[١]

وأما حقيقته فهو خلق فاضل ووصف من أوصاف القلوب السليمة يمنع من فعل مالايحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها.[٢] وهو من أعظم أوصاف القلوب السليمة لأن الإيمان كما قيل نصفان نصف صبر ونصف شكر.[٣]

لأن المؤمن إما أن يكون في سراء فيجب عليه أن يشكر أو في ضراء فيجب عليه أن يصبر، وحتى الشكر فإنه يحتاج إلى الصبر في استمراره وعدم انقطاعه من العبد لخالقه ومولاه.

ولذلك فالله عز وجل يعطى على الصبر مالا يعطى على غيره قال تعالى: (إنما يوفى الصـٰبرون أجرهم بغير حساب).[٤]

وهو ثلاثة أنواع:[٥]

أحدها: الصبر عن المحرمات.

الثانى: الصبر على أداء الواجبات.

الثالث: على المصائب التى لاصنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

والأول والثاني أكمل وأعلى من الثالث لأن الثالث يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لايتأتى منه سابقاه. ولذلك كان صبر يوسف الصديق عن

---

(١) انظر: اللسان عند مادة (صبر) ٤/٤٣٨، القاموس المحيط عند مادة (صبر) ص٥٤١

(٢) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٩

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٤/٦٣ وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣

(٤) جزء من الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٥٠

مطـاوعة امرأة العزيز وصبره على ماناله في ذلك من الحبـس والمكروه أعظم من صبره على ماناله من إخوته لما ألقـوه في الجب وفـرقوا بينـه وبين أبيـه وباعوه بيع العبيد".[١]

وقـد جاء ذكر الصبر في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، فيهـا الثناء على الصابرين وذكر مالهم من درجات وخيرات.

فأخبر تعالى أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين فقال تعالى: (واصبروا إن الله مع الصـٰبرين)[٢] فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة.

وجعـل سبحانه الأمامة في الـدين منوطة بالصبر واليقين فقـال تعـالى وبقـوله اهتدى المهتدون (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمـرنا لما صبروا وكانوا بآيـٰتنا يوقنون).[٣]

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين فقال تعـالى: (ولئن صبرتم لهو خير للصـٰبرين).[٤]

وأخبر أن مـع الصبر والتقوى لايضر كيد العدو ولـو كان ذا تسليط فقال تعالى: (وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط).[٥]

وأخبرعـن نبيـه يوسـف الصـديق أن صبره وتقـواه أوصلاه إلى محل العز والتمكين فقال: (إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجرالمحسنين)[٦]

---

(١) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٥٣

(٢) جزء من الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٢٤ من سورة السجدة.

(٤) جزء من الآية ١٢٦ من سورة النحل.

(٥) جزء من الآية ١٢٠ من سورة آل عمران.

(٦) جزء من الآية ٩٠ من سورة يوسف.

وأخبر عن محبته لأهل الصبر فقال تعالى: (والله يحب الصٰبرين)[١] وبشرهم بثلاث كل منها خير مماعليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى: (وبشر الصٰبرين الذين إذا أصٰبتهم مصيبة قالوا إنا الله وإنا اليه رٰجعون أولٰئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولٰئك هم المهتدون).[٢]

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين فقال تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلٰوة وإنها لكبيرة إلا على الخٰشعين).[٣]

وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لايحظى به إلا الصابرون فقال تعالى: (إنى جزيتهم اليوم بما صبر أنهم هم الفائزون).[٤]

وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لاينالها إلا أولوا الصبر المؤمنون فقال تعالى: (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صٰلحاً ولا يلقٰها إلا الصٰبرون).[٥]

وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتى هى أحسن تجعل المسىء كأنه ولي حميم فقال: "ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عدوة كأنه ولى حميم)[٦] وأن هذه الخصلة (ومايلقٰهاإلا الذين صبروا ومايلقٰها إلا ذو حظ عظيم).[٧]

وأخبر سبحانه خبراً مؤكداً بالقسم (إن الإنسٰن لفى خسر إلا الذين

---

(١) جزء من الاية ١٤٦ من سورة آل عمران.
(٢) جزء من الآية ١٥٥ والآيتان ١٥٦-١٥٧ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة.
(٤) الآية ١١١ من سورة المؤمنون.
(٥) الآية ٨٠ من سورة القصص.
(٦) الآية ٣٤ من سورة فصلت.
(٧) الآية ٣٥ من سورة فصلت.

ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).[١]

وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر فقال تعالى: (إلا الذين صبروا وعملوا الصٰلحٰت أولئك لهم مغفرة وأجر كبير).[٢]

وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون فقال: (واصبر لحكم ربك فإنك باعيننا)[٣] وقال: (واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).[٤][٥]

والآيات في الصبر أكثر من أن تحصى في هذا المقام والله المستعان.

---

(١) الآيتان ٢ و٣ من سورة العصر.
(٢) الآية ١١ من سورة هود.
(٣) جزء من الآية ٤٨ من سورة الطور.
(٤) الآيتان ١٢٧-١٢٨ من سورة النحل.
(٥) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين من ١٨ إلى ٢١

المبحث الحادى والثلاثون

الربـط

ربط الشــىء شـده، والرباط الفـؤاد كـأن الجسم ربط به ورجل رابط الجأش وربيط الجأش أى شـديد القلـب كـأنه يربط نفسـه عـن الفرار يكفها بجرأته وشجـاعته وربط جأشـه رِباطةً: اشتد قلبه ووثق وحزم فلم يفـر عنـد الروع وربط الله على قلبه بالصبر أى ألهمه الصبر وشده وقواه.(١)

قـال تعالى: (إذ يغشيكم النعـاس أمنة منه وينزل عليكـم مـن السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكـم رجز الشيطــن وليربط على قلـوبكم ويثبـت به الأقدام).(٢)

وعدى الربط هنا بعلى للإيذان بأن قوة قلوبهم بلغـت في الكمال إلى أن صـارت مستولية على القلـوب حتى صارت كأنها علـت عليهـا وارتفعت فوقها أى فتفيد التمكن في القوة.(٣)

وهـذه الآية في معرض الامتنان من الله عز وجل على عبـاده المؤمنين بما أنعم به عليهم في غزوة بدر مما كان له أكبر الأثر في الربط على قلوبهم وتثبيت أقدامهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل النبي صلى اللـه عليه وسلم يعنى حين ســار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملـة دعصة(٤)، فأصاب المسلمين ضعـف شـديد وألقـى الشيطـان في قلوبهم الغيـظ فـوسوس بينهـم

---

(١) اللسان عند مادة (ربط) ٣٠٣/٧

(٢) الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٣) انظر الفتوحات الإلٰهية ٢٣١/٢ وانظر كذلك تفسير الخازن ١٣/٣

(٤) الـدِّعص بالكسر قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه. انظـر القاموس المحيط عند مادة (دعص) ص٧٩٨

تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه بألف من الملائكة فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنبه وميكائيل في خمسمائة مجنبة.(١)

قال الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية (وليربط على قلوبكم) أى: بالصبر على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر.(٢)

والضمير في (به) يجوز أن يكون للربط لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم من مواطن القتال.(٣)

ومن آيات الربط على القلب قوله تعالى: (إنهم فتية ءامنوا بربهم وزدنٰهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوٰت والأرض لن ندعوا من دونه إلٰها لقد قلنا إذاً شططا).(٤)

وهذه الآية في شأن أصحاب الكهف يبين الله عز وجل فيها أنه ربط على قلوبهم أى شدها بالصبر والتثبيت وقواها بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ماكانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف.(٥)

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٩٥/٩

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٦٥/٣

(٣) الكشاف ١٤٧/٢

(٤) جزء من الآية ١٣ والآية ١٤ من سورة الكهف.

(٥) تفسير الخازن ٢٠٣/٤-٢٠٤

ويؤخذ مـن هذه الآية الكـريمة أن المؤمن أحوج شـيء إلى أن يربط الله على قلبه ولولا ذلك الربط افتتنوا.(١)

وقال تعالى: (وأصبح فؤاد أم موسى فـٰرغاً إن كـادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين).(٢)

وهـذه الآية الكـريمة تصـور لنـا حالة أم موسى عنـدما فقـدت إبنها موسى وتبين كذلك نعمة اللـه عـز وجل عليهـا بتثبيـت قلبهـا وتوفيقهـا للسكوت بعد أن التقطه فرعون.

وقد أخرج الطبرى عن قتادة قال: قال الله: (لولا أن ربطنـا على قلبها) أى بالإيمان (لتكون من المؤمنين).(٣)

وأخرج كـذلك عن السدى قال: كادت تقول هو ابنى فعصمهـا الله، فذلك قول الله تعالى: (إن كـادت لتبدى به لولا أن ربطنـا على قلبهـا).(٤)

وممـا سبـق يتبين لنا أن الـربط هـو الشدة والتقـوية للقلـب بالإيمان والصبر واليقين وأن المؤمـن أحوج مـايكون إلى ذلـك في مـواطن الشدائد والمحن وأن المعطى لذلك والمعين عليه هو الله عز وجل وحده.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص٢٤٣

(٢) الآية ١٠ من سورة القصص.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٨/٢٠

(٤) المرجع نفسه.

المبحث الثاني والثلاثون

الإخلاص[(١)]

وهو إرادة الله عز وجل وحده بالعمل والانقطاع عن كل ماسواه.

وهو من أعظم أعمال القلوب أمر الله به الأولين والآخرين فقال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)[(٢)] وقال تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتٰب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين. ألا لله الدين الخالص).[(٣)] وأعظم الإخلاص ماكان في العبادة كما في الآيات السابقة وأمثالها مما في كتاب الله عز وجل من الآيات التى فيها تجريد التوحيد وتحقيقه وقطع ملاحظة مايعيق عن ذلك في العبادة والاستغاثة والدعاء والمسألة والتوكل والرجاء والخشية والتقوى والإنابة ونحو ذلك مما هو من خصائص حق الربوبية التى لاتصلح لملك مقرب ولا نبي مرسل.[(٤)]

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتٰب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين): أى فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لاتصلح العبادة إلاله وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال "ألا لله الدين الخالص" أى لايقبل من العمل إلا ماأخلص فيه العامل لله وحده لاشريك له.[(٥)]

---

(١) مما لاشك فيه أن الإخلاص شأنه عظيم ومنزلته عاليه وقد أخرته فى الذكر لكونه يدخل في جميع الأصاف القلبية السابقة وقد تقدم الكلام عليه كثيراً ضمن المباحث السابقة وتم إفراده بمبحث مستقل زيادة في الاهتمام والله الموفق.

(٢) جزء من الآية (٥) من سورة البينة.

(٣) الآية (٢) وجزء من الآية (٣) من سورة الزمر.

(٤) انظر الاستقامة ٢٥/٢

(٥) تفسير القرآن العظيم ٧٤/٧

ولهـذا جاء فى الحديث الصحيح أن الله تبارك وتعـالى قال: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتـه وشركه".[١]

ومما ينافي الإخلاصَ الرياءُ والحلفُ بغير الله والتسـويةُ بين الله عز وجل والمخلـوق بالمشيئة مثل أن يقول: ماشاء الله وشـاء فلان وكذا قوله: مالى إلا الله وأنت وكذلـك مـايقدح في التـوحيد وفي تفـرد اللـه سبحـانه وتعالى بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة وإتيان الكهـان وتصديقهم بما يقـولون وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنـه ولهذا أطلق الشرع على كثير مـن الذنوب التى منشـؤها اتباع الهوى أنهـا كفر وشرك وقد قال تعالى: (أرءيت من اتخذ إلـٰهه هوه أفانت تكون عليه وكيلاً).[٢]

وقال صلى الله عليه وسلم: "تعس عبدالدينار، تعـس عبدالدرهم تعس عبـدالخميصة تعـس عبد الخميلـة تعس وانتكس وإذا شيـك فلا انتقـش".[٣]

فـدل هذا على أن كل من أحب شيئـاً وأطاعه وكـان من غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبودة وإلـٰهه وقد سمى الله عز وجل طاعة الشيطان عبادة كما في قـوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يـٰبنى ءادم أن لاتعبدوا الشيطـٰن إنه لكـم عدو مبين)[٤] فمن لم يحقق عبودية الرحمـن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له.[٥]

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٨٩/٤، كتاب الزهد (٥٣) باب تحريم الرياء (٥) رقم الحديث (٢٩٨٥/٤٦).

(٢) الآية (٤٣) من سورة الفرقان.

(٣) تقدم تخريجه ص (٣٠)

(٤) الآية (٦٠) من سورة يس.

(٥) انظر الدين الخالص ١٦٢/١-١٦٣

الفصل الثانى
أسباب سلامة القلب

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: إرادةُ الله تعالى الكونية وفضلُه ومِنَّتُه على أصحاب القلوب السليمة.

المبحث الثاني: سلامةُ العقيدة.

المبحث الثالث: تحقيقُ الخوف من الله جل وعلا.

المبحث الرابع: شعائرُ الإسلام وعباداته الظاهرة.

تمهيـــد:

إن سلامـة القلب وطهارته مـن أهم وظائف الرسـل التى أرسلوا من أجلهـا ولذلك فقد بذل النبي صلى اللـه عليه وسلم جهـداً عظيماً في ذلك لما له من أهمية عظمى في بناء المجتمع المسلم.

والـذى شرع الغاية لم ينس الوسيلة ولذلك فقـد شرع الله عز وجل وسائل تطهير القلوب وبينها نبينا محمد صلى الله عليــه وسلم ولذلك فليس لتطهير القلوب غيرُ ماشرع الله وبين نبيه صلى الله عليه وسلم.

(إن هذا القرءان يهدى للتي هى أقوم ويبشر المؤمنين الـذين يعملون الصٰلحٰت أن لهم أجراً كبيرا).[١]

قـال سيـد قطـب رحمه اللـه تعـالى عنـد هذه الآية هكـذا على وجه الإطلاق فيمـن يهـديهم وفيمـا يهـديهم فيشمـل الهدى أقـواماً وأجيـالاً بلا حدود مـن زمان أو مكان، ويشمـل مايهديهم إليه كـل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدى إليه البشر في كل زمان ومكان.

يهـدى للتى هى أقوم في عالم الضمير والشعـور[٢] بالعقيدة الواضحـة البسيطة التى لاتعقيـد فيهـا ولا غمـوض والتى تطلـق الـروح مـن أثقال

---

(١) الآية ٩ من سورة الإسراء.

(٢) لعـل مـراد سيد قطب رحمه اللـه أن القرآن يهدى للتى هـي أقـوم فيما يعتقده الشخـص ويدركـه ويهدى كذلـك إلى تصور الأشياء تصـوراً صحيحـاً عند تعذر إدراكها.

الوهم والخرافة وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدى للتى هى أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبين مشاعره وسلوكه وبين عقيدته وعمله فإذا هى كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التى لاتنفصم، ومتطلعة إلى أعلى وهى مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

ويهدى للتى هى أقوم فى علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التى لاتتأثر بالرأى والهدى ولا تميل مع المودة والشنآن، ولاتصرفها المصالح والأغراض، الأسس التى أقامها العليم الخبير لخلقه وهو أعلم بمن خلق وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل فيهديهم للتى هى أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان.(١)

قال تعالى: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).(٢)

ولذلك فلو استقر ينا الإسلام كله عقائد وأحكاماً لوجدنا أنه أقوم طريق لتطهير القلوب وسلوك طريق السلامة بها.

وقبل أن أشرع في بيان ذلك لابد من تقديم مبحث مهم جداً يدل على أن الهداية والضلال بيد الله عز وجل يهدى من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته ليكون ذلك المبحث هو المبحث الأول في هذا الفصل ثم تليه المباحث الأخرى التى سوف أحاول فيها إن شاء الله أن أبين باختصار أن الإسلام عقائد وأحكاماً هو السبيل الوحيد لسلامة القلب.

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢١٥/١٥

(٢) الآية ١٤ من سورة الملك.

المبحث الأول

إرادة الله عز وجل الكونية وفضله ومنته على أصحاب القلوب السليمة

إن الإيمان بقدر الله عز وجل الذى قدره قبل أن يخلق السموات والأرض ركن من أركان الإيمان لايتم إلا به كما في حديث جبريل المشهور(١)

وقد شاءت إرادة الله تعالى الكونية(٢) أن ينقسم الناس إلى **قسمين: أهل سعادة، وأهل شقاوة.**

عن علي بن أبي طالب(٣) رضى الله عنه قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة(٤)،

---

(١) حديث جبريل وفيه: وتؤمن بالقدر خيره وشره، أخرجه البخارى في الصحيح ٣٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم برقم (٥٠) ومسلم في الصحيح ٤٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) الحديث رقم ١٠/٧

(٢) قسم أهل العلم الإرادة إلى قسمين:
١- إرادة كونية وهي المشيئة وهى المرادة هنا.
٢- وإرادة دينية وهى تتعلق بالمحبة والرضا. انظر شفاء العليل ص٤٨

(٣) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي أول من أسلم من الصبيان، ولد قبل البعثة بعشر سنين فربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك، تزوج من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولد له سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً تولى الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه وقتل شهيداً بيد الشقي عبدالرحمن بن ملجم سنة ٤٠هـ رضي الله عنه. انظر صفة الصفوة ٣٠٨/١، الإصابة ٥٠١/٢

(٤) المخصرة: هي مايختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا، أو عكازة، أو مقرعة، أو قضيب، وقد يتكىء عليه. انظر النهاية ٣٦/٢ مادة (خصر).

فنكس فجعل ينكت[١] بمخصرته ثم قال: "مامنكم من أحدٍ، مامن نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة" فقال رجل: يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: "أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى) الآية[٢]"[٣]

والذى عليه أهل السنة والجماعة في هذا الباب أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأنه تعالى خلق أفعال العباد، قال تعالى: (إنا كل شيء خلقنه بقدر)[٤] وقال تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)[٥] وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه فيشاؤه كونا ولا يرضاه ديناً.[٦]

ومن الأدلة على ذلك أيضاً قوله تعالى: (ولو شئنا لأتينا كل نفس هدلها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)[٧] والمقصود بالهداية في هذه الآية هداية التوفيق.[٨]

---

(١) ينكت بمخصرته: أي يضرب بطرفها الأرض. انظر النهاية٥/١١٣ عند مادة (نكت).
(٢) الآية ٥ من سورة الليل.
(٣) أخرجه البخارى في الصحيح ٤١٨/١ كتاب الجنائز (٢٣) باب موعظة المحدث عند القبر (٨٢) برقم ١٣٦٢ ومسلم في الصحيح ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر (٤٦) باب كيفية الخلق الآدمي (١) الحديث رقمه ٢٦٤٧/٦
(٤) الآية ٤٩ من سورة القمر.
(٥) جزء من الآية ٢ من سورة الفرقان.
(٦) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفى ص٢١٧-٢١٨ تحقيق الألبانى ص٢٧٧
(٧) الآية ١٣ من سورة السجدة.
(٨) الهداية أربع مراتب: هداية التقدير، وهداية الإرشاد، وهداية التوفيق، والهداية إلى الجنة والنار. انظر شفاء العليل من ص٦٥-٨٥

وقوله تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)(١) وقوله تعالى: (وما تشاءُون إلا أن يشاء الله رب العٰلمين)(٢) وقوله تعالى: (وماتشاءُون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً)(٣) وقوله تعالى: (من يشإِ الله يضلله ومن يشأْ يجعله على صرٰط مستقيم)(٤) وقوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهدية يشرح صدره للإسلٰم ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء).(٥)

ومن السنة حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه السابق وحديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو الصادق المصدوق- قال: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالله إن أحدكم -أو الرجل- ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها".(٦)

---

(١) الآية ٩٩ من سورة يونس.

(٢) الآية ٢٩ من سورة التكوير.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

(٤) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأنعام.

(٥) جزء من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٦) أخرجه البخارى في الصحيح ٢٠٨/٤ كتاب القدر (٨٢) باب (١) برقم ٦٥٩٤، ومسلم في الصحيح ٢٠٣٦/٤ كتاب القدر (٤٦) باب كيفية الخلق الآدمى (١) برقم ٢٦٤٣/١

وعن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال: أتدرون ماهذان الكتابان؟ قال قلنا: لا إلا أن تخبرنا يارسول الله قال للذى في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لايزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ثم قال للذى في يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لايزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أى عمل وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل ثم قال بيده فقبضها ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ثم قال باليمنى فنبذها فقال: فريق في الجنة ونبذ باليسرى فقال: فريق في سعير.[(١)]

وعلى هذا فمن أراد الله عز وجل له قدراً سلامة القلب فإن قلبه سوف يسلم بمشيئة الله عز وجل ومن لم يرد الله له ذلك فلن يملك هو لنفسه ذلك ولن يملك له غيره ذلك.

قال تعالى: (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمٰن وزينه في قلوبكم وكره إليكم

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٦٧/٢، والترمذى في سننه وقال: حسن صحيح ٤٤٩/٤-٤٥٠ كتاب القدر (٣٣) باب ماجاء أن الله كتب كتاباً (٨) برقم ٢١٤١

وقال الألبانى: إسناده حسن في السلسلة الصحيحة ٥٢٨/٢ برقم ٨٤٨

الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الرُشدون)[١]

قال الشيخ الأمين[٢] رحمه الله عند هذه الآية: ماذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وذكر عدداً من الآيات التى سبق ذكرها.[٣]

وقال تعالى: (إن الذين يغضون أصوٰتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم).[٤]

قال صاحب الظلال رحمه الله: فالتقوى هبة عظيمة يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار وبعد تخليص وتمحيص فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها وقد ثبت أنه يستحقها والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقي تلك الهبة هبة التقوى وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم.[٥]

---

(١) الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٢) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي مفسر ومدرس من علماء شنقيط حفظ القرآن وعمره عشر سنوات وأخذ عن مشائخه النحو والصرف والأصول والبلاغة وبعض التفسير والحديث استقر مدرساً في المدينة النبوية ثم الرياض وأخيراً بالجامعة الإسلامية بالمدينة، توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٣هـ رحمه الله تعالى.
انظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي بقلم الشيخ عطيه محمد سالم المطبوعة في الجزء الأول من أضواء البيان،والأعلام ٤٥/٦

(٣) انظر أضواء البيان ٦٢٨/٧

(٤) الآية ٣ من سورة الحجرات.

(٥) في ظلال القرآن ٣٣٤٠/٢٦

وقال تعالى عن المنافقين واليهود الذين تألبوا على الكذب والاضطراب في معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم: (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزى ولهم في الأخرة عذاب عظيم).(١)

والإرادة في هذه الآية كونية قدرية.

نسأل الله عز وجل أن يهدينا وأن يصلح قلوبنا بفضله ورحمته.

---

(١) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

المبحث الثانى

سلامـة العقيـدة

إن سلامـة العقيدة أعظم أسبـاب طهر القلب ونقـائه، وكيف لايكون ذلك والله عز وجل هو الذى خلق الإنسان وخلق قلبه وهو أعلم بما يصلح له وبما يطهره وينقيه فشـرع لـه هـذا الدين القيم الـذى لايرضـى اللـه عز وجل غيره[١] وسلامة القلب إنما هى صلاح وعمار له فكيـف يصلح القلب بغير ماخلقه الله له إن ذلك من أعظم المحال.

فـالقلب خلقه الله عز وجل ليعلم به الإنسـان الحق ويستخـدمه فيمـا خلقه الله له والله عز وجل هو الحق المبين (فذٰلكم اللـه ربكم الحق فماذا بعـد الحق إلا الضلٰـل)[٢] إذ كـان كل مايقع عليـه لمحة ناظـر أو يجول في لفتة خاطر فالله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه.[٣]

فـإذا امتلأ القلـب بتوحيـد الله عز وجل المجرد مـن كـل شائبة فإنه حينئـذ يكون قد وضع في موضعه، الأمر الذى سيؤدى بإذن اللـه عز وجل إلى حصـول ثمرة ذلـك وهى سلامـة القلـب في الدنيـا وسعـادته وفـوزه في الآخرة (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).[٤]

قـال ابن القيم رحمه اللـه عند قوله تعالى: (وويل للمشـركين الذين لايؤتون الزكٰـوة)[٥]: قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهـــــم:[٦]

---

(١) كمـا قال الله تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلٰم ديناً فلن يقبـل منه وهو في الأخرة من الخٰسرين) (آل عمران: ٨٥).

(٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة يونس.

(٣) انظر رسالة في القلب لابن تيمية ص٢١

(٤) الآيات ٨٨،٨٩ من سورة الشعراء.

(٥) جزء من الآية ٦ وجزء من الآية ٧ من سورة فصلت.

(٦) قال ابن عباس: هم الذين لايشهدون أن لا إله إلا اللـه، وقال عكرمة: ==

هى التوحيد: شهادة أن لا إلـه إلا الله والإيمان الـذى به يزكو القلب فإنه يتضمـن نفـى الٰهية ماسوى الحق مـن القلب وذلك طهـارته وإثبـات الٰهيته سبحـانه وهـو أصل كل زكاة ونماء، فـإن التزكى -وإن كـان أصلـه النماء والـزيادة والبركـة- فإنه إنما يحصـل بإزالة الشر فلهـذا صـار التزكى ينتظم الأمرين جميعاً، فأصل ماتزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد[1]

والتوحيد كذلك هو الطريق إلى تقوى الله عز وجل إذ كيـف يتقى اللـه مـن لا يوحده قال تعالى: (ينزل الملـٰٓئكة بالـروح مـن أمـره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون).[2]

قـال ابن جرير رحمه الله: ومعنى الكلام: ينزل الملائكـة بالـروح من أمـره على مـن يشاء من عبـاده بأن أنذروا عبـادى سطـوتى على كفـرهم بى وإشـراكهم في اتخاذهـم معى الآلهـة والأوثان فـإنه لا إلـــه إلا أنا، يقـول: لاتنبغـــى الألـــوهيةإلا لى ولا يصلـــح أن يعبـــد شـــىء ســـواى، فـاتقون: يقـول:فاحذرونى بأداء فرائضـى وإفراد العبادة وإخلاص الـربوبية لي ، فإن ذلك نجاتكم من الهلكة.[3]

وقـال سيـد قطـب رحمـه اللـه: إنهـا الـوحدانية في الألـوهية، روح العقيـدة، وحيـاة النفس، ومفـرق الطريق بين الاتجاه المحيي والإتجاه المدمـر، فالنفس التى لاتوحد المعبود نفـس حائرة هالكة تتجاذبهـا السبـل وتخايل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة، وتناوشها الوساوس، فلا تنطلق مجتمعه

(=) الذين لايقولون لا إله إلا الله. انظر جامع البيان ٩٢/٢٤

(١) إغاثة اللهفان ٤٩/١، وانظر الفتاوى ٩٧/١٠

(٢) الآية ٢ من سورة النحل.

(٣) جامع البيان ٧٧/١٤

لهدف من الأهداف.[١]

فتوحيد الله تعالى هو الذى يدفع إلى الخوف منه تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وتلك هى حقيقة التقوى، والتقوى من أوصاف السلامة للقلب كما قدمنا في الفصل الأول.

وبالتوحيد كذلك يقوى القلب ويثبت قال تعالى:(وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوٰت والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذا شططا).[٢]

فهؤلاء الفتية أصحاب الكهف يخبرنا الله عز وجل أنه ربط على قلوبهم بسبب تجريدهم التوحيد له تبارك وتعالى.

قال الشيخ الأمين رحمه الله عند هذه الآية: أى ثبتنا قلوبهم وقويناها على الصبر حتى لايجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار جبل لا أنيس به ولا ماء ولا طعام.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوى قلبه ويثبته على تحمل الشدائد والصبر الجميل.

وقد أشار تعالى إلى وقائع هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطٰن وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحى ربك إلى الملٰئكة أنى معكم فثبتوا الذين ءامنوا)[٣] الآية. وكقوله في أم موسى:

---

(١) في ظلال القرآن ٢١٦٠/١٤

(٢) الآية ١٤ من سورة الكهف.

(٣) الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ من سورة الأنفال.

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين).[١][٢]

ولاشك أن أعظم طاعة لله عز وجل هى التوحيد وإخلاص العباده.

ولذلك فكل ذنب تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء غفره وإن شاء عذب به إلا الشرك فإنه لايغفره الله أبداً قال تعالى: (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء).[٣]

لأن الشرك نقض لأعظم ميثاق أخذه الله عز وجل على الإنسان وإخلال بأكبر حق لله تعالى ولهذا فالشرك بالله عز وجل رجس تنتقل نجاسته إلى كل من يتعاطاه قال تعالى: (إنما المشركون نجس)[٤] فالمشركون أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم نجسه غير طاهره.

قال ابن كثير رحمه الله: دلت هذه الآية الكريمه على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن ولما ورد في الصحيح "إن المؤمن لاينجس".[٥][٦]

فهؤلاء المشركون تنجست قلوبهم ودنست أرواحهم فلم يرد الله أن يطهرها وهم يسارعون في الكفر ويلجون ظلماته ويختارون نجاسته قال تعالى: (يٰأيها الرسول لايحزنك الذين يسٰرعون في الكفر من الذين قالوا

---

(١) الآية ١٠ من سورة القصص.

(٢) أضواء البيان ٣٢/٤-٣٣

(٣) جزء من الآية ١١٦ من سورة النساء.

(٤) جزء من الآية ٢٨ من سورة التوبة.

(٥) أخرجه البخارى في الصحيح ١١٠/١ كتاب الغسل (٥) باب الجنب يخرج ويمشى في السوق وغيره (٢٤) برقم ٢٨٥
ومسلم في الصحيح ٢٨٢/١ كتاب الحيض (٣) باب الدليل على أن المسلم لاينجس (٢٩) برقم ٣٧١

(٦) تفسير القرآن العظيم ٧٤/٤

ءامنــا بأفوٰهـهم ولم تؤمـن قلـوبهم ومـن الـذين هــادوا سمّٰعون للكـذب سمّٰعون لقوم ءاخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعـد مواضعه يقولون إن أوتيتم هـذا فخذوه وإن لم تأتوه فـاحذروا ومن يرد اللـه فتنة فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزى ولهم في الأخرة عذاب عظيم).[1]

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام كله نقاء وطهر وصفـاء (فمن يرد الله أن يهـديه يشرح صدره للإسلٰم ومـن يرد أن يضله يجعـل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كـذلك يجعل الله الرجس على الـذين لايؤمنـون).[2]

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

المبحث الثالث

تحقيق الخوف من الله عز وجل وتطهيره للقلب[١]

اعلم رحمك الله أن الخوف من الله عز وجل من أجل الأعمال القلبية التى يجب إخلاصها لله عز وجل وحده، وقد أثنى الله تعالى به على ملائكته الكرام فقال: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)[٢] وقال تعالى: (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون)[٣] وأمر عباده المؤمنين بتجريد الخوف له فقال تعالى: (إنما ذلكم الشيطـٰن يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين).[٤]

ووعد أهل الخوف المخلصين بأعظم الجزاء (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[٥] وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر: وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام: أنهم قالوا له: (إن نقول إلا اعتراك بعض ءالهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون)[٦] وهذا ينافى التوحيد.

الثانى: أن يترك الإنسان مايجب عليه خوفاً من بعض الناس وهذا محرم

---

(١) مما هو معلوم أن تحقيق جميع العبادات القلبية يسلك بالقلب طريق السلامة والعافية وقد تقدم في الفصل الأول مايبين ذلك، ولذلك فسأكتفى بذكر مثال واحد فقط. ومما تجدر الإشارة إليه أن ذكر هذا المبحث وما بعده من مباحث بعد المبحث السابق من باب ذكر الخاص بعد العام لزيادة الإيضاح والبيان.

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء

(٣) الآية ٥٠ من سورة النحل.

(٤) الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ٤٦ من سورة الرحمن.

(٦) الآيات ٥٤، ٥٥ من سورة هود.

وهـو نوع من الشرك بالله المنـافى لكمال التوحيد وقـد قـال صلى اللـــه عليـه وسلم: "لايحقـر أحدكـم نفسـه" قالوا: يارسول اللـه كيـف يحقر أحدنا نفسـه؟ قال: "يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لايقـول فيه فيقول الله عز وجل لـه يوم القيـامة: مـامنعـك أن تقـول في كذا وكـذا؟ فيقـول: خشيـة الناس. فيقول: فإياى كنت أحق أن تخشى".(١)

الثالث: الخوف الطبيعـى وهو الخوف مـن عدو أو سبـع أو غير ذلـك فهذا لا يذم كما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام: (فخـرج منها خائفاً يترقب).(٢)(٣)

فإخلاص الخوف لله من الأسباب العظيمة لسلامة القلب.

قـال شيخ الإسلام ابن تيميـة: "اعلم أن محركات القلـوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبـة والخوف والـرجاء وأقواها المحبـة" وهـى مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيـا والآخرة بخلاف الخوف فـإنه يزول في الآخرة، قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهـم ولا هم يحزنون)(٤) والخوف المقصـود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فـالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبـوبه وعلى قدر ضعفهـا وقوتها يكون سيره إليـه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده.(٥)

---

(١) أخرجه ابن مـاجه في السنن ١٣٢٨/٢ كتـاب الفتن (٣٦) باب الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر(٢٠) برقم (٤٠٠٨).
وقـال الحافظ البوصيري في الـزوائد إسناده صحيح رجالـه ثقات والحديث ضعفه الشيخ الألبانى في ضعيف سنن ابن ماجه ص٣٢٢ برقم (٤٠٠٨/٨٦٨).

(٢) جزء من الآية ٢١ من سورة القصص.

(٣) انظر فتح المجيد ٣٥٢-٣٥٣

(٤) الآية ٦٢ من سورة يونس.

(٥) الفتاوى ٩٥/١

والخوف من المولى جل وعلا يحقق للقلب أعظم مطلوب وهوالاهتداء بما أنزل الله عز وجل إلى طريق الأنبياء والصالحين قال تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[(١)] فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله[(٢)] وقال تعالى: (فذكر إن نفعت الذكرى..)[(٣)] والخوف من الله عز وجل يكسب كذلك القلب التقوى والحذر أمام كل عمل يعمله حتى ولو كان هذا العمل صالحاً فإنه يخاف أن لايقبل منه قال تعالى: (والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون).[(٤)]

قالت عائشة رضى الله عنها: يارسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: "لايابنت الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لايقبل منه"[(٥)] وطالما أن الخائف من الله عز وجل ذاكر له في كل حركاته وسكناته فسوف يثمر له هذا الذكر ثمرة عظيمة ألا وهى الاطمئنان، وهو أمر عزيز جداً من حظى به فهو في سعادة عظيمة لايعرف مقدارها وعظمها إلا من يشاركه فيها قال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[(٦)] أى تسكن وتستأنس.[(٧)]

---

(١) الآية ١٥٤ من سورة الأعراف.
(٢) الإيمان ص١٧
(٣) الآية ٩ من سورة الأعلى.
(٤) الآية ٦٠ من سورة المؤمنون.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥٩/٦، والترمذى في السنن ٣٢٧/٥ كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب ومن سورة المؤمنون (٢٤) رقم الحديث ٣١٧٥ وصححه الشيخ الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٧٩/٣-٨٠ برقم ٢٥٣٧-٣٤٠١
(٦) جزء من الآية ٢٨ من سورة الرعد.
(٧) جامع البيان ١٤٥/١٣

والخوف من الله يحمل صاحبه على التقوى التى تثمر متابعة الأنبياء والمرسلين ولزوم طاعتهم كما سبق أن بينا وذلك يثمر هداية القلب قال تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (وإن تطيعوه تهتدوا).(١)

ويجعل كذلك القلب المتابع رؤوفاً رحيما قال تعالى عن نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام: (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة).(٢)

ومعلوم أن أقرب القلوب إلى الله عز وجل أعظمهم رأفة ورحمة، والله تعالى إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن في قلبه الرأفة والرحمة وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة وأبدل له بهما الغلظة والقسوة و"إنما يرحم الله من عباده الرحماء"(٣) و"من لايرحم لايرحم"(٤) و"لاتنزع الرحمة إلا من شقى".(٥)

والتقوى كذلك تثمر العلم (واتقوا الله ويعلمكم الله)(٦) والعلم هو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ولذة الأرواح.

والعلم يثمر الإيمان بما جاء من عند الله تعالى محكمه ومتشابهة قال تعالى: (والرٰسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا

---

(١) جزء من الآية ٥٤ من سورة النور.

(٢) جزء من الآية ٢٧ من سورة الحديد.

(٣) أخرجه البخارى في الصحيح ٣٩٦/١ كتاب الجنائز (٢٣) باب قول النبي يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (٣٢) برقم (١٢٨٤) ومسلم في الصحيح ٦٣٥/٢-٦٣٦ كتاب الجنائز (١١) باب البكاء على الميت (٦) برقم (٩٢٣/١١).

(٤) تقدم تخريجه ص (١٦٥ - ١٦٦) .

(٥) تقدم تخريجه ص (١٦٥) .

(٦) جزء من الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

أولوا الألبٰـب).(١)

أخرج ابن أبي حاتم عـن عـائشة رضى الله عنها أنهـا قـرأت هؤلاء الآيات: (هو الذى أنزل عليك الكتٰـب) إلى قوله(ءامنـا به) قالت: [كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولايعلمونه].(٢)

وهذا الإيمان يؤدى إلى الإخبات قال تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم).(٣)

قـال السعدى رحمه الله عند هذه الآية: "وأن اللـه منحهم من العلم مابه يعرفون الحق من الباطـل والرشد من الغي فيفرقـون بين الأمرين الحق المستقـر الذى يحكمه الله والبـاطل العارض الذي ينسخـه اللـه بما على كل منهما من الشواهد وليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء ليظهر بذلـك كمـائن النفوس الخيرة والشـريرة (فيـؤمنوا به) بسبـب ذلـك ويزداد إيمانهـم عنـد دفع المعارض والشبهـة (فتخبـت له قلـوبهم وإن اللـه لهـاد الـذين ءامنـوا) بسبـب إيمانهـم (إلى صـرٰط مستقيم) علم بالحق وعمـل بمقتضاه".(٤)

والإخبات هو أول منازل الطمأنينة وفيه معنى التواضع والسكون إلى الله عز وجل.

والسكينـة تزيد في الإيمان، قـال تعـالى: (هو الـذى أنزل السكينـة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمٰناً مع إيمٰنهم).(٥)

---

(١) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٢) سبق تخريجه ص(٢٧-٢٨).

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٥٣/٥

(٥) جزء من الآية ٤ من سورة الفتح.

والسكينـة أيضاً تتنزل عند ذكر الله عز وجل الـذى هو ثمرة من ثمار الخوف قال صلى الله عليه وسلم: "تلك السكينة تنزلت للقرآن".[١]

كـل ذلك وغيره مما يعجز القلم عـن الإحاطة به مـن الثمـار العظيمة التى يثمـرها الخوف مـن اللـه العزيز الجبار، وكذا جميـع العبـادات القلبية فإنها تثمر الثمار اليانعة التى تعـود على القلـب بالطهـر والنقـاء وحسبى أن مثلت لها بمثال واحد فإن الموضوع طويل والعدة متواضعة والله المستعان، ولا حول ولاقوة إلا بالله.

---

(١) أخرجه البخـارى في صحيحـه ٣٤٣/٣ كتـاب فضـائل القـرآن (٦٦) باب فضـل سورة الكهف (١١) برقم ٥٠١١، ومسلم في الصحيح ٥٤٧/١ كتـاب صلاة المسافرين (٦) باب نزول السكينة لقراءة القرآن (٣٦) برقم ٧٩٥/٢٤٠

المبحث الرابع

شعائر الإسلام وعباداته الظاهرة وتطهيرها للقلب

فكما أن سلامة العقيدة وإخلاص العبادات الباطنة تسلك بالقلب طريق السلامة فكذلك شعائر الإسلام وعباداته الظاهرة ولنبين ذلك ببعض الأمثلة:

أولا: الوضوء والغسل والتيمم وإزالة النجاسة:

اعلم أن هذه العبادات العظيمة ذات أثر بالغ في تطهير القلوب كما أن لها أثراً في تطهير الظاهر، وقد قال تعالى بعد أن ذكر الوضوء والغسل والتيمم: (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).(١)

فهذه الآية الكريمة تقودنا إلى الوحدة التى يحققها الإسلام في الشعائر والشرائع على السواء فليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف للجسد فقط بل إنه يجمع بين نظافة الجسم وطهارة الروح في عمل واحد وفي عبادة واحدة يتوجه بها المؤمن إلى ربه وجانب التطهر الروحى أقوى لأنه عند تعذر استخدام الماء يستعاض بالتيمم الذى لايحقق إلا هذا الشطر الأقوى.(٢)

قال صاحب المنار(٣) رحمه الله عند هذه الآية (ولكن يريد ليطهركم) من القذر والأذى ومن الرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة

---

(١) جزء من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/٨٥٠-٨٥١

(٣) هو محمد رشيد على رضا بن محمد بن محمد بن علي القلموني البغدادي الأصل محدث ومفسر ومؤرخ وأديب وسياسي، اتصل بمحمد عبده المصرى وتتلمذ له وأصدر مجلة المنار، وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، من مصنفاته تفسير المنار ولم يكمل، والخلافة والإمامة العظمى وغيرها، توفى سنة ١٣٥٤هـ. انظر الأعلام ٦/١٢٦، ومعجم المؤلفين ٩/٣١٠

فتكونوا أنظف الناس أبداناً وأزكاهم نفوساً وأصحهم وأرقاهم أرواحاً (وليتم نعمته عليكم) بالجمع بين طهارة الأرواح وتزكيتها وطهارة الأجساد وصحتها، فإنما الإنسان روح وجسد لا تكمل إنسانيته إلا بكمالهما معاً.[١]

فالوضوء طهرة للروح لأنه ينقيها من الذنوب والآثام ويشهد لهذا مارواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب".[٢]

وما رواه عثمان بن عفان رضى الله عنه[٣] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره"[٤] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالوضوء

---

(١) تفسير المنار ٢٥٩/٦

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٢١٥/١ كتاب الطهارة (٢) باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (١١) برقم ٢٤٤/٣٢

(٣) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص ابن أمية القرضى الأموى أمير المؤمنين أبو عبدالله، أسلم قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، زوجه الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم، ولذلك سمى بذى النورين، صاحب الأيادي البيضاء في الإنفاق في سبيل الله، جهز جيش العسرة، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالشهادة، قتل في بيته سنة ٣٥هـ رضى الله عنه وأرضاه. انظر صفة الصفوة ٢٩٤/١، الإصابة ٤٥٥/٢

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح ٢١٦/١ كتاب الطهارة (٢) باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (١١) برقم ٢٤٥/٣٣

والغسـل جعلا مقـدمة للصلاة وغيرهـا مـن العبـادات التى لهـا أثر كبير في تزكية النفس وتطهير القلب.

ومما ينبغى أن يذكر أن كلا من الطهارتين الحسيـة والمعنوية ينبغى أن تكـون عـوناً للأخرى كمـا أن التنطع والإسـراف في إحدى هـاتين الطهـارتين يشغـل عـن الأخرى وهـذا هـو سبب عدم عنـاية بعـض الـزهاد والعبـاد بنظـافة الظاهر وعدم عنـاية الموسـوسين المتنطعين في نظـافة الظـاهر بنظافة الباطن والإسلام وسط بينهما يأمر بالجمع بين الأمـرين. ولأجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الإيمان) [١][٢]

فطهـارة الجوارح مرتبطة بطهارة القلوب ولذلـك جعل الله عز وجل إذهـابه عـن أهل بدر رجز الشيطـان وربطـه على قلوبهـم وتثبيـت أقدامهم معطـوفاً على طهارة جوارحهم في قوله تعالى: (إذ يغشيكـم النعاس أمنة منه وينزل عليكـم مـن السماء مـاءً ليطهـركم به ويذهب عنكـم رجز الشيطـٰن وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام).[٣]

قـال ابن كثير رحمه الله وقوله (ليطهركم به) أى مـن حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر (ويذهب عنكم رجز الشيطـٰن) أى من وسوسة أو خاطر سـيء وهـو تطهير البـاطن كمـا قـال تعـالى في حق أهـل الجنـة (عـٰليهم ثيـاب سندس خضـر و استبرق وحلوا أسـاور مـن فضة)[٤] فهذا زينة الظاهر، (وسقـٰـهم ربهم شراباًطهوراً)[٥] أى: مطهراًلما كان من بخل أو

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ٢٠٣/١، كتـاب الطهارة (٢)، باب فضـل الـوضوء (١) برقم ٢٢٣/١

(٢) انظر تفسير المنار ٢٦٣/٦

(٣) الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٤) جزء من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

(٥) جزء من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

حسدٍ أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته (وليربط على قلوبكم) أى بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعةالباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر والله أعلم.[١]

وقال تعالى: (وثيابك فطهر)[٢] وهذه الآية تدل على طهارة القلب وطهارة الثوب وأن طهارة كل منهما متوقفة على طهارة الآخر.[٣]

ثانياً: الصلاة:

والمراد بها في الشرع (أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم).[٤]

وهي الركن الثانى من أركان الإسلام وعموده الذي لايقوم بدونه قال صلى الله عليه وسلم: "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد"[٥] وقال صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادةأن لاإله إلاالله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان".[٦]

وهي صلة عظيمة بين العبد وربه يستمد منها العبد القوة والراحة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٥٦٤-٥٦٥

(٢) الآية ٤ من سورة المدثر.

(٣) كما اختار ذلك ابن القيم وابن حجر وقد تقدم البحث مستوفى في هذه الآية في مبحث الطهر.

(٤) الروض المربع للبهوتى ٤١/١

(٥) أخرجه الترمذى في السنن ١١/٥-١٢، كتاب الإيمان (٤١)، باب ماجاء في حرمة الصلاة(٨) برقم ٢٦١٦، وقال حسن صحيح، وصححه الألبانى في صحيح سنن الترمذي ٣٢٨/٢-٣٢٩ برقم ٢١١٠

(٦) أخرجه البخارى في الصحيح ٤٩/١، كتاب الإيمان (٢) باب دعاؤكم إيمانكم برقم(٢) ومسلم في الصحيح ٤٥/١ كتاب الإيمان(١) باب بيان أركان الإسلام(٥) برقم (٢١).

والطهارة والنقاء وكيف لا يكون ذلك وهو يشعر عندما يحافظ عليها أن صلته بالله قوية وأن الله مطلع عليه ومراقب له في كل حركاته وسكناته وسيجازيه على كل ماعمل قال تعالى: (إن الصلوٰة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون)(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من لم تأمره الصلاة وتنهه عن المنكر لم يزدد بها إلا بعداً».(٢)فالصلاة فيها ثلاث خلال الإخلاص والخشية وذكر الله فالإخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله يأمره وينهاه.

ولذلك حين أمر الله عز وجل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهن بالقرار في البيوت ونهاهن عن التبرج وأمرهن بالصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله بين عاقبة ذلك فقال سبحانه: (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجٰهلية الأولى وأقمن الصلوٰة وءاتين الزكوٰة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)(٣).(٤)

---

(١) جزء من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد ص١٥٩.
وقال ابن كثير: بعد أن ساق الحديث عن عمران بن حصين وابن عباس وابن مسعود والحسن مرفوعاً قال: «والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم». تفسير القرآن العظيم ٢٩٠/٦ وصححه موقوفاً أيضاً الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة ١٤/١ برقم (٢).

(٣) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

(٤) الصلاة في القرآن -مفهومها فقهها- للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي ص٣٨-٣٩.

ومما يجب أن يعلم أن الصلاة التي تحقق سلامة القلب وطهارة الروح هي الصلاة التامة التي قد تم وضوؤها وركوعها وسجودها وخشوعها .(١)قال عثمان بن عفان رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله»(٢).

ثالثاً: الزكاة وصدقة التطوع:

الزكاة من الزكاء بالمد وهو النماء والزيادة لأنها تثمر المال وتنميه فهي سبب يرجى به الزكاة .(٣) وليس النماء والطهارة مقصوران على المال بل يتعديان إلى نفس المعطي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة: (قد أفلح من زكٰها)(٤)

---

(١) وشأن الخشوع في الصلاة عظيم جعله الله سبحانه أول صفات عباده المؤمنين في قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) (المؤمنون: ١-٢).
ووصف الله به الذين أوتوا العلم في قوله تعالى: (ويزيدهم خشوعاً) (الإسراء: ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٢٠٦/١ كتاب الطهارة (٢) باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٤) برقم ٢٢٨/٧.

(٣) انظر اللسان عند مادة (زكا) ٣٥٨/١٤، والمصباح المنير عند مادة (زكا) ص٩٧.

(٤) الآية ٩ من سورة الشمس.

(قد أفلح من تزكى)[١] نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى.[٢]

وهي في الشرع اسم لمخرج مخصوص بأوصاف مخصوصة من مال مخصوص لطائفة مخصوصة[٣] هذا وقد أطلق الشرع على الزكاة اسم "صدقة" كما صرحت بذلك الآيات والأحاديث قال تعالى: (خذ من أموٰلهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٤] وقال تعالى: (إنما الصدقٰت للفقراء والمسٰكين والعٰملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغٰرمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله)[٥] وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس فيما دون خمسة أوسق[٦] صدقة، وليس فيما دون خمس ذود[٧] صدقة، وليس فيما دون خمس أواق[٨] صدقة"[٩] وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً في حديث معاذ: "فأعلمهم أن الله افترض عليهم في أموالهم صدقة تؤخذ من

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأعلى.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/٢٥

(٣) المطلع على أبواب المقنع ص١٢٢

(٤) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٥) جزء من الآية ٦٠ من سورة التوبة.

(٦) أوسق: الوسق بالفتح ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز وأربعمائة وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلاف في مقدار الصاع والمد. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٨٥/٥ مادة (وسق).

(٧) ذود: الذود من الإبل مابين الثنتين إلى التسع وقيل مابين الثلاث إلى العشر. انظر النهاية ١٧١/٢ مادة (ذود).

(٨) أواق: مفردها أوقية بضم الهمزة وتشديد الياء وهي: اسم لأربعين درهماً. فخمس أواق تساوي مائتي درهم. انظر النهاية ٢١٧/٥ مادة (وقا).

(٩) أخرجه البخاري في الصحيح ٤٥١/١، كتاب الزكاة (٢٤) باب ليس فيما دون خمس ذود صدقة(٤٢) برقم ١٤٥٩، ومسلم في الصحيح ٦٧٣/٢ أول كتاب الزكاة (١٢) برقم ٩٧٩/١

أغنيائهم"(١) فليست الصدقة عنواناً على التطوع فحسب كما هو شائع في عرف عامة الناس اليوم.(٢)

وصدقة التطوع المراد بها الصدقة المستحبة الغير واجبة وهي التى قال عنها عز وجل: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)(٣) وقال عنها صلى الله عليه وسلم: "اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فكلمة طيبة"(٤) وقال كذلك صلى الله عليه وسلم: "أفضل الصدقة جهد المقل ودرهم سبق مائة ألف".(٥)

فالصدقة -مفروضة أو غير مفروضة- من أعظم أسباب سلامةالقلب وطهره ونقائه ولذلك قال تعالى: (خذ من أموٰلهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

قال صاحب المنار عند هذه الآية: أى تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكى أنفسهم بها أى تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية. فالمطهر هنا الرسول صلى الله عليه وسلم(٦) والمطهر به

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٧٨/٤، كتاب التوحيد (٩٧) باب ماجاء في دعاء النبى أمته إلى التوحيد (١) برقم ٧٣٧٢

(٢) فقه الزكاة للقرضاوى ٤٠/١-٤١

(٣) جزء من الآية ٩٢ من سورة آل عمران.

(٤) أخرجه البخارى في الصحيح ٩٥/٤، كتاب الأدب (٧٨) باب طيب الكلام (٣٤) برقم ٦٠٢٣، ومسلم في الصحيح ٧٠٣/٢، كتاب الزكاة (١٢) باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (٢٠) برقم ١٠١٦/٦٦

(٥) تقدم تخريجه. ص١٧٥

(٦) وقد أسندت التزكية للأنفس هنا للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه هو المربى للمؤمنين على ماتزكو به أنفسهم ولأن الأنفس يعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله وما لهم من الأسوة الحسنة فيه ==

الصدقه.[١]

وحتى تحقق الصدقة تطهير القلب لابد لها من أمرين:

أولهما: الإخلاص لله عز وجل.

الثاني: أن يكون قصده بها تزكية نفسه.

قال تعالى: (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى).[٢][٣]

قال السعدى رحمه الله عند هذه الآية: بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس قاصداً به وجه الله تعالى.[٤]

وقد ورد في الآية أن جزاء من يحقق هذين الأمرين الرضى الذي سوف يملأ قلبه ويغمر روحه ويفيض على جوارحه وينـدى حياته، يرضى

(=) قال تعالى: (هوالذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم ءايٰته ويزكيهم ويعلمهم الكتٰب والحكمة) (الجمعة: ٢) فتزكيته صلى الله عليه وسلم للأمة من مقاصد البعثة، وقد أسندت التزكية في آيات أخرى لله تعالى: (ولكن الله يزكي من يشاء) (النور: ٢١) لأنه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ماتزكو به نفسه وتصلح وأسندت كذلك للعبد كما في قوله تعالى: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (الشمس: ٩-١٠) وقوله تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) (الأعلى: ١٤-١٥) لكونه هو الفاعل لما جعله الله سبباً لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر وأما قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء) (النساء: ٤٩) قوله (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى) (النجم: ٣٢) فهو في زكاء النفس بدعوى اللسان. انظر تفسير المنار ١١/٢٤-٢٥

(١) تفسير المنار ١١/٢٤

(٢) الايات ١٧-٢١ من سورة الليل.

(٣) قال ابن كثير: ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ٨/٤٤٤

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٨/٢٤٨

بدينه، ويرضى بربه، ويرضى بقدره، ويرضى بما يجد من سراء وضراء، ومن غنى وفقر، ومن يسر وعسر، ومن رخاء وشدة.[١]

رابعاً: الصيام.

الصوم في اللغة الإمساك صام أى أمسك عن الطعام والشراب والكلام والسير[٢] وهو في الشرع عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة في زمن مخصوص من شخص مخصوص بنية مخصوصة.[٣]

وهو طريق عظيم يطهر اللهُ به القلبَ ويهذب به الروح فيكتسب القلب الصفات الحميدة كالتقوى وغيرها.

قال تعالى: (يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون).[٤]

وفي قوله تعالى: (لعلكم تتقون) قولان:[٥]

أحدهما: لعلكم تتقون ماحرم عليكم في الصيام من أكل الطعام وشرب الشراب ووطء النساء وهذا هو قول الطبرى رحمه الله.[٦]

الثاني: معناه أن الصوم سبب يؤول بصاحبه إلى تقوى الله، لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوة وإذهاب الأشر وهو معنى قول الزجاج [٧][٨].

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٩٢٣/٣٠

(٢) القاموس المحيط ص١٤٦٠، عند مادة صام.

(٣) المطلع على أبواب المقنع للبعلى ص١٤٥

(٤) الآية (١٨٣) من سورة البقرة.

(٥) النكت والعيون ١٩٧/١

(٦) انظر جامع البيان ١٣٠/٢

(٧) هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو اسحاق الزجاج النحوى، كان من أهل الفضل والدين، له مؤلفات حسان، توفى سنة ٣١١هـ. انظر انباه الرواة على انباه النحاة ١٩٤/١ برقم (٩٦) ومعجم الأدباء ١٣٠/١ برقم (٩).

(٨) انظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٢٥٢/١

والقول الثاني هو المقصود هنا.

قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى مخاطباً المؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان من قبلهم فلهم فيهم أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الغرض أكمل مما فعله أولئك".[١]

ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الصوم أنه سبب مغفرة الذنوب[٢] ودخول الجنة والعتق من النار[٣] وأنه جنة[٤] وأنه وجاء.[٤]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٥/١

(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه" أخرجه البخارى في الصحيح ٩٢/١ كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان برقم ٣٨

(٢) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لايدخله إلا الصائمون" أخرجه البخارى في الصحيح ٣٢٨/٦ كتاب بدء الخلق باب صفة أبواب الجنة برقم ٣٢٥٧

(٣) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "والصيام جنة" أخرجه البخارى في الصحيح ١١٨/٤ كتاب الصوم، باب هل يقول إنى صائم إذا شتم برقم ١٩٠٤ والجنة الوقاية والمعنى يقي صاحبه مايؤذيه من الشهوات. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٠٨/١ مادة (جنن).

(٤) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" أخرجه البخارى في الصحيح ١١٢/٩ كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم برقم ٥٠٦٦، والوجاء أن ترض أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوة الجماع والمراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء. انظر النهاية ١٥٢/٥ مادة (وجأ).

قال الكمال[١] في الفتح ذاكراً لبعض فوائد الصوم: "هذا ثالث أركان الإسلام بعد لاإله إلا الله محمد رسول الله شرعه سبحانه لفوائد أعظمها كونه موجباً شيئين:

أحدهما: سكون النفس الأمارة وكسر سورتها في الفضول المتعلقة بجميع الجوارح من العين واللسان والأذن والفرج فإن به تضعف حركتها في محسوساتها، ولذا قيل: إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء، وإذا شبعت جاعت كلها، ومماينتج عن هذا من صفاء القلب من الكدر فإن الموجب لكدوراته فضول اللسان والعين وباقيها وبصفائه تناط المصالح والدرجات ومنها: كونه موجباً للرحمة والعطف على المساكين لما ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ذكر من هذا حاله في عموم الأوقات فتسارع إليه الرقة عليه، والرحمة حقيقتها في حق الإنسان نوع ألم باطن فيسارع لرفعه عنه بالإحسان إليه فينال بذلك ماعند الله تعالى من حسن الجزاء ومنها موافقة الفقراء بتحمل مايتحملون أحياناً وفي ذلك رفع حاله عند الله تعالى".[٢]

خامساً: الحج والنسك:

الحج في اللغة القصد، حج إلينا فلان أى قدم، وحجه يحجه حجاً: قصده.[٣]

---

(١) هو محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد كمال الدين الشهير بابن الهمام السكندري السيواسي، كان محدثاً مفسراً حافظاً نحوياً كلامياً منطقياً جدلياً، وله تصانيف منها: شرح الهداية في الفقه والتحرير في الأصول وغيرها، مات سنة ٨٦١هـ. انظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١٨٠

(٢) فتح القدير لابن الهمام ٢/٣٠٠-٣٠١

(٣) اللسان عند مادة حجج ٢/٢٢٦

وهـو في الشـرع قصد بيت اللـه الحرام لأداء أفعـال مخصـوصة بصفة مخصوصة في زمن مخصوص بشروط مخصوصة.[١]

وللحــج أثر عظيم في السير بالقلــب إلى الطهـر والنقــاء والسلامــة والصفـاء قال تعالى: (الحج أشهـر معلومـٰت فمن فرض فيهـن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألبـٰب).[٢]

فالحاج بزيارته لبيت الله تعالى مقبل على الله تعالى قاصد له، فيتجرد عن عاداته ونعيمه وينسلخ مـن مفاخره ومميزاته على غيره، بحيـث، يساوى الغنيُّ الفقيرَ، ويماثل الصعلـوك الأمير، فيكون الناس مـن جميع الطبقات في زي كـزي الأموات، وفى ذلك من تصفية النفس وتهذيبهـا وإشعارها بحقيقة العبـودية لله والأخوة للناس مالا يقدر قدره وإن كــان لايخفى أمره، وفي حديث أبى هـريرة أن رسول اللـه صلى الله عليه وسلم قـال: "مـن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"[٣] وذلك أن الإقبال على الله تعالى بتلـك الهيئـة، والتقلـب في تلـك المنـاسك على الوجه المشـروع يمحـو مـن النفـوس آثار الذنوب وظلمتهـا ويدخلها في حياة جديدة لهـا فيها ماكسبت وعليها ما اكتسبت.[٤]

---

(١) انظـر المغنى ٢١٧/٣، فقه الإسلام شرح بلوغ المرام لعبـد القادر شيبة الحمد ٤/٤

(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه البخـارى في الصحيـح ٤٧٠/١-٤٧١ كتـاب الحج (٢٥) باب فضــل الحج المبرور (٤) برقـم ١٥٢١، ومسلم في الصحيح ٩٨٣/٢ كتـاب الحج (١٥) باب فضل الحج والعمرة (٧٩) برقم ١٣٥٠/٤٣٨

(٤) تفسير المنار ٢٢٨/٢

والمراد بالنسك الذبح تقرباً إلى الله عز وجل فالنسك اسم فعله نسك ينسك إذا تطوع بقربة[١] قال تعالى: (قل إن صلاتى ونسكي ومحياي ومماتى لله رب العٰلمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).[٢]

فالمراد بالنسك الذبح.[٣]

وفي النسك طهارة ونقاء قال تعالى: (والبدن جعلنها لكم من شعٰئِر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرنٰها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذٰلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهدٰكم وبشر المحسنين).[٤]

قال سيد قطب رحمه الله عند قوله تعالى: (ذٰلك ومن يعظم شعٰئِر الله فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منٰفع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق)[٥] ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها إلى تعظيم شعائر الله وهى ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها، ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره.[٦]

سادساً: مكارم الأخلاق:

اعلم أن جميع مكارم الأخلاق من الأسباب العظيمة المؤدية إلى

---

(١) المصباح المنير عند مادة (نسك) ص٢٣٠

(٢) الآيتان ١٦٢،١٦٣ من سورة الأنعام.

(٣) انظر جامع البيان ١١٢/٨، وتفسير ابن كثير ٣٧٧/٣

(٤) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة الحج.

(٥) الآيتان ٣٢ و ٣٣ من سورة الحج.

(٦) في ظلال القرآن ٢٤٢٢/١٧

سلامة القلب ونقائه وطهره.

فالعدل مثلاً يقود إلى تقوى الله عز وجل التى هـى من أجلِّ أسباب طهـر القلب وسلامته قال تعـالى: (ولا يجرمنكم شنآن قـوم على ألا تعـدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).[١]

إن في العـدل ضبطاً للنفـس وربطاً للقلب باللـه عـز وجل وسرعان ماتعود هذه المعاني العظيمة على القلب بالنور والفـرح والسرور والانشراح وذلك يحقق للقلب السلامة أيما تحقيق.

والصـدق كـذلك يقود إلى التقـوى قال تعالى: (يـٰأيها الـذين ءامنـوا اتقـوا اللـه وكـونوا مع الصـٰدقين)[٢] وقـال تعالى: (والـذى جاء بالصـدق وصدق به أولئك هم المتقون).[٣]

فالصدق من أعظم ثمار التقوى وهو كذلك يزيد فيها.

وأعظـم الصـدق مـاكان في النيـة والإرادة وهـو يرجع إلى الإخلاص ولذلك يقال لمن تعلم العلم وعمل به لأجل الناس بعـد أن يسأل عنه فيذكر بلاءه فيه يقال له: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم[٤] فهو هنا كذب في

---

(١) جزء من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٣٣ من سورة الزمر.

(٤) كمـا قـال النبي صلى الله عليـه وسلم: فـأول من يدعى به رجل جمـع القـرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء ألم أعلمك ما أنزلـت على رسولي؟ قال: بلى يارب، قـال: فماذا عملت فيمـا علمـت، قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت.. "الحديث أخرجه الترمـذى ٥٩٢/٤ كتـاب الـزهد (٣٧) باب مـاجاء في الـرياء والسمعـة (٤٨) برقم ٢٣٨٢ وقال الترمذى: هذا حديث حسـن غريب، وصححه الشيخ الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٢٨١/٢-٢٨٣ برقم (١٩٤٢).

إرادته ونيته.[١]

ومن مواطن الصدق كذلك الصدق في العزم والوفاء به وهو يجنب القلب العقاب الإلٰهى الذى أعده الله لمن أخلف وعده معه قال تعالى: (ومنهم من عٰهد الله لئن ءاتٰنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصٰلحين فلما ءاتٰهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون).[٢]

وقد ذكر تعالى في هذه الآيات وصفين من أخص صفات المنافقين الكذب وإخلاف الوعد وهذان الوصفان مذمومان بكل حال فكيف إذا كانا مع رب العالمين وإسناد إعقابهم النفاق إلى الله تعالى أو إلى البخل قولان للمفسرين مآلهما واحد إلا أن الثانى آدب وذلك أن سنته تعالى في الشر أن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه في القلب كما أن العمل بمقتضى الإيمان يقويه ويزيده رسوخاً وهكذا جميع صفات النفس وأخلاقها وعقائدها تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر عنها.[٣]

ومن مواطن الصدق كذلك القول والعمل فلا يتكلم إلا بحق ولا يجرى لسانه بالكذب أو الإكثار من المعاريض[٤] لأنها قد أقيمت مقام الكذب فيما تقتضيه الحاجة وتمس إليه المصلحة في بعض الأحوال كتأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وكالتخلص من الظلمة والأعداء.[٥]

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٤/٤١٠-٤١١

(٢) الآيات ٧٥-٧٧ من سورة التوبة.

(٣) انظر تفسير المنار ١٠/٥٥٩

(٤) المعاريض: جمع معراض من التعريض وهو خلاف التصريح من القول. النهاية ٣/٢١٢ في مادة (عرض).

(٥) انظر احياء علوم الدين ٤/٤٠٩-٤١٠

وعليه أن يراعى في أقواله أولاً تلك الأقوال التى بينه وبين الله عز وجل كقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين)[١] وقوله: "وجهت وجهى للذي فطر السموت والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العلمين لا شريك له ..."[٢] فهل يصدق من يقولها ثم بعد ذلك يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فيستعين بغير الله أو يذبح لغير الله أو يستغيث بغير الله؟؟

وأما الصدق في العمل فهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لايتصف هو به لا بأن يترك العمل ولكن بإصلاح الباطن حتى يساير الظاهر ويصدقه.[٣]

فالصدق على هذا يدخل في أعمال القلب كلها في الخوف وفي الرجاء والتعظيم والرضا والتوكل والحب وغيرها وقد قال تعالى: (إنما المؤمنون الذينءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجٰهدوا بأموٰلهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصٰدقون).[٣]

وبالجملة فشعائر الدين كلها باطنها وظاهرها هى الطريق إلى تطهير القلوب وصفائها.

قال تعالى: (يٰأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين).[٥]

---

(١) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٥٣٤/١-٥٣٦ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٢٦) برقم (٧٧١/٢٠١).

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٤١٢/٤

(٤) الآية ١٥ من سورة الحجرات.

(٥) الآية ٥٧ من سورة يونس.

وقال كذلك: (وننزل من القرءان ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين)(١)

ولذلك فالبحث عن وسائل أخرى لتطهير القلوب وصقلها غير الكتاب والسنة من أعظم العبث وسوء الأدب مع الخالق البارىء لأن فيه اتهاما لمنهج الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده بالقصور في هذه الناحية التى هى من أعظم النواحى وأهمها لأن صلاح القلب يترتب عليه صلاح جميع الجسد (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وهى القلب).(٢)

فمن المحال(٣) أن يصف الله عز وجل كتابه بصفات عظيمة جليلة تبين أنه قد أوضح كل شىء وشمل كل شىء ثم يهمل أو يقصر في أعظم الأمور وهو إصلاح القلوب التى هى مكان الإيمان.

قال تعالى: (يٰأيها الناس قد جاءكم برهٰن من ربكم وأنزلنا إليكم نوراًمبيناً)(٤)

وقال سبحانه: (فأمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير).(٥)

ومن المحال أيضاً في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا وأمر الناس أن يردوا ماتنازعوا فيه من أمر

---

(١) جزء من الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

(٢) سبق تخريجه. ص ٣

(٣) هذا الأسلوب اقتبسته من مقدمة الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية. انظر مجموع الفتاوى ٥/٦-٧

(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

(٥) الآية ٨ من سورة التغابن.

دينهـم إلى مـابعث به من الكتـاب والحكمـة وهو من يدعـو إلى اللـه وإلى سبيله بإذنه على بصيرة وقد قال صلى الله عليه وسلم: "تركتكـم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك".(١)

فمـن المحال أن يعلم النـاس كل شيء مما يقربهم إلى ربهـم ويجنبهم مزالق الهوى والشبهات ثم يقصـر في بيان مايصلح القلـب ويجنبـه الشرور وهـو القـائل: "ألا إن في الجسـد مضغة إذا صلحت صلـح الجسـد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب".(٢)

---

(١) أخرجه ابن مـاجه في السنن ١٦/١ في المقـدمة باب اتباع سنـة الخلفـاء الراشدين المهـديين (٦) برقم (٤٣) وصححـه الألبانى في صحيح ابن مـاجه ١٣/١ برقم ٤١

(٢) تقدم تخريجه ص ٣ .

الباب الثاني
حديث القرآن عن القلب المريض

وفي هذا الباب ثلاثة فصول:

الفصل الأول: نوعية أمراض القلب.

الفصل الثاني: أسباب أمراض القلب.

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة أمراض القلب.

الفصل الأول
نوعية أمراض القلب

وفي هذا الفصل تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: مرض لا يتألم به صاحبه في الحال.

المبحث الثاني: مرض يتألم به صاحبه في الحال.

تمهيـــد

مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصـوره للحق وإرادته له فيبغض الحق النافع، أو يحب البـاطل الضـار، أو يجتمعـان لـه وهـو الغالب.(١)

وهو نوعان:

نوع لا يتألم به صاحبه في الحال وهو نوعان:

الأول: مرض شبهات.

الثاني: مرض شهوات.

وهـذا النوع هو أعظم النـوعين ألماً ولكن لفساد القلـب لايحس بالألم ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم وإلا فألمه حاضر فيه حاصـل له وهو متوارٍ عنه باشتغـاله بضده، وهذا أخطـر المرضين وأصعبهما وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

ونوع مؤلم له في الحال كالهم والغم والحزن والغيظ: وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعيـة كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسبـاب وما يدفع موجبها مع قيامها، وكما أن القلب قـد يتألم بما يتألم به البـدن ويشقـى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم بما يتألم به القلب ويشقيه مايشقيه.(٢)

وسأتكلم بإذن الله عز وجل في هذا الفصل على هـذين النوعين مفرداً كل نوع بمبحث مستقل.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٩٣/١، وإغاثة اللهفان ١٧/١
(٢) إغاثة اللهفان ١٨/١

المبحث الأول
المرض الذى لايتألم به صاحبه في الحال

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مرض الشبهات.

المطلب الثانى: مرض الشهوات.

المطلب الأول

مـرض الشبهـات

الشبهات جمع شبهة والشبهة الالتباس وأمور مُشْتَبِهةٌ ومُشَبِّهَةٌ: مشكلة يشبه بعضها بعضاً، وشَبَّه عليه خَلَطَ عليه الأمر.(١)

قـال صـاحب المفـردات: الشبهـة هـى أن لا يتميز أحد الشيئين مـن الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى.(٢)

وهي تنقسم إلى قسمين:

الأول: شبهات خفيفة.

الثاني: شبهات متمكنة في قلوب أصحابها.

فأما القسم الأول: فـالمراد به تلـك الوساوس والنزغـات(٣) التى يحاول الشيطـان -أخزاه اللـه- إلقـاءها في قلـوب المؤمنين ليفسـد عليهـم دينهـم.

فـالمؤمن قد يبتلى بوساوس الشيطـان ووساوس الكفـر التى يضيق بها صدره. فعن أبي هريرة رضـى اللـه عنـه قال: جاء ناس مـن أصحـاب النبي صلى اللـه عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا مايتعـاظم أحدنا أن يتكلم به قال: "وقد وجدتموه" قالوا: نعم، قال: "ذاك صريح الإيمان".(٤)

---

(١) انظر اللسان عند مادة (شبه) ١٣/٥٠٤-٥٠٥

(٢) المفردات عند مادة (شبه) ص٢٥٤

(٣) الـوسوسة: الخطـرة الرديئة، والنزغ دخول في أمـر لإفساده. المفـردات عنـد مادة (وسوس) ص٥٢٢ و(نزغ) ص٤٨٨

(٤) أخرجه مسلم في صحيحـه ١١٩/١ كتـاب الإيمان(١) باب بيــان الوسوسة في الإيمان ومـايقوله من وجدها (٦٠) رقـم الحديث (١٣٢/٢٠٩) وفي رواية لـه (فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله) المرجع نفسه رقم الحديث (١٣٤/٢١٢).
وفي رواية لـه أيضـا: "يأتى الشيطـان أحدكم فيقول: مـن خلـق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته" المرجع نفسه ١٢٠/١ رقم الحديث (٢١٤). ==

والمقصود أن حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد، والصريح الخالص كاللبن الصريح وإنما صار صريحاً لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها فخلص الإيمان فصار صريحاً.(١)

ولابد لعامة الخلق من هذه الوساوس فمن الناس من يجيبها فيصير كافراً أو منافقاً ومنهم من قد غمرت قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا وإما أن يصير منافقاً ولهذا يعرض للناس من الوساوس في الصلاة مالا يعرض لهم إذا لم يصلوا، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربة والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلين مالا يعرض لغيرهم، ويعرض للخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ماليس عند غيرهم، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوب الشيطان بخلاف

(=) وفي رواية عند الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله إنى أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة" رواه الإمام أحمد في المسند ٢٣٥/١ وصححه الشيخ الألبانى إسناده كما في الإيمان ص٢٦٨

(١) الإيمان ٢٦٨ وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٣٤٨-٣٤٩
وقد ذكر النووى رحمه الله ذلك أيضاً ثم قال: وقيل معناه إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد فعلى هذا معنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان أو الوسوسة علامة محض الإيمان. شرح النووى على صحيح مسلم ١٥٤/٢

المتـوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة فإنه عدوهم يطلـب صدهم عن الله قال تعـالى: (إن الشيطـٰن لكم عدو فـاتخذوه عدوا)[١] ولهذا أمر قارئ القـرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء قال تعالى: (وننزل من القرءان ماهو شفاء ورحمـة للمؤمنين ولا يزيد الظـٰلمين إلا خسـارا)[٢] وقـال تعـالى: (هذا بيـان للناس وهدى ومـوعظة للمتقين)[٣] وقـال تعالى: (هـدى للمتقين)[٤] وقـال تعـالى: (فأما الـذين ءامنوا فزادتهـم إيمـٰنا وهـم يستبشرون).[٥]

وهـذا ممـا يجده كـل مؤمـن في نفسـه، فالشيطان يريد بوسـاوسه أن يشغـل القلـب عن الانتفاع بالقـرآن فأمر الله القارىء إذا قـرأ القـرآن أن يستعيـذ منـه، قال تعالى: (فـإذا قـرأت القرءان فاستعـذ باللـه مـن الشيطـٰن الـرجيم إنه ليـس لـه سلطـٰن على الـذين ءامنـوا وعلى ربهـم يتـوكلون إنما سلطـٰنه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون).[٦]

فـإن المستعيذ بالله مستجير به لاجىء إليـه مستغيـث به مـن الشيطـن فيعيـذه الله من الشيطان ويجيره منـه ولذلك قال تعـالى: (وإما ينزغنك من الشيطـٰن نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم).[٧]

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن رجل تملكه

(١) جزء من الآية ٦ من سورة فاطر.
(٢) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران.
(٤) جزء من الآية ٢ من سورة البقرة.
(٥) جزء من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.
(٦) الآيات ٩٨-١٠٠ من سورة النحل.
(٧) الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

الغضب: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".[١] فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير، لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعندما يأمره الشيطان بالسيئات، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لايزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا حتى يقول من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولنيته".[٢] فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه.[٣]

فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ماأمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به، وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلابد من مشافهته بالدليل العقلي كما قال صلى الله عليه وسلم للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لاعدوى" فقال الأعرابي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "فمن أعدى الأول"[٤] فاستأصل الشبهة من أصلها".[٥]

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ١١٢/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب الحذر من الغضب... (٧٦) رقم الحديث (٦١١٥) ومسلم في صحيحه ٢٠١٥/٤ كتاب البر (٤٥) باب فضل من يملك نفسه... (٣٠) رقم الحديث (٢٦١٠/١٠٩).

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧٥

(٣) انظر الإيمان ص٢٦٨-٢٧٠

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٥٠/٤ كتاب الطب (٧٦) باب لاهامة (٥٣) رقم الحديث (٥٧٧٠) ومسلم في صحيحه ١٧٤٢/٤-١٧٤٣ كتاب السلام (٣٩) باب لاعدوى... (٣٣) رقم الحديث (٢٢٢٠/١٠١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٩/٧

وأما القسم الثاني: فهو تلك الشبهات المتمكنة في قلوب أصحابها -نسأل الله السلامة والعافية-: وهي تلك الشبه المعارضة لأصل النبوة، والشبه المعارضة لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالأولى: المعارضة لأصل النبوة كالشبه القادحة في نبوة الأنبياء ووجود الرب ومعاد الأبدان وهي التي يسميها أصحابها حججاً عقلية.[(١)]

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنه قد أورد على القدح في النبوات ثمانون شبهة أو أكثر وهي كلها عقلية، وأورد على إثبات الخالق سبحانه وتعالى نحو أربعين شبهة كلها عقلية وأورد على المعاد نحو ذلك.[(٢)]

ولا والله ماهي في سوق العقلاء برائجة ولا هي بسلعة رابحة، وما هي إلا شجرة بلا جذور، وبناء بلا قاعدة (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار).[(٣)]

وهذه الفتنة العظيمة -فتنة الشبهات- مآلها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال.[(٤)]

والثانية: الشبه المعارضة لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم. ومما يجب علمه أن الآيات والبراهين اليقينية والأدلة القطعية قد دلت على صدق الرسل وأنهم لايخبرون عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه إلا بالحق المحض فهم صادقون فيما يبلغونه عن الله في الطلب والخبر وهذا

---

(١) انظر الصواعق المرسلة ٨٥٦/٣

(٢) المرجع السابق نفسه ٨٥٧/٣

(٣) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٤) انظر إغاثة اللهفان ١٦٥/٢

أول درجات الإيمان.

ولـذلك فكل ماعارض ما أخبر به الـرسول فهو باطـل بل هـو حجج داحضة وشبه فاسدة من جنس شبهة السفسطة(١)

وقـد نزهت قلمي وبحثي عن بسط القول في ذلك لظهـور بطلانه ولأن بسط ذلك يطول مما لايناسب هذا المقام.(٢)

وأما المروجون لهذه الشبه الخبيثة فيجب الحذر منهـم وتجريد الأقلام والألسنـة عليهـم كمـا قال ابن عبـاس رضـى اللـه عنهمـا في قـوله تعـالى: (فيتبعـون ماتشابه منـه)(٣): فيحملـون المحكـم على المتشـابه والمتشـابه على المحكم ويلبسون، فلبس الله عليهم.(٤)

وقـد أخرج الشيخان عن عـائشة رضى الله عنها قـالت: "تلا رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم هـذه الآية (هـوالذى أنزل عليـك الكتٰـب منـه ءايٰت محكمٰت هن أم الكتٰـب وأخر متشٰبهٰـت، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعـون مـاتشابه منـه ابتغـاء الفتنـة وابتغـاء تأويلـه -إلى قـوله- أولـوا الألبـٰب) قـالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فـإذا رأيت الذيـن

(١) السفسطة: ثلاثة أنواع:
أحدها: التجاهل وهو: لاأدرى وأصحابه يسمون اللاأدرية.
والثانى: النفي والجحود.
والثـالث: قلب الحقائق وهو جعـل الموجود معدوماً، والمعـدوم مـوجوداً، إما في نفس الأمر أو بحسب الاعتقاد.
الصواعق المرسلة ٢/٦٤٩-٦٥٠

(٢) وقـد ذكر ابن القيم رحمه اللـه في كتاب الصواعق المرسلـة كثيراً منهـا فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه.

(٣) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦٥/٢

يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم".[١]

وهؤلاء الزائغون لايزيدهم ما أنزل الله عز وجل إلا مرضاً على مرضهم قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمٰناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيمٰناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كٰفرون).[٢]

قال ابن كثير رحمه الله: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم أى: زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: (وننزل من القرءان ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظٰلمين إلا خسارا)[٣] وقال تعالى: (قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)[٤] وهذا من جملة شقائهم أن مايهدى القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم كما أن سَيِّء المزاج لو غذى بما غذى به لايزيده إلا خبالاً ونقصاً.[٥]

وماذاك إلا لأن الله عز وجل لما علم مرض قلوبهم وخبث نفوسهم زادهم مرضاً إلى مرضهم (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً)[٦] تقدمة لما سينالهم من العذاب الأليم في الآخرة(ولهم عذاب أليم بماكانوا يكذبون).[٧]

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٠٧/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة آل عمران (٣) باب (منه آيات محكمات) (١) رقم الحديث (٤٥٤٧) ومسلم في صحيحه ٢٠٥٣/٤ كتاب العلم (٤٧) باب النهى عن اتباع متشابه القرآن... (١) رقم الحديث (٢٦٦٥/١).

(٢) الآيتان ١٢٤-١٢٥ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

(٤) جزء من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٤

(٦) جزء من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٧) جزء من الآية نفسها.

المطلب الثانى

مـرض الشهـــوات

شَهِيَ الشيءَ وشَهاه شهوة واشتهاه وتَشَهّاه: أحبه ورغب فيه.(١)

وأصـل الشهـوة نزوع النفـس إلى مـاتريده وذلـك في الـدنيا ضربان: صادقة، وكاذبة.

فالصادقة: مايختل البدن من دونها كشهوة الطعام عند الجوع.

والكاذبة: مـالايختل مـن دونها، وقـد يسمى المشتهى شهـوة وقـد يقال للقـوة التى تشتهـي الشيء شهـوة وقـوله: (زين للنـاس حب الشهـوٰت)(٢) يحتمل الشهوتين وقوله: (واتبعـوا الشهـوٰت)(٣) فهذا من الشهوات الكاذبة ومن المشتهيات المستغنى عنها، وقيل رجل شهوان وشهـواني وشىء شهى.(٤)

وقـد جمع الله عز وجل بين مرضي الشبهة والشهـوة في قوله تعالى: (كـالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموٰلاً وأولـٰداً فـاستمتعوا بخلٰقهم فـاستمتعتم بخلـٰقكم)(٥) أي تمتعـوا بنصيبهـم من الدنيا وشهـواتها، والخلاق هـو النصيـب المقـدر، ثم قال: (وخضتم كـالذى خاضـوا)(٦) فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى مايحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إمـا أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

---

(١) اللسان عند مادة (شها) ١٤/٤٤٥

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية ٥٩ من سورة مريم.

(٤) المفردات عند مارة (شها) ص٢٧٠

(٥) جزء من الآية ٦٩ من سورة التوبة.

(٦) جزء من الآية السابقة نفسها.

فالأول: هو البدع وما والاها.

والثاني: فسق الأعمال.

فالأول: فساد من جهة الشبهات. **والثاني:** من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه.[١]

وكانوا يقولون كذلك: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.[٢]

واعلم أن من وجد في نفسه ميلاً إلى الشهوة فهو مريض القلب متبع لهواه فالهوى هو ميل النفس إلى الشهوة.[٣]

وقد سمى الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية.[٤]

وأصل الضلال اتباع الظن وماتهوى الأنفس كما قال تعالى فيمن ذمهم: (إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى).[٥]

فهذا وصف للكفار فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب.[٦]

وقد حذر سلف هذه الأمة من مجالسة أهل الأهواء ومصاحبتهم

---

(١) انظر إغاثة اللهفان ٢/١٦٦-١٦٧

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المفردات عند مادة هوى ص٥٤٨

(٤) المرجع نفسه.

(٥) جزء من الآية ٢٣ من سورة النجم.

(٦) رسالة بعنوان الهوى وأثره في الخلاف لفضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان ص(٧).

وذلـك لعظـم خطـرهم قال ابن عبـاس رضـى الله عنهمـا: "لاتجالـس أهـل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب".[١]

وقـال مجاهـد: "لاتجالسـوا أهـل الأهـواء فـإن لهـم عـرة[٢] كعـرة الجرب".[٣][٤]

وقال أبوقلابة:[٥] "لاتجالسـوا أهل الأهواء ولاتجادلوهـم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ماتعرفون".[٦]

وقد ذم الله اليهود لاتباعهم لشهواتهم مما أدى بهـم إلى الكفر بالله عز وجل قال تعالى: (أفكلمـا جاءكم رسول بما لاتهـوى أنفسكـم استكبرتم ففـريقاً كذبتم وفريقاً تقتلـون)[٧] وكمـا أن اتباع الهوى والشهـوات أصل الكفر فهو كذلك أصل لكل معصية لله عز وجل ولكل بدعة.

واعلم أن الصبر عـن الشهـوة أسهل من الصبر على مـاتوجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقـوبة، وإما أن تقطع لذة أكمـل منهـا، وإما أن تضيـع وقتاً إضاعته حسرة وندامـة، وإما أن تثلم عرضـاً توفيره أنفـع للعبد

---

(١) أخرجه ابن بطه في الإبانة ٤٣٨/٢ برقم (٣٧١).

(٢) العـرة بالضـم قروح في أعناق الفصلان وداء يتمعـط منـه وبر الإبل واستعـرهم الجرب فشافيهم. القاموس المحيط عند مادة (عرر) ص٥٦٢

(٣) الجرب: بثر يعلو أبدان الناس والإبل. اللسان عند مادة (جرب) ٢٥٩/١

(٤) أخرجه ابن بطه في الإبانة ٤٤٢/٢ برقم (٣٨٩).

(٥) هـو عبـدالله بن زيد بن عمـرو أو عـامر بن ناتل بن مـالك أبو قلابة الجرمـي البصري كان ثقة إماماً كثير الحديث حدث عن أنس بن مـالك وغيره، مات سنة أربع أو خمـس ومـائة، وقيـل غير ذلـك. انظـر سير أعلام النبلاء ٤٦٨/٤، وشذرات الذهب ١٢٦/١

(٦) أخرجه ابن بطـة في الإبانة ٤٣٧/٢ برقـم (٣٦٩) واللالكـائي في شـرح أصـول اعتقاد أهل السنة ١٣٤/١ برقم (٢٤٤).

(٧) الآية ٨٧ من سورة البقرة.

من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً أو جاهاً قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لايقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة وإما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لاتزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.(١)

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشقاء والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغاً في طلب الكمال والفضل كانت ضعفاً وعجزاً ومهانة.(٢)

ومن أعظم الأمراض القلبية الناتجة عن الشهوات مايلي:

أولاً: الكبر:

الكبر بالكسر والكبرياء العظمة والتجبر وقد تكبر واستكبر وتكابر والتكبر والاستكبار: التعظم.

والاستكبار هو الامتناع عن قبول الحق معاندة.(٣)

وهو داء عضال يصيب القلب فيمرضه مرضاً خطيراً قد يورده حمام الموت إن لم يتدارك العبد نفسه بالتوبة والرجوع إلى الله عز وجل وعلاجه بالأدوية النافعة.

---

(١) انظر الفوائد ص٢٥٠

(٢) انظر الفوائد ص٢٥١

(٣) اللسان عند مادة كبر ١٢٧/٤، ١٢٩

وأول من اتصف بهذا الوصف الذميم إبليس عليه لعنة الله قال تعالى: (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكـٰفرين).[١]

ثم تبعه على هذا الوصف اتباعه من الطواغيت الجبابرة كفرعون وهامان ومن سار على نهجهم، قال تعالى عن فرعون: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق).[٢]

فكل من كان فيه شيء من هذا الوصف كان له نصيب من مشابهتهم بقدر مافيه من هذا الوصف الذميم.

فإذا جامع هذا الوصف الإيمان كان كبيرة من الكبائر لأنه مماتوعد الله عز وجل عليه بالنار كما في قوله تعالى: (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين).[٣]

وإذا باين الإيمان لم يدخل صاحبه الجنة كما في قوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)[٤] ومن هذا كبر إبليس وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان.[٥]

ثانياً: الحسد:

حسده يحسده ويحسده حسداً وحسَّدَه إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته إ و يسلبها هو.[٦]

وقد ذكرشيخ الإسلام ابن تيميةرحمه الله[٧] أن التحقيق أن الحسد

---

(١) جزء من الآية ٣٤ من سورة البقرة.
(٢) جزء من الآية ٣٩ من سورة القصص.
(٣) جزء من الآية ٦٠ من سورة الزمر.
(٤) جزء من الآية ٦٠ من سورة غافر.
(٥) انظر مجموع الفتاوى ٦٧٧/٧ وما بعدها.
(٦) اللسان عند مادة (حسد) ١٤٨/٣
(٧) انظر مجموع الفتاوى ١١١/١٠ إلى ١٢٥

هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود **وهو نوعان**:

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقاً فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضاً في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذى كان في نفسه وإن كان هذا الزوال مؤقتاً، كمن عولج بما يسكن وجعه والمرض باق فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، والحاسد ليس له غرض في شيء معين، لكن نفسه تكره ماأنعم الله به على غيره ولهذا قال من قال: إنه تمنى زوال النعمة فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطه ففي الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار".(١)

فهذا الحسد الذى نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا في موضعين هو الذى سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

ومن الحسد المذموم ماذكره الله عز وجل عن اليهود في قوله: (ود كثير من أهل الكتٰب لو يردونكم من بعد إيمٰنكم كفاراً حسداً من عند

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٤٦/٣ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب اغتباط صاحب القرآن (٢٠) رقم الحديث (٥٠٢٥) ومسلم في صحيحه ٥٥٨/١ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب فضل من يقوم بالقرآن وتعليمه... (٤٧) رقم الحديث (٨١٥/٢٦٦).

أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) [١] يودون أي يتمنون ارتدادكم حسداً، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ماتبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ماحصل، بل مالم يحصل لهم مثله حسدوكم.

وكذلك في الآية الأخرى (أم يحسدون الناس على مآءاتٰهم الله من فضله فقد ءاتينآءال إبرهيم الكتٰب والحكمة وءاتينٰهم ملكاً عظيماً، فمنهم من ءامن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً).[٢]

فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد. والكاره لتفضيله، المحب لمماثلته منهى عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لابأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لاينظر إلى حال الغير أفضل.

ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد يعفو ويصفح عنه كما قال تعالى: (ود كثير من أهل الكتٰب لو يردونكم من بعد إيمٰنكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره).[٣]

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس ولهذا قيل: ماخلا جسد من حسد لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه.[٤]

---

(١) جزء من الآية (١٠٩) من سورة البقرة.
(٢) الآيتان (٥٤-٥٥) من سورة النساء.
(٣) جزء من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.
(٤) انظر مجموع الفتاوى ١١١/١٠ إلى ١٢٥

ثالثاً: البخـــل:

البُخْل والبَخَل: لغتان والبَخْل والبُخول: ضد الكرم.[١]

والبخـل هو إمساك المقتنيـات عمالا يحق حبسها عنـه ويقـابله الجود، والبخيل الذى يكثر من البخل **وهو نوعان:**

بخل بقنيات نفسه. وبخل بقنيات غيره وهو أكثرهما ذماً، ودليلنا على ذلك قوله تعالى: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل).[٢][٣]

والبخـل المنهـى عنه في هـذه الآية يعم جميع أنواع الإحسـان والبر وبذل المال في وجوه الخير وليس مخصوصاً بنوع واحد منهـا كما يبين ذلك سيـاق الآيات حيث إنه نهى عنه بعد أن ذكر الله عـز وجل العبادة وعدم الشـرك والإحسـان إلى الـوالـدين وذى القـربي واليتـامى والمسـاكين وابن السبيل فكل من منع المال أن ينفق في وجوهه المشروعة وكل من كتم علماً حملـه أو قصر في بر الوالدين والإحسـان إليهما أو الإحسـان إلى الفقـراء والمسـاكين وذوى الحاجات فهـو بخيـل داخل في الآية وكـل مـن أمر غيره بشىء من ذلك فهو أيضاً داخل في الآية.[٤]

ويصـح أيضاً إن يقال إن السيـاق في البخل بالمال وإن كـان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء وكذا الآية التى بعدها وهى قوله تعالى: (والذين ينفقون أمولـهم رئاء الناس) فذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين

---

(١) اللسان عند مادة (بخل) ٤٧/١١

(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة النساء.

(٣) المفردات عند مادة (بخل) ص٣٨

(٤) انظـر جامـع البيان ٨٥/٥ إلى ٨٧، وتفسير القـرآن العظيم ٢٦٥/٢-٢٦٦، وتفسير المنار ٩٧/٥ إلى ٩٩

المرائين الـذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكـرم ولا يريدون بذلك وجه الله.(١)

واعلم أن البخل مرض خطير قد يوصل إلى نتائج لاتحمـد عقباها قال تعـالى: (ومنهـم من عـٰهد اللـه لئن ءاتـٰنا من فضلـه لنصـدقن ولنكونن من الصـٰلحين فلمـا ءاتـٰهم من فضلـه بخلوا به وتولوا وهـم معرضون فأعقبهم نفـاقاً في قلـوبهم إلى يوم يلقـونه بما أخلفـوا اللـه مـاوعدوه وبما كـانوا يكذبون).(٢)

فانظر إلى عاقبة البخل السيئة نفاق ملازم لصاحبـه إلى أن يلقى الله وبعد ذلك (سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة).(٣)

فعـن أبي هريرة رضى الله عنـه قال: قال رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم: "مـن آتاه اللـه مـالاً فلم يؤد زكـاته مثـل لـه شجـاعاً أقرع له زبيبتان(٤) يطـوقه يوم القيـامة، يأخذ بلهـزمتيه -يعني بشـدقيه- يقـول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: (ولا يحسبن الـذين يبخلـون بما ءاتـٰهم الله من فضله) إلى آخر الآية" (٥)(٦).

وقـد قال صلى الله عليه وسلم: "اتقـوا الظلم، فـإن الظلم ظلمـات يوم القيـامة، واتقوا الشح، فـإن الشح أهلك من كان قبلكـم، فحملهـم على أن يسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم".(٧)

---

(١) وهـذا هو الذى اختاره ابن كثير رحمـه الله. انظر تفسير القـرآن العظيم ٢/٢٦٦
(٢) الآيات ٧٥-٧٧ من سورة التوبة.
(٣) جزء من الآية ١٨٠ من سورة آل عمران.
(٤) زبيبتان: الزبيبة نكتة سوداء فوق عين الحية وقيل هما نقطتـان تكتنفان فاها وقيل هما زبدتان في شدقيها. انظر النهاية ٢/٢٩٢ مادة (زبب).
(٥) الآية (١٨٠) من سورة آل عمران.
(٦) أخرجه البخـارى في صحيحه ٣/٢١٢ كتـاب التفسير ٦٥ سـورة آل عمـران (٣) باب (ولايحسبن الـذين يبخلـون بماءاتاهـم اللـه من فضلـه) رقـم الحديث ٤٥٦٥
(٧) أخرجه مسلم في صحيحـه ٤/١٩٩٦ كتـاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب تحريم الظلم (١٥) رقم الحديث (٥٦/٢٥٧٨).

رابعاً: العشــــق:

العشق فرط الحب[1] وهو مذموم مطلقاً ولا يستعمل في العرف إلا في محبـة الإنسان لامرأة أو صبي مقرون بالفعل المحرم مـن نظر أو لمس أو غير ذلك من الأفعال المحرمة.

ولايطلق في حق الله تعالى فلايقال إنه يعشق ولايقال عشقه عبده.[2]

ولايطلق كذلك في محبة الأنبياء والصالحين أو الأهل أو المال.

والعشـق مرض فتاك يفسـد دين صاحبه وعرضه ثم هـو يفسـد عقله وجسمه.

قـال ابن القيم رحمه اللـه تعالى: فأصحاب العشـق الشيطـاني لهم من تولى الشيطان والإشراك به بقدر ذلك، لما فيهم من الإشراك بالله ولما فاتهم من الإخلاص له، ففيهم نصيـب مـن اتخاذ الأنداد، ولهـذا ترى كثيراً منهـم عبـداً لذلك المعشوق متيماً فيـه، يصرح في حضوره ومغيبـه: أنه عبده، فهو أعظـم ذكراً له من ربه، وحبـه في قلبه أعظم من حب اللـه فيـه، وكفى به شاهداً بذلك على نفسه (بل الإنسٰن على نفسه بصيرة ولـو ألقى معاذيره)[3] فلـو خير بين رضـاه ورضا اللـه لاختار رضا معشوقه على رضـا ربه، ولقـاء معشـوقه أحب إليـه من لقاء ربه وتمنيـه لقـربه أعظـم مـن تمنيـه لقرب ربه وهـربه من سخطه عليه أشـد من هربه من سخط ربه، ويسخـط ربه بمرضـاة

---

(١) اللسان عند مادة (عشق) ٢٥١/١٠

(٢) وسبب ذلك أمران:
الأول: لعدم ورود النص به.
الثـاني: أن العشق إفراط في المحبة والله تعالى لايوصف بالإفـراط في الشيء ولا يبلـغ عبـده مايستحقه من حبـه فضلاً عن أن يقال أفرط في حبـه. انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص٢٨

(٣) سورة القيامة الآيتان (١٤-١٥).

معشـوقه ويقدم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه فـإن فضل من وقته فضلـة وكـان عنده قليل من إيمان صـرف تلك الفضلـة في طـاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كلـه فيها وأهمل أمر الله تعالى،يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله -إن جعل له- كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه، وهمه ووقته، وخالص ماله، وربه على الفضلـة، قـد اتخذه وراءه ظهـريا وصار لذكـره نسيـاً، إن قام إلى الصلاة فلسـانه يناجيه وقلبه يناجى معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلـة ووجه قلبه إلى المعشوق...(١)

وقـد قال تعالى: (فلاتخضعن بالقول فيطمع الذى في قلبـه مرض وقلن قولاً معروفـاً)(٢) ومـن في قلبـه مرض الشهـوة وإرادة الصـورة متى خضـع المطلوب طمع المريض والطمع يقوى الإرادة والطلـب، ويقوى المرض بذلك بخلاف ماإذا كان آيساً من المطلوب فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعـف الحب فإن الإنسان لايريد أن يطلـب ماهو آيس منـه فلايكـون مع الإرادة عمـل أصلاً، بل يكـون حديث نفـس إلا أن يقترن بذلـك كلام أو نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك.(٣)

والله عـز وجل إنما حكـى عشـق الصور في القـرآن عـن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز وكانت مشركة على دين زوجهـا وكانوا مشركين.(٤)

وحكاه عن قوم لوط عليه الصلاة والسلام وكانوا

---

(١) انظر اغاثة اللهفان ١٥١/٢-١٥٢، الداء والدواء ص٢٥٤

(٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.

(٣) انظر الفتاوى ١٣١/١٠-١٣٢

(٤) كما في سورة يوسف في قوله تعالى: (وروودته التى هو في بيتهـا عن نفسه وغلقت الأبـواب وقالت هيت لك) (يوسـف: ٢٣) وقوله تعالى: (وقـال نسوة في المدينة امرأت العزيز ترود فتـها عن نفسه قد شغفها حبا) (يوسف: ٣٠).

مشركين.[١]

وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص فقال تعالى: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) [٢][٣]

وأما محبة الزوجة والأولاد وغير ذلك من أنواع المحبة المباحة فإنها لاتسمى عشقاً ولا دخل لها بمرض القلب بل إنها من تمام صحة القلب وكماله.

واعلم أنه لايبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق:

أحدهما: إنابته إلى الله ومحبته له فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء فلاتبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

الثاني: خوفه من الله فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه.[٤]

خامساً: الظلم:

الظلم وضع الشيء في غير موضعه[٥] المختص به إما بنقصان أو زيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه.[٦]

وهو يقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفى الذنب الصغير ولذلك قيل لآدم عليه الصلاة والسلام في تعديه

---

(١) كما في قصة قوم لوط التي ذكرت في عدد من سور القرآن الكريم.
(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة يوسف.
(٣) انظر إغاثة اللهفان ١٥٠/٢، والداء والدواء ص٢٥٠ إلى ٢٥٣
(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٣٥/١٠-١٣٦
(٥) اللسان عند مادة (ظلم) ٣٧٣/٢
(٦) المفردات عند مادة (ظلم) ص٣١٥

ظالم[١] ولإبليس ظالم[٢] وإن كان بين الظلمين بون بعيد.[٣]

والظلم ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم)[٤] وإياه قصد بقوله تعالى: (ألا لعنة الله على الظٰلمين)[٥] (والظٰلمين أعد لهم عذاباً أليما)[٦] وقال أيضاً: (فمن أظلم ممن كذب على الله).[٧]

وقد أخرج البخارى رحمه الله عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "لما نزلت (الذين ءامنوا لم يلبسوا إيمٰنهم بظلم)[٨] قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّنا لم يَظْلِم؟ فأنزل الله (إن الشرك لظلم عظيم).[٩]

الثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظٰلمين)[١٠]

---

(١) كما في قوله تعالى: (ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) (البقرة: ٣٥) وقوله تعالى: (قالاربنا ظلمنا أنفسنا) (الأعراف: ٢٣).

(٢) كما في قوله تعالى: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... وذلك جزاء الظالمين) (الحشر: ١٦-١٧).

(٣) انظر المفردات عند مادة (ظلم) ص٣١٥ والظلم أنواع متغايرة وقد بوب البخارى باب ظلم دون ظلم (٢٣) كما في كتاب الإيمان (٢) ٢٧/١

(٤) جزء من الآية ١٣ من سورة لقمان.

(٥) جزء من الآية ١٨ من سورة هود.

(٦) جزء من الآية ٣١ من سورة الإنسان.

(٧) جزء من الآية ٣٢ من سورة الزمر.

(٨) جزء من الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

(٩) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٧/١ كتاب الإيمان (٢) باب ظلم دون ظلم (٢٣) رقم الحديث (٣٢).

(١٠) الآية (٤٠) من سورة الشورى.

وبقـوله تعالى: (إنما السبيـل على الذين يظلمـون النـاس)[١] وبقـوله تعالى: (ومن قتل مظلوماً)[٢]

وهو الذى عناه رسولنا صلى الله عليه وسلم بقولـه: "من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طوقه من سبع أرضين".[٣]

ومـن أكبر الظلم اليمين الفاجرة على حق عليه، قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقدأوجب الله له النار" قيل يارسول الله وإن كان شيئاًيسيراً؟ قال: "وإن كان قضيباً من أراك".[٤]

ويدخل في هـذا الباب الغـال[٥] وجاحد الـدين والمكـاس[٦] وقاطع الطـريق والسـارق والخائن ومـن استعـار شيئاً فجحـده ومـن طفـف الوزن والكيـل ومن التقط مالاً فلم يُعَـرِّفْه ومن باع شيئاً فيـه عيـب فغطاه والمقامر وغير ذلك.[٧]

الثالث: ظلم بينـه وبين نفسـه وإياه قصـد بقـوله تعـالى: (فمنهـم ظـالم لنفسه)[٨] وقوله تعالى: (قال رب إني ظلمت نفسي)[٩] وقوله تعالى:

---

(١) جزء من الآية ٤٢ من سورة الشورى.

(٢) جزء من الآية ٣٣ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه البخـارى في صحيحه ٤١٩/٢ كتاب بدء الخلق (٥٩) باب مـاجاء في سبع أرضين (٢) رقم الحديث ٣١٩٥ ومسلم في صحيحه ١٢٣٢/٣ كتـاب المساقاة (٢٢) باب تحريم الظلم... (٣٠) رقم الحديث (١٦١٢/١٤٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١٢٢/١ كتاب الإيمان (١) باب وعيد من اقتطع حق مسلم (٦١) رقم الحديث (١٣٧/٢١٨).

(٥) الغال: الغلول هو الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبـل القسمة. انظر النهاية ٣٨٠/٣ مادة (غلل).

(٦) المكـس: الجبـاية وفاعله مكـاس وقـد غلب استعمال المكـس فيمـا يأخذه أعـوان السلطـان ظلماً عند البيع والشراء. انظر المصباح المنير عنـد مادة (مكس) ص٢٢٠

(٧) انظر الكبائر للذهبي ص٨٨

(٨) جزء من الآية ٣٢ من سورة فاطر.

(٩) جزء من الآية ١٦ من سورة القصص.

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله)[١] وقوله تعالى: (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه).[٢]

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها فإذا زاحمتها حقوق ربه فتارة وتارة فمرة يأخذ بالرخصة، ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة، فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لايعدم منه فضله وعدله.[٣]

وكل هذه الأنواع الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس فإن الإنسان بمجرد همه بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا الظالم أبداً مبتدىء في الظلم ولهذا قال تعالى: (وماظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون)[٤] وقال كذلك: (وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).[٥][٦]

ولعل ماذكرت من الأمثلة فيه الكفاية فإن طول هذا الموضوع لايسمح بالتوسع في مباحثه.

---

(١) جزء من الآية ٦٤ من سورة النساء.
(٢) جزء من الآية ٢٣١ من سورة البقرة.
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣١٣
(٤) جزء من الآية ١١٧ من سورة آل عمران.
(٥) جزء من الآية ٥٧ من سورة البقرة.
(٦) انظر المفردات عند مادة (ظلم) ٣١٦

ومـن الأمـراض القلبيـة مـايشتـرك كـل مـن الشبهات والشهوات فـي إثارتهـا وتقـويتها وفيمايلى سأتكلم على أحدها: وهو **الجهل**.

والجهل نقيض العلم.[١]

وهو على ثلاثة أضرب:

الأول: خلو النفس من العلم وهذا النوع يسهل التخلص منه وصاحبه لايجادل ولا يمارى بل تجده يطلب الحق ويقبله ويعمل به.

وقـد تجاوز الله عز وجل لهـذه الأمة ماعملته مـن مخالفة شرعية إذا كان سبب ذلك خلو النفس مـن العلم قـال صلى الله عليـه وسلم: "إن اللـه تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".[٢]

وهذا النوع هو المعنى بقوله تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيمٰهم)[٣] أى من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لايعرف حالهم أنهم أغنياء.[٤]

وهـذا النـوع هو أحد أسبـاب مـرض القلب وسيأتى الكلام عليـه في موضعه بإذن الله عز وجل.

الثاني: اعتقـاد الشيء بخلاف مـاهو عليه وهذا النـوع ناتج عن مرض الشبهات.

كمـن يؤول صفات الله عز وجل فيرى مثلاًأن اليـد في قـوله تعالى: (لما خلقت بيـدى)[٥] بمعنى القـوة ويعتقـد صحة ذلك متأثراً بشبهـات أهل

---

(١) اللسان عند مادة جهل.

(٢) أخرجه ابن مـاجه في السنن ٦٥٩/١ كتـاب الطلاق (١٠) باب طلاق المكـره والناسي (١٦) رقم الحديث (٢٠٤٣) وصححه الشيخ الألبانى في صحيح ابن ماجه ٣٤٧/١ برقم (١٦٦٢).

(٣) جزء من الآية (٢٧٣) من سورة البقرة.

(٤) معالم التنزيل ٢٥٩/٣

(٥) جزء من الآية ٧٥ من سورة ص.

الكلام، وهذا النوع هو مايطلق عليه (الغي) وهو الضلال والخيبة.

قال صاحب المفردات: الغى جهل من اعتقاد فاسد[١] قال تعالى: (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى).[٢]

فذكر أولاً عموم الضلال ثم خصص الجهل الناتج عن الشبهات ثم الجهل الناتج عن الشهوات والأهواء.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ماحقه أن يفعل سواءً اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة متعمداً ومن ذلك قوله تعالى: (قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجٰهلين).[٣]

وهذا الضرب قد يكون ناتجاً عن شهوة أو عن شبهة أو قد يكون ناتجاً عنهما معاً. فمثال الأول قوله تعالى: (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون).[٤]

وقوله تعالى: (قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جهلون).[٥] فإتيان قوم لوط الرجال شهوة من دون النساء ومافعله إخوة يوسف به إنما كان مصدره الهوى والتشهي بدليل قوله تعالى في قوم لوط بعد أن وعظهم نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجواءال لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون).[٦]

---

(١) المفردات عند مادة (غوى) ص٣٦٩

(٢) الآيات ١-٣ من سورة النجم.

(٣) جزء من الآية ٦٧ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٥٥ من سورة النمل.

(٥) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

(٦) الآية ٥٦ من سورة النمل.

وبدليـل قـول أخي يوسـف لإخوته (ألم تعلمـوا أن قـد أخذ عليكـم موثقاً من اللـه ومن قبل مافـرطتم في يوسف)[١] ومثال ماكان عـن شبهة ماتقدم من تعطيل أهل الكلام لأسماء الله عـز وجل وصفاته، ومثال ماكان عن كليهما قوله تعـالى: (فتبينـوا أن تصيبـوا قـوماً بجهـٰلة)[٢] أى بشبهـة أو بشهـوة من طلب مـال أو رئاسـة أو سمعـة أو غير ذلـك.

---

(١) جزء من الآية ٨٠ من سورة يوسف.

(٢) جزء من الآية ٦ من سورة الحجرات.

المبحث الثاني
المرض الذي يتألم به صاحبه في الحال

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الحزن والهم والغم.

المطلب الثاني: الغضب.

المطلب الثالث: الغيظ.

المطلب الأول

الحـزن والهـم والغـم

وهذه الأمراض الثلاثة متقاربة المعنى إلا أن بينهما فروقاً دقيقة فالحزن نقيض الفرح[١]، والحُزْن والحَزَن خشـونة في الأرض وخشونة في النفـس لما يحصل فيها من الغم.[٢]

وهـو قرين الهم فكلاهما الألم الوارد على القلب إلا أن الحزن يطلـق على مـاكان لأمر مضى والهم على ماكان على مايستقبـل ولهذا قرنا في قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن" [٣][٤].

وأما الغم فهو الألم الذى يصيب القلب من الأمر الذى يسوء وإن لم تتبين حقيقتـه أو سببه أو لايدرى كيف يكون المخرج منـه فإن المادة تدل على معنى الخفاء يقولون غم الشيء إذا أخفاه وغم الهلال على الناس غما: ستره الغيم وغيره فلم يُرَ.[٥]

فالغم إذاً حال مؤذية للنفس سريعة الزوال.[٦]

وأما الحزن فهو الألم الذى يكون بعد ذلك ويستمر زمنا.[٧]

وهذه الأمراض تمنع القلب من سيره وتشميره إلى الله.

---

(١) اللسان عند مادة (حزن) ١١١/١٣

(٢) المفردات عند مادة (حزن) ص١١٥

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ١٦٥/٤ كتاب الدعوات (٨٠) باب التعـوذ من غلبة الرجال (٣٦) برقم (٦٣٦٣).

(٤) انظر طريق الهجرتين ص٤٦٠

(٥) اللسان عند مادة (غمم) ٤٤٢/١٢

(٦) نزهـــة الأعين النـــواظر في علم الـــوجوه والنظـائر لابن الجوزى باب الغـــم ص٤٥٤-٤٥٥

(٧) انظر تفسير المنار ١٨٤/٤

فالحزن مثلاً نهى الله عز وجل عنه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)[١] وقوله: (ولاتحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون)[٢] وقوله: (إذ يقول لصٰحبه لاتحزن إن الله معنا)[٣] وقوله: (ولا يحزنك قولهم)[٤] وقوله: (لكيلاتأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما ءاتىٰكم)[٥] وأمثال ذلك كثير. وذلك لأنه لايجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه بل هو من الشيطان لابن آدم قال تعالى: (إنما النجوى من الشيطٰن ليحزن الذين ءامنوا)[٦] نعم لايأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لايعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار بيده إلى لسانه أو يرحم"[٧] وقال صلى الله عليه وسلم: "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا مايرضى ربنا"[٨] ومنه قوله تعالى: (وتولى عنهم وقال يـأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم)[٩] بل قد يقترن

---

(١) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

(٢) جزء من الآية ١٢٧ من سورة النحل.

(٣) جزء من الآية ٤٠ من سورة التوبة.

(٤) جزء من الآية ٦٥ من سورة يونس.

(٥) جزء من الآية ٢٣ من سورة الحديد.
والأسى: الحزن. المفردات عند مادة (أسا) ص١٨

(٦) جزء من الأية (١٠) من سورة المجادلة.

(٧) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١٢/١ كتاب الجنائز (٢٣) باب البكاء عند المريض (٤٤) رقم الحديث (١٣٠٤) ومسلم في صحيحه ٦٣٦/٢ كتاب الجنائز (١١) باب البكاء على الميت (٦) رقم الحديث (٩٢٤/١٢).

(٨) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١١/١-٤١٢ كتاب الجنائز (٢٣) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "إنا بك لمحزونون" (٤٣) رقم الحديث (١٣٠٣).

(٩) الآية ٨٤ من سورة يوسف.

بالحزن مـايثاب صاحبه ويحمد عليه من تلك الجهة لا مـن جهة الحزن كمن يحزن على مصيبة في الدين أو على مصائب المسلمين عمـوماً فهذا يثاب على مافي قلبه من حب الخير وبغـض الشـر وتوابع ذلـك وأمـا إذا اقترن بمحـرم كترك الصبر والجزع وشق الجيوب ولطم الخدود فإن هذا مما يأثم فاعله[١] ومثل الحزن شقيقاه الهم والغم.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١٠/١٦-١٧

المطلب الثاني

الغضـــب

الغضب نقيض الرضا.(٢)

وقد عرفه الراغب بأنه ثوران دم القلب إرادة الانتقام.(٣)

والله عز وجل يوصف بأكمله وأعلاه إثباتاً بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل على حد قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).(٤)

قال تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خـٰلداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً).(٥)

وقال تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنوا لاتتولوا قوماً غضب الله عليهم)(٦) والغضب على نوعين:

غضب محمود وهو ماكان لله عز وجل إذا انتهكت محارمه.

وغضب مذموم وهو المراد هنا وهو مرض من الأمراض القلبية يتألم به صاحبه في الحال فتصاحبه كثير من الأفعال والأقوال والأوصاف الذميمة من تغير في اللون وكسر للآنية وإهراق للطعام وسب وشتم حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لذهب غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته هذا في الظاهر وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر فهو يولد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه.(٧)

---

(٢) اللسان عند مادة (غضب) ٦٤٨/١

(٣) المفردات مادة (غضب) ص٣٦١

(٤) جزء من الآية (١١) من سورة الشورى.

(٥) الآية ٩٣ سورة النساء

(٦) جزء من الآية ١٣ سورة الممتحنة.

(٧) انظر فتح البارى ٥٢٠/١٠

ولذلك لما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أوصنى قال: "لاتغضب" فردد مراراً، قال: "لاتغضب"[١]

قال الخطابي: معنى قوله لاتغضب هو أن يحذر أسباب الغضب وأن لايتعرض للأمور التى تجلب عليه الضجر فتغضبه، فأما نفس الغضب فطبع في الإنسان لايمكنه نزعه وإخراجه من جبلته، وقد يكون معنى قوله: لاتغضب أى: لاتفعل مايأمرك به الغضب ويحملك عليه من القول والفعل.

وقد قيل: إن أعظم أسباب الغضب الكبر، وإنما يغضب الإنسان لما يتداخله من الكبر عندما يخالف في أمر يريده أو يعارض في شىء يهواه فيحمله الكبر على الغضب لذلك فإذا تواضع وذل في نفسه ذهبت عنه عزة النفس وماتت سورة الغضب فسلم بإذن الله من شره.[٢]

---

(١) أخرجه البخارى ١١٢/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب الحذر من الغضب (٧٦) رقم الحديث (٦١١٦).

(٢) أعلام الحديث ٢١٩٧/٣

المطلب الثالث

الغيـظ

الغيظ هو أشد الغضـب[١] قـال تعالى: (قل موتوا بغيظكـم)[٢] وقال كذلك (ليغيـظ بهم الكفـار)[٣] وهـو عبارة عن ألم وانفعـال نفسـي قـوي لايندفع ولا يكظم إلا بقـوة روحية من التقوى المسيطـرة على النفـوس.[٤]

وقـد يدفع الانتقام للغيظ أحياناً إلى تجاوز حد الاعتـدال ولذلك أمر الله عز وجل بكظم الغيظ والعفـو عن المسيء[٥] قـال تعالى: (والكـٰظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).[٦]

والغيـظ ألم يصيب القلب يزعجه ويؤرقه ويقعده عـن السير إلى الله عز وجل وينغص عليه عباداته وقـد يكـون سببـه ظلم وقـع على المرء فلا يزول هذا المرض إلا بزوال سببه وهو كشف هذا الظلم وأخذ حق المظلـوم قال تعالى: (قـٰتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصـركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم)[٧] والله تعالى أعلم.

---

(١) اللسان عند مادة (غيظ) ٤٥٠/٧ وانظر المفردات عند نفس المادة ص٣٦٨

(٢) جزء من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٤) انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للدوسرى ٣٢٧/٤

(٥) وهـذا فيما يتعلق بالأمور الـدنيوية فقط وأما الغضب إذا انتهكـت محارم اللـه عـز وجل والانتقام لحدوده تبارك وتعالى إذا تُعدى عليهـا فهو أمر واجب شرعاً وقـد جاء في وصف النبي صلى اللـه عليه وسلم "وماانتقـم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهـك حرمة الله فينتقـم لله بها" أخرجه البخـارى في صحيحه (٥١٨/٢) كتاب المناقب (٦١) باب صفـة النبي صلى اللـه عليـه وسلم (٢٣) رقـم الحديث (٣٥٦٠) ومسلم ١٨١٣/٤ كتـاب الفضـائل (٤٣) باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام ...(٢٠) رقم الحديث (٢٣٢٧/٧٧)وانظر صفوة الآثار ٣٢٧/٤

(٦) جزء من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

(٧) الآية ١٤ وجزء من الآية ١٥ من سورة التوبة.

الفصل الثاني
أسبـاب مـرض القلـب

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: أسباب عامة.

المبحث الثاني: أسباب خاصة.

تمهيـــد:

اعلم بأن الله عز وجل قد يصيب المرء بما قد يؤدى إلى سقم قلبه ابتلاءً وامتحاناً ليظهر المؤمن الحق من غيره قال تعالى: (وليبتلى الله مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم)[١] وقال تعالى: (ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)[٢] وقال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذينءامنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)[٣] وقال تعالى: (ولنبلونكم حتى نعلم المجٰهدين منكم والصٰبرين ونبلو أخباركم)[٤] وقال تعالى: (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكٰذبين).[٥]

والمعنى: أن الناس لايتركون دون فتنة أى ابتلاء واختبار، لأجل قولهم آمنا، بل إذا قالوا آمنا فتنوا أى امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمنا من غير الصادق.[٦]

وقد بينت السنة الثابتة أن هذا الابتلاء المذكور في هذه الآية يبتلى به المؤمنون على قدر ماعندهم من الإيمان فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة

---

(١) جزء من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.
(٢) جزء من الآية ١٧٩ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٣١ من سورة محمد.
(٥) الآيات ١-٣ من سورة العنكبوت.
(٦) أضواء البيان ٤٦١/٦

هون عليه فمايزال كذلــك حتى يمشــي على الأرض مــاله مــن ذنب" [١][٢].

وسأذكر بإذن الله عز وجل فيمايلى أمثلة لبعض هذه الابتلاءات الربانية ومواقف الخلق من ذلك:

منها مـاجاء في قوله تعالى: (ومـاجعلنا أصحـٰب النـار إلا ملـٰٓئكة وما جعلنـا عـدتهم إلا فتنة للذين كفـروا ليستيقن الذين أوتوا الكتـٰب ويزداد الـذين ءامنـوا إيمـٰناً ولا يرتاب الـذين أوتوا الكتـٰب والمؤمنـــون وليقـول الـذين في قلوبهم مرض والكـٰفرون مـاذا أراد الله بهـذا مثلاً كـذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ومايعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر).[٣]

قال ابن كثير رحمه الله:

(وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس (ليستيقن الذين أوتوا الكتـٰب) أي: يعلمـون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة مابأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبيـاء قبلـه (ويزداد الـذين ءامنـوا إيمـٰنا) أى: إلى إيمانهـــم، أي: بما يشهـدون مـن صـدق أخبار نبيهـم محمـد صلى الله عليـه وسلم (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتـٰب والمؤمنون، وليقول الذين في قلـوبهم مرض) أي: من المنافقين (والكـٰفرون) ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ أى يقـولون: ما الحكمة في

---

(١) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٦٠١/٤-٦٠٢ كتاب الـزهد (٣٧) باب ماجاء في الصبر على البلاء (٥٦) رقم الحديث (٢٣٩٨) وقال هذا حديث حسن صحيح وابن مــاجه في السنن ١٣٣٤/٢ كتـاب الفتن (٣٦) باب الصبر على البلاء (٢٣) رقم الحديث (٤٠٢٣) وصححه الشيخ الألبانى في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣).

(٢) انظر أضواء البيان ٤٦٢/٦

(٣) الآية ٣١ من سورة المدثر.

ذكر هذا هاهنا؟ قال الله تعالى: (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.[١]

فكان ذكر عدة الملائكة الموكلين بالنار سبباً لتفاقم مرض قلوب الزائغين عن الحق بالشبهة الحاصلة من ذلك وسبباً لثبات الإيمان وتأكيده في قلوب أهل الحق لقوة يقينهم وإيمانهم.

قال ابن القيم رحمه الله: وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفراًوجحوداًوقلب يزداد به إيماناًوتصديقاً وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدرى مايراد به.[٢]

ومنها قوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب).[٣]

في هذه الآية الكريمة يبين الله عز وجل سنة من سننه الكونية التى لاتتبدل ألا وهي ابتلاء المؤمنين بصعوبة الطريق إلى نيل رضاه وشدة العقبات التى تقف أمام ذلك حيث يوضع المؤمن في الوضع الذى يحيط به الكفار غالبين منتفشين بباطلهم، ضاغطين بكل قوتهم، ويلتفت حوله -وهو صاحب الحق- فلا يجد قوة واحدة في الأرض تنقذه من بين براثنهم، فيلجأ إلى الله وحده ويتطلع إليه وحده ويتعلق به وحده ويعلم أنه لن ينقذه منهم إلا هو وحده حين يقرر سبحانه بمشيئته وحده[٤] كما

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٩٤/٨-٢٩٥

(٢) إغاثة اللهفان ١٥/١

(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٤) انظر حول التفسير الإسلامى للتاريخ لمحمد قطب ص١١٢-١١٣

حدث مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب يقول تعالى مصوراً لنا ذلك الابتلاء العظيم الذي محص به عباده المؤمنين في خير القرون (يٰأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصٰر وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً).(١)

وأمام هذا الابتلاء يظهر المؤمنون الثابتون ويكون قولهم (هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمٰناً وتسليماً).(٢)

وأما أولئك المزعزعون فإن هذه المواقف تكشف خبايا نفوسهم وتزيدهم مرضاً إلى مرضهم ووهناً إلى وهنهم (وإذ يقول المنٰفقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا).(٣)

ومما هو معلوم أن هؤلاء الذين لايثبتون أمام هذه الابتلاءات الربانية قد كانت قلوبهم تعانى قبل عرضها على هذه الفتن من بعض الأمراض كضعف اليقين أو الجهل أو غير ذلك فأدت هذه الابتلاءات إلى تفاقم هذه الأمراض وتمكنها وحصول أمراض جديدة في قلوب أصحابها إضافة إلى أمراضهم السابقة قال تعالى: (وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمٰناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيمٰناً وهم يستبشرون وأماالذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كٰفرون).(٤)

---

(١) الآيات ٩-١١ من سورة الأحزاب.
(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ١٢ من سورة الأحزاب.
(٤) الآيتان ١٢٤-١٢٥ من سورة التوبة.

ومنها أيضا قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوٰت من النساء والبنين والقنٰطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعٰم والحرث ذلك متع الحيوٰة الدنيا والله عنده حسن المئـٰب).(١)

في هذه الآية يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة(٢) والأنعام والحرث، فكانت هذه الأمور فتنة لبعض الناس فغلوا في حبها حتى وصلوا إلى درجة العشق لها فسقمت قلوبهم وتكدرت أرواحهم، فكم من مفتون بالنساء والأولاد لم يع، قوله تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنوا إن من أزوٰجكم وأولـٰدكم عدواً لكم فاحذروهم)(٣) فترك كثيراً من شعائر الدين اتباعاً لهواه.(٤)

وكم من مفتون بالمال من ذهب وفضة وغير ذلك لم يع قوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون).(٥) فبخلوا بما آتاهم اللـه

---

(١) الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٢) الخيل المسومة: المعلمة، وقيل المرسلة وعليها ركبانها. انظر اللسان عند مادة (سوم) ٣١٢/١٢

(٣) جزء من الآية ١٤ من سورة التغابن.

(٤) وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من فتنة النساء التى هى أعظم هذه الفتن ولهذا قدمت في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم: "ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء" أخرجه البخارى في صحيحه ٣٦١/٣ كتاب النكاح (٦٧) باب مايتقى من شؤم المرأة...(١٧) رقم الحديث(٥٠٩٦) ومسلم في صحيحه ٢٠٩٧/٤ كتاب الرقاق(٤٨) باب أكثر أهل الجنة الفقراء...(٢٦) رقم الحديث (٢٧٤٠/٩٧) وانظر تفسير القرآن العظيم ١٤/٢ وصفوة الآثار والمفاهيم ٦٠/٤

(٥) جزء من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة التوبة.

من فضله بعد أن كانوا يسألون الله عز وجل الرزق ويعدون بالإنفاق إن هم رزقوا فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون.

فهذه الأمور المذكورة في الآية هى من نعم الله عز وجل التى شرع التلذذ بها في الدنيا كما أمر من غير إفراط ولا تفريط وفي الوقت نفسه هى فتنة لمن خالف منهج الله عز وجل توررده في الدنيا الهم والغم والعشق وغير ذلك من الأسقام القلبية وتورده في الآخرة الهاوية.

ومنها أيضا قوله تعالى: (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأمول والأنفس والثمرت وبشر الصبرين).(١)

وهذا ابتلاء بالمصائب والنكبات فأما المؤمن الحق الثابت القلب فإنه سوف يتحلى بالصبر وخاصة عند الصدمة الأولى كما قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى".(٢)

وأما الضعيف القلب المزعزع الإيمان فإن هذه الإبتلاءات سوف تورثه الهم والغم والحزن فإن لم يحقق التوازن كما هو شأن المؤمن الحق فإنها ستزيد إيمانه وهنا وقلبه ضعفاً وقد يزيغ بها عن طريق الحق بالكلية كما قال تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).(٣)

---

(١) الآية ١٥٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٩٥/١ كتاب الجنائز ٢٣ باب زيارة القبور (٣١) رقم الحديث (١٢٨٣) ومسلم في صحيحه ٦٣٧/٢-٦٣٨ كتاب الجنائز (١١) باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٨) رقم الحديث (٩٢٦/١٥).

(٣) الآية ١١ من سورة الحج.

وقد أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (ومن الناس من يعبد الله على حرف) قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل سبب مما سأذكره يصح أن يقال عنه إنه إبتلاء وفتنة كما قال تعالى: (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً).(٢) ولكن هذا لايخلى مسؤلية المفتون من الخلق ولهذا جاء في الآية التى تليها (ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)(٣) وفيما يلى سأتكلم عن أسباب مرض القلب العامة والخاصة وذلك فيما أرى والله الموفق.

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٦٢/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة الحج (٢٢) باب وترى الناس سكارى (١) رقم الحديث ٤٧٤٢

(٢) جزء من الآية ٧٨ من سورة النساء.

(٣) جزء من الآية ٧٩ من سورة النساء.

المبحث الأول
الأسبــاب العامــة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مكائد إبليس اللعين -أخزاه الله-.

المطلب الثاني: الجهل وضعف البصيرة.

المطلب الثالث: الهوى المتبع.

المطلب الأول

مكائد إبليس اللعين أخزاه الله

لقـد حذرنا ربنا تبارك وتعالى من خطورة هذا المخلـوق اللعين وشدة كيده لأبناء آدم عليه السلام حسداًوبغياًفقال تعالى ذكره ذاكراًلقول الشيطان: (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صرٰطـك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمٰـنهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شٰكرين).(١)

وقد ذكر المفسرون أوجهاً في نصب (صرٰطـك) منها: أنه منصوب على أنه مفعـول به لأن الفعل قبلـه وإن كان قاصراً فقـد ضمن معنى فعل متعد والتقدير (لألزمن صراطك المستقيم بقعـودى عليه).(٢) فالشيطان الرجيم إذاً ملازم لسبل الخير يصد الناس عنها.

وكلما كان العمل أنفع للعبد وأحب إلى الله كـان اعتراض الشيطان له أكثر وأقوى ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن عفريتاً من الجن تفلّت علىّ البارحة -أو كلمـة نحوها- ليقطع علىّ الصلاة فـأمكننى اللـه منـه فـأردت أن أربطـه إلى سـارية من سوارى المسجـد حتى تصبحـوا وتنظـروا إليه كلكم، فذكـرت قول أخى سليمان (رب أغفـر لى وهـب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى)".(٣)(٤)

ومـن المعلوم أن شر النفـس وفسادها ينشأ من وسـوسته فهـى مركبه وموضع شره ومحل طاعته.(٥)

---

(١) الآيتان ١٦-١٧ من سورة الأعراف.

(٢) انظر الدر المصون ٢٦٨/٥

(٣) جزء من الآية ٣٥ من سورة ص.

(٤) رواه البخارى في صحيحه ١٦٥/١ كتاب الصلاة (٨) باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد (٧٥) رقم الحديث (٤٦١).

(٥) انظر إغاثة اللهفان ٩٠/١

فهـو عليه لعنة الله لاينفـك يلقي بالشبهة أو يدعـو إلى الشهـوة أو يهـيء لذلك قال تعالى: (ليجعـل مايلقى الشيطـٰن فتنـة للـذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم).(١)

وقـال صلى الله عليه وسلم: "يأتى الشيطـان أحدكـم فيقـول من خلق كذا وكذاحتى يقول له مـن خلـق ربك فـإذا بلـغ ذلـك فليستعـذ باللـه ولينته".(٢)

وقـال تعالى: (إن يدعون مـن دونه إلا إنـٰثاً وإن يدعـون إلا شيطـٰناً مريداً لعنه الله وقال لأتخذن مـن عبـادك نصيبـاً مفـروضاً ولأضلنهـم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن ءاذان الأنعـٰم ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخـذ الشيطـٰن ولياً من دون اللـه فقد خسر خسراناً مبينـاً يعـدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطـٰن إلا غرورا).(٣) وحقيقة الفرض التقدير والمعنى أن من اتبـع الشيطـان وأطاعه فهـو مـن نصيبه المفروض وحظـه المقسـوم فكل من أطاع عدو الله فهو من مفـروضه **فالناس قسمان**: نصيب الشيطان ومفـروضه وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله (ولأضلنهم) يعنى عن الحق.

وقوله (ولأمنينهم) أى بتسويف التوبه وقيل المراد أنه لاجنة ولا نار ولا بعث وقيل بركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع.

وقـوله (فليغيرن خلـق اللـه) أى دين اللـه وهــو قـول ابن عبـاس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى والضحاك وإبراهيم.(٤)

---

(١) جزء من الآية ٥٣ من سورة الحج.

(٢) تقدم تخريجه ص ٧٥،

(٣) الآيات ١١٧-١٢٠ من سورة النساء.

(٤) وقد أخرج هذه الآثار عنهم ابن جرير في تفسيره ٢٨٣/٥-٢٨٤

فجمعت الآية بين تغيير الفطرة التى هى دين الله عز وجل وتغيير الخلقه بالجدع وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما.

ثم قال تعالى: (يعدهم ويمنيهم) فوعده مايصل إلى قلب الإنسان نحو سيطول عمرك وتنال من الدنيا أربك[١] وستعلو على أقرانك وتظفر بأعدائك والدنيا دول ستكون لك كما كانت لغيرك ويطول أمله ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها. والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل ويمني المحال.

ومن تأمل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلقين بوعده وتمنيته وهم لايشعرون. والنفس المهينة التى لاقدرة لها تغتذى بوعده وتمنيته فهى تلتذ بالأمانى الباطلة والوعود الكاذبة وتفرح بها كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته فإنه يمنى أصحابها بالظفر بالحق وإدراكه ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه فكل مبطل فله نصيب من قوله تعالى (يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطٰن إلا غرورا).[٢]

وقال تعالى: (الشيطٰن يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم).[٣]

والفحشاء في الآية على بابها وهى كل فاحشة فهى صفة لموصوف محذوف فحذف موصوفها إرادة للعموم: أى بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء.[٤] فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره فهو يعد بالفقر تخوفاً به

(١) الأرب والإرب والإربة والمأربة الحاجة. انظر النهاية ٣٦/١ مادة (أرب).
(٢) انظر إغاثة اللهفان ١/ ١٠٥ إلى ١٠٧
(٣) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة.
(٤) ولاتختص الفاحشة في هذه الآية بالبخل، فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب وإن كان البخل يدخل في الآية دخولاً أولياً.

المتصدقين ويأمر بكل منكر وقبيح وهذا كل مايريده الشيطان من الإنسان فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها.(١)

وأول كيد الشيطان ومكره أن كاد للأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة قال تعالى: (فوسوس لهما الشيطٰن ليبدى لهما ماورى عنهما من سوءٰتهما وقال مانهٰكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخٰلدين وقاسمهما إنى لكما لمن النٰصحين فدلٰهما بغرور).(٢)

فقد علم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة فقد عصيا والمعصية تهتك الستر الذى بين المؤمن وبين الله فلما عصيا هتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما فالمعصية تبدى السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه الزناة والزوانى عراة بادية سوآتهم.(٣)

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يوارى العورة ويسترها، ولباساً باطناً من التقوى يجمل العبد ويستره فإذا أزال عنه هذا اللباس أنكشفت عورته الباطنة كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع مايسترها.

ثم قال: (مانهٰكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخٰلدين) أى إلا كراهة أن تكونا ملكين وكراهة أن تخلدا في الجنة ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فإذا عرفه استعان بها على

(١) انظر إغاثة اللهفان ١٠٧/١

(٢) الآيتان ٢٠-٢١ وجزء من الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٣) كما في حديث سمرة بن جندب الطويل الذى أخرجه البخارى ٣١٠/٤ كتاب التعبير ٩١ باب تعبير الرؤية بعد صلاة الصبح (٤٨) رقم الحديث (٧٠٤٧).

العبـد ودخل عليه من هذا البـاب وكذلك عَلَّم إخوانه وأوليـاءه من الإنس إذا أرادوا أغـراضهم الفـاسدة مـن بعضهم البعض أن يدخلـوا عليهـم من البـاب الـذى يحبونه ويهوونه فـإنه باب لايخذل عـن حاجتـه من دخل منه ومـن رام الـدخول من غيره فـالباب عليه مسدود وهـو عـن طريق مقصده مصدود، ومما جعل هذا القول يروج على الأب آدم عليه الصلاة والسلام أن الماكر المخادع ردد الأمر بين أمرين:

أحدهمـا: ممتنع. والآخر: ممكـن وهذا من أبلغ أنواع الكيـد والمكر ولهـذا لما أطمعـه في الأمر الممكـن جزم له به ولم يردده فقـال: (يٰـآدم هـل أدلـك على شجرة الخلد وملـك لايبلى)[1] فلم يدخل أداة الشـك هاهنـا كما أدخلها في قوله: (إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخٰـلدين).

ثم قال: (وقاسمهما إنى لكما لمن النٰـصحين).

فتضمن هذا الخبر أنواعاً من التأكيد:

أحدهـا: تأكيده بالقسم.

الثـاني: تأكيده بإن.

الثالـث: تقـديم المعمـول على العـامل إيذانا بالاختصـاص أى نصيحتى مختصة بكما وفائدتها عائدة إليكما لا إليّ.

الرابـع: إتيـانه باسم الفاعل الـدال على الثبوت واللـزوم دون الفعل الدال على التجديد، أي النصح صفتى وسجيتى ليس أمراً عارضاً لي.

الخامـس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

---

(١) جزء من الآية ١٢٠ من سورة طه.

السادس: أنه صور نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به.

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءوه (نشهد إنك لرسول الله)[١] فأكدوا خبرهم بالشهادة وبإن وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم).[٢][٣]

ثم قال تعالى: (فدلّٰهما بغرور)

قوله فدلاهما: يحتمل أن يكون من التدلية من معنى دلا دلوه في البئر والمعنى أطمعهما. أو أن تكون من الدال والدالة وهي الجرأة أى فجر أهما كما قيل:[٤]

أظن الحلم دل على قومي وقد يستجهل الرجل الحليم

وقوله: (بغرور) الباء للحال أى مصاحبين للغرور أو مصاحباً للغرور فهى حال إما من الفاعل أو من المفعول، ويجوز أن تكون الباء سببية أى دلاهما بسبب أن غرّهما. والغرور مصدر حذف فاعله ومفعوله والتقدير بغروره إياهما[٥] وهذا اللعين قد غرّهما بيمينه وماصاحبها من التأكيدات وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً وقد جاء في الحديث: "المؤمن غَرّ كريم والفاجر خَبّ لئيم".[٦]

---

(١) جزء من الآية ١ من سورة المنافقون.
(٢) جزء من الآية ٥٦ من سورة التوبة.
(٣) انظر إغاثة اللهفان ١١١/١ إلى ١١٤
(٤) انظر الدر المصون ٢٨١/٥
(٥) المرجع السابق نفسه.
(٦) تقدم تخريجه ص ١٩٣

ومـن كيده العجيب أن يشـام النفس[١] حتى يعلم أي القوتين تغلـب عليها: قوة الإقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعـاف همته وإرادته على المأمور به وثقله عليه وهون عليه تركه حتى تركـه جملة أو يقصر فيه ويتهاون به وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمـور به ويوهمه أنه لايكفيـه وأنه يحتاج معه إلى مبـالغة وزيادة،فيقصـر بالأول ويتجـاوز بالثانى كما قال بعض السلف: ماأمر اللـه سبحانه بأمر إلا وللشيطـان فيـه نزغتان إما إلى تفـريط وتقصير وإما إلى مجاوزة وغلـو، ولا يبالى بأيهما ظفر. وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليـل في هذين الواديين، وادى التقصير ووادى المجـاوزة والتعدي، والقليل منهـم جداً الثـابت على الصـراط الـذى كان عليه رسـول اللـه صلى الله عليـه وسلم وأصحـابه.[٢]

ومـن كيده عليه لعنة الله أنه يخوف المؤمنين من جنـده وأوليائه فلا يجاهـدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكـر،وهذا من أعظم كيـــده بأهـل الإيمان، قـال تعـالى: (إنما ذلكـم الشيطٰـن يخوف أوليـــاءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين).[٣]

والمعنى يخوفكم بأوليائه.[٤]

قـال قتـادة: يخوف والله المؤمـن بالكـافر ويرهـب المؤمـن بالكافر.[٥]

---

(١) أى يتطلع إليها. انظر اللسان عند مادة (شيم) ٣٣٠/١٢

(٢) انظر إغاثة اللهفان ١١٥/١-١١٦

(٣) الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٤) انظر جامع البيان ١٨٣/٤

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٨٣/٤

وكذا قال مجاهد.[١]

وكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمان العبد قوى خوفه منهم.

إلى غير ذلك من مكائد عدو الله التى يكيد بها ابن آدم نسأل الله السلامة منها.[٢]

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) وللاستزادة من ذلك ينبغى الرجوع إلى كتابي إغاثة اللهفان لإبن القيم رحمه الله وكتاب تلبيس إبليس لابن الجوزى رحمه الله.

المطلب الثانى

الجهل وضعف البصيرة

والمراد بالجهل هنا خلو النفس من العلم[١] وما كان كذلك ضد الحلم. والبصيرة اسم لما اعتقد القلب من الدين وتحقيق الأمر وهى كذلك الفطنة تقول العرب: "أعمى الله بصائره" أي فِطَنَه[٢] فالمراد بضعفها ضعف اعتقاد القلب في أمور دينه ويقينه وضعف فطنته.[٣]

فـأما الجاهل فهو فاقد لكـل مايورثه العلم والحلم مـن فضائل وأخلاق وآداب.

فإجلال الله تعالى وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاؤه والتوكل عليه وحده والرضا بقضائه والصبر على بلائه وعدم انتهاك محارمه كل ذلك نصيب الجاهل منه قليل وحظه منه نزر يسير، لأن هذه الأمور إنما يدل العلم عليها [٤] ويقود الحلم إليها.

قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلمٰؤا).[٥]

وقـال تعالى: (إن الذين أوتوا العلم مـن قبله إذا يتلى عليهـم يخرون للأذقـان سجـداً ويقولون سبحـٰن ربنـا إن كـان وعد ربنـا لمفعـولاً ويخرون للأذقـان يبكـون ويزيدهـم خشوعاً)[٦] وقـال تعالى مبينـاً أصل كـل سوء ومعصية (أنه من عمل منكم سوءاً بجهٰلة).[٧]

والجهـل كذلك يؤدى إلى الـوقوع في الشبهات التى يمنـع العلم أربابه من الوقوع فيها قال تعالى: (والرٰسـخون في العلم يقـولون ءامنا بــه كــل

---

(١) انظر المفردات عند مادة (جهل) ص١٠٢

(٢) انظر اللسان عند مادة (بصر) ٤/٦٥

(٣) وقد تقدم الكلام على البصيرة بالتفصيل في رابع منازل العبوديةص٣٨ .

(٤) انظر بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص٤٦

(٥) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٦) جزء من الآية ١٠٧ والآيتان ١٠٨-١٠٩ من سورة الإسراء.

(٧) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألبـٰب).[١]

قـالت عائشة رضى الله عنهـا: "كان من رسوخهم في العلم أن آمنـوا بمحكمه ومتشابهه ولا يعلمونه".[٢]

وقـال تعالى: (وليعلم الذين أوتو العلم أنه الحق مـن ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم).[٣]

وأماأهل الجهل فإن كيدالشيطان قدينطلي‌عليهم فيقع في قلوبهم مايقع.

وأمـا البصيرة فإن ضعفهـا من أعظم أسباب مرض القلـب فهو يؤدى إلى تأثر الإيمان بالشبهة المتهافتة المعارضة لما وصف الله به نفسه ووصفه به رسـوله صلى الله عليه وسلم،فـأضعف الناس بصيرة هـم أهل الكلام الباطل المذمـوم الـذى ذمه السلف،لجهلهـم بالنصـوص ومعانيهـا،وإذا تأملـت حال العـامة الذين ليسوا مؤمنين عنـد أكثرهم رأيتهم أتم بصيرة منهـم،وأقـوى إيمانا وأعظم تسليماً بالوحى وانقياداً للحق.

وضعـف البصيرة يؤدى أيضا إلى تأثر القلـب بالشبهـة المعارضة لأمر الله ونهيه وبالشهوات المانعة من تنفيذه وامتثاله والأخذ به.

وقـد يوجب ضعفها أيضاً الشـك في حقائق المعاد والجزاء والحسـاب وذلـك شك في ألوهية الله تعـالى وربوبيته وعدله وحكمتـه وذلـك كفر به تعالى.[٤]

وضعف البصيرة كذلك يضعف النور الذى يقذفه اللـه في القلب فلا يستطيـع القلـب أن يفـرق بين الحق والبـاطل وبين الصـادق والكـاذب لأن الفراسة الصادقة إنما هى لأصحاب البصيرة التامة.[٥]

(١) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.
(٢) تقدم تخريجه ص٢٧-٢٨
(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.
(٤) انظر مدارج السالكين ١/١٢٤ إلى ١٢٦
(٥) انظر مدارج السالكين ١/١٢٩

المطلب الثالث

الهوى المُتَّبَع

إن الهوى من أعظم أسبابِ الانحرافِ العقدي والخلقي،بل والإصرارِ على ذلك الانحراف حتى مع ظهور الحق.

والهوى -نعوذ بالله منه- هوأول داء حل بالعالم فبه ضل إبليس وعصى ربه فلعن وطرد من رحمة الله، وبه ضلت الأمم عن اتباع أنبيائهم ورسلهم ولهذاقال تعالى:(ومن أضل ممن اتبع هوىه بغيرهدى من الله).(١)

وقال كذلك: (ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب).(٢)

واتباع الإنسان لمايهواه هو أخذ القول والفعل الذى يحبه، ورد القول والفعل الذى يبغضه بلا هدى من الله قال تعالى: (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم)(٣) وقال: (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله).(٤)

وقال تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصرى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير).(٥)

فمن اتبع أهواء الناس بعد العلم الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وبعدهدى الله الذى بينه لعباده فهوبهذه المثابة،ولهذاكان السلف يسمون أهل البدع والتفرق -المخالفين للكتاب والسنة- أهل الأهواء حيث قبلوا ما أحبوه وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله.(٦)

---

(١) جزء من الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص.

(٣) جزء من الآية ١١٩ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٥) الآية ١٢٠ من سورة البقرة.

(٦) انظر مجموع الفتاوى ٤/١٨٩-١٩٠

المبحث الثاني
الأسباب الخاصـــة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب مرض الشبهات.

المطلب الثانى: أسباب مرض الشهوات.

المطلب الأول

أسباب مرض الشبهات

لمرض الشبهات أسباب أهمها في نظرى إضافة إلى الأسباب العامة اثنان هما:

أولاً: الفهم الفاسد:

اعلم أن من أعظم مايؤدى إلى وقوع الشبهات في القلب ذلك الفهم السقيم المبنى على قواعد عقلانية من الكلاميات والفلسفات ونحو ذلك مما يبنى على أقوال مشتبهة مجملة تتحمل معاني متعددة ويكون مافيها من الاشتباه لفظاً ومعنى يوجب تناولها لحق وباطل فبما فيها من الحق يقبل مافيها من الباطل لأجل الاشتباه والالتباس ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا وهو منشأ البدع فإن البدعة لو كانت باطلاً محضاً لظهرت وبانت وماقبلت، ولو كانت حقاً محضاً لاشوب فيها لكانت موافقة للسنة، فإن السنة لاتناقض حقاً محضاً لاباطل فيه ولكن البدعة تشتمل على حق وباطل.(١)

والفهم الفاسد إنما يخلط الحق بالباطل فتقام صروح الضلال وقلاع الشبهات على أدلة شرعية وآيات ربانية.

فلله كما خدع بذلك من العامة وأعشار المتعلمين.

وقد قال تعالى يخاطب أهل الكتاب (يـٰبني إسرآءيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإيـى فارهبون وءامنوا بما أنزلت مصدقاً لمامعكم ولاتكونوا أول كافر به ولاتشتروا بـٔايٰتي ثمناً قليلاً وإيـى فاتقون ولاتلبسوا الحق بالبـٰطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون).(٢)

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٠٨/١-٢٠٩

(٢) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة البقرة.

والأمثلة على ذلك كثيرة ساكتفى بذكر أحدها.

فمن ذلك أن كثيراً من الجهمية نفاة الصفات والأفعال عن الله عز وجل ومن اتبعهم على ذلك يستدلون على نفيها بقصة إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وذكروا أن هذه الطريقة هى طريقة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه وهو قوله: (لاأحب الأفلين).(١)

قالوا: فاستدل بالأفول الذي هو الحركة والانتقال على حدوث ماقام به ذلك كالكوكب والقمر والشمس. وظن هؤلاء أن قول إبراهيم عليه السلام (هذا ربي)(٢) أراد به: هذا خالق السموات والأرض القديم الأزلى وأنه استدل على حدوثه بالحركة.

فأدى بهم هذا الفهم الفاسد إلى نفي أفعال الله عز وجل وتبعهم على ذلك خلق كثير.

وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أن قول إبراهيم (هذا ربي) ليس المراد به هذا رب العالمين القديم الأزلي الواجب الوجود بنفسه ولا كان قومه يقولون إن الكواكب أو القمر أو الشمس رب العالمين ولا قال هذا أحد من أهل المقالات المعروفة التى ذكرها الناس لا من مقالات أهل التعطيل والشرك الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب ولا من مقالات غيرهم، بل كان قوم إبراهيم يدعونها ببناء الهياكل والسجود والقرابين وهو دين المشركين.

الثاني: أنه لو كان المراد بقوله (هذا ربى) أنه رب العالمين لكانت قصة الخليل حجة على نقيض مطلوبهم لأن الكوكب والقمر والشمس مازال

---

(١) جزء من الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

(٢) جزء من الآية السابقة نفسها.

متحـركاً من حين بزوغه إلى أفوله وغروبه فيلزم على قـولهم أن إبراهيم، لم يجعـل هذه الحركة بل ولا حتى صغـر الكوكب والشمـس والقمـر مانعاً من كون ذلك المتحرك رب العالمين، وهـذا لايظنه عاقل ممـن هـو دون إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فكيف به صلى الله عليه وسلم.

الثالـث: أن الأفــول هـو المغيـب والإحتجـاب وليــس مجرد الحركـة والانتقـال فلا يقـول أهل اللغـة ولا أهل التفسير ولا العقلاء لمن تحرك أو سافر أنه أفل وهو ظاهر.

الرابـع: أن هذا القول الذى قالوه لم يقله أحد من علماء السلف أهل التفسير ولا مـن أهـل اللغـة بل هو من التفسيرات المبتـدعة في الإسلام.[١]

ففاسد قولهم ومفهومهم ظاهر واضح.

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل من ١/ من ٣١٠ إلى ٣١٤

ثانياً: النقل الكاذب:

الكذب نقيض الصدق[1] وأصله في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره وهو في الخبر دون غيره من أصناف الكلام وقد يكون بالعرض في غيره كالاستفهام والأمر والدعاء وذلك نحو قول القائل: أزيد في الدار؟ فإن في ضمنه إخباراً بكونه جاهلاً بحال زيد وكذا إذا قال واسني فإن في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة.[2]

والكذب أساس السيئات ونظامها كما أن الصدق أساس الحسنات وجماعها فإن المنطق قسمان خبر وإنشاء والخبر صحته بالصدق وفساده بالكذب فالكاذب أسوأ حالاً من البهيمة العجماء لأن الكلام الخبري هو المميز للإنسان وهو أصل الكلام الإنشائي والكاذب لم يكفه أنه سلب حقيقة الإنسان حتى قلبها إلى ضدها ولهذا قيل: لامروءة لكذوب ولا راحة لحسود ولا إخاء لملوك ولاسؤدد لبخيل.

والصدق والكذب هما الخصلتان اللتان يفرق بهما بين المؤمن والمنافق فإن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب والكذب هو أصل الفجور كما جاء في الحديث: "وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً".[3]

والكاذب تتنزل عليه الشياطين تؤزه إلى الشر أزاً قال تعالى: "هل أنبئكم على من تنزل الشيطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع

---

(١) اللسان مادة (كذب) ١/٧٠٤

(٢) المفردات مادة (صدق) ص٢٧٧

(٣) تقدم تخريجه ص ١٤١

وأكثرهم كـذبون)[١] إلى غير ذلـك من آفات الكذب التى يعجـز القلم عن سطرها في هذا المقام.[٢]

وإن من أعظم أسباب مرض الشبهات وتمكنه في القلب النقل الكاذب فلله كم خَدَع الكذابون المزوِّرون كثيراً من الطَّغَام بمزخرف القول ومبهرج النقــل.

وأصـل النقل الكاذب ماقام به إبليس لعنه الله مـن إخبار لأبينا آدم عليـه السلام وزوجه بشجـرة الخلـد -على حد زعمـه- مـدعماً قـوله بيمين فاجرة آثمة بأنه لهما من الناصحين فخدعهما بذلك فوقعـا في معصية الله عز وجل فـأُهبطا مـن الجنة إلى دار الابتلاء فتـابا فتاب اللـه عـز وجل عليهما.

ثم تبـع إبليـس كثير من أعـوانه وإخوانه مـن الجن والإنس الـذين يروجون لضلالاتهـم وشبههم ويحاولـون عبثاً تقويتها بنقـول كاذبة وأقوال باطلة، فأوقعت في نفوس كثير من الجهلة الشبه والاضطراب.

ومن الأمثلة على ذلك مايلي:

مـاقام به بعض الزنادقة مـن دس الأباطيل والأكـاذيب السخيفـة على رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم قـاصدين بذلك تشـويه صـورة الإسلام النـاصعة في عقـائده وعباداته ومقـاصده فقـد وضعوا أحاديث تتعلـق بذات اللـه عز وجل وصفاته تتناقـض مع عقيدة الإسلام الصحيحـة وهى تنم عما تنطـوي عليـه بواطنهـم بالإضـافة إلى مـايقصدون من وراء ذلـك مـن تنفير العـامة عن الإسلام وإظهاره بمظهـر الدين المتناقض الــذي يشتمل على كثير

---

(١) الآيات (٢٢١-٢٢٣) من سورة الشعراء.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٧٤/٢٠-٧٨

من الأمور المتناقضة وغير المعقولة.[1]

ومنها ماقام به الرافضة من افتراء وكذب ووضع للأحاديث الموافقة لأهوائهم وعقائدهم الباطلة.

وقد قال الشافعي رحمه الله:[2] مارأيت في أهل الأهواء قوماً أشهد بالزور من الرافضة.[3]

وكتب الموضوعات أكبر شاهد على ذلك والله المستعان.

---

(١) الوضع في الحديث ٢٢١/١ وقد أعرضت عن ذكر أمثلة لماوضعوه من أحاديث تنزيها لبحثي عن ذلك فمن أراد الاطلاع على شئ من ذلك فليراجع الوضع في الحديث ٢٢١/١-٢٢٢

(٢) هو الإمام عالم العصر ناصر الحديث أبوعبدالله محمد بن ادريس الشافعي القرشي المطلبي المكي صاحب المذهب صنف التصانيف ودون العلم وبعد صيته وتكاثر عليه الطلبة، توفي عام٢٠٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥/١٠، وشذرات الذهب ٩/٢

(٣) انظر منهاج السنة٦١/١-٦٢

المطلب الثاني

أسباب مرض الشهوات

لمرض الشهوات أسباب أهمها في نظرى إضافة إلى الأسباب العامة اثنان هما:

أولاً: الإفراط فيما أبيح من الشهوات:

إن الانسياق وراء هذه الدنيا وملذاتها الفانية واللهث في طلب ذلك لهو من أعظم الأسباب الموصلة إلى مرض الشهوات.

والإسلام قد دعا أفراده إلى التوسط في الاستمتاع بما أبيح لهم فأباح أكل الطيبات ولبس الجميل من الثياب ولكن بلا إسراف ولا مخيلة كما جاء في الحديث المرفوع: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة".(١)

وقال تعالى: (زين للناس حب الشهوٰت من النساء والبنين والقنٰطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعٰم والحرث ذلك متٰع الحيوٰة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها وأزوٰج مطهرة ورضوٰن من الله والله بصير بالعباد).(٢)

وفي هاتين الآيتين يبين الله عز وجل تلك الشهوات التى فطر الناس على حبها ثم يذكرهم بما هو خير منها لا لبيان قبحها في ذاتها، لأن الله تعالى لايفطر الناس على قبيح بل خلقهم في أحسن تقويم ولم يجعل دينه مخالفاً لفطرته بل موافقاً لها كما قال تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة

---

(١) أخرجه البخارى معلقاً في صحيحه بصيغة الجزم ٤/٥٣ كتاب اللباس (٧٧) باب قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) (١)

(٢) الآيتان ١٤-١٥ من سورة آل عمران

الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون)[١] ولكن المراد أن لايفتتن العبد المؤمن بهذه الشهوات ويجعلها أكبر همه والشاغل له عن آخرته فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد في الدارين (ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة وقنا عذاب النار).[٢][٣]

وأما إذا لم يتق الله وتجاوز بما أبيح له حدود الله فقد افتتن، قال تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنوا إن من أزوٰجكم وأولـٰدكم عدواً لكم فاحذروهم).[٤]

قال قتادة: ينهون عن الإسلام ويبطئون عنه وهم من الكفار فاحذروهم.[٥]

وقد أخرج الترمذى عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية (يأ يها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولـٰدكم عدواً لكم فاحذروهم) قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله عز وجل: (يـٰأيها الذين ءامنوا إن من أزوٰجكم وأولـٰدكم عدواً لكم فاحذروهم) الآية.[٦]

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم.
(٢) جزء من الآية ٢٠١ من سورة البقرة.
(٣) انظر تفسير المنار ٢٤٦/٣
(٤) جزء من الآية ١٤ من سورة التغابن.
(٥) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٢٩٥/٢
(٦) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٤١٩/٥-٤٢٠ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ==

وهـذا يبين وجه العداوة فـإن العدو لم يكن عدواً لـذاته وإنما كـان عدواً بفعله فإذا فعل الزوج والـولد فعل العدو كان عـدواً، ولافعـل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة.(١)

وقـد قـال صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطـان قعـد لابن آدم بأطـرقه فقعـد لـه بطـريق الإسلام فقـال تسلم وتذر دينـك ودين آبائك وآباء أبيـك فعصـاه فأسلم ثم قعد له بطـريق الهجرة فقال تهاجر وتدع أرضـك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطِّوَل(٢) فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصـاه فجاهد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فمـن فعل ذلك كان حقاً على الله عز وجل أن يدخلـه الجنة وإن غـرق كان حقاً على الله أن يدخلـه الجنـة أو وقصتـه دابته كان حقاً على اللـه أن يدخلـه الجنة"(٣) فالشيطان يوسوس لابن آدم ويحاول أن يغريه بزوجه وولـده وما يملك من حطام هذه الدنيا ليصده عن كل خير.

فمـن أطاعه أسر بهذه الملـذات الفانية فقعد عن الطـاعة فصارت هذه الشهوات المباحة من أعظم أعدائه وهو لايشعر، وأحقر من هذا وأحط منزلة

(=) باب (٦٥) مـن سـورة التغابن رقـم الحديث (٣٣١٧) وقـال الترمـذى بعـد أن أخرجه: هذا حديث حسن صحيح.
وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذى ١٢١/٣ برقم (٢٦٤٢-٣٥٥٠).

(١) أحكام القرآن لابن العربى ١٨١٨/٤

(٢) الطـول والطيل بالكسر الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطـرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولايذهب لوجهه.
انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (طول) ١٤٥/٣

(٣) أخرجه النسـائى في السنن ٢١/٦-٢٢ كتـاب الجهاد (٢٥) باب مـالمن أسلم وهـاجر وجاهد (١٩) رقم الحديث (٣١٣٤) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ٣٣٩/١-٣٤٠ برقم (١٦٥٢).

من عشق الدنيا حتى صار عبداً لها لايقول ولا يفعل إلا مايجلب له نفعاً دنيوياً أو شهوة عاجلة وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أشد التحذير بل قد دعا على من هذه حاله فقال صلى الله عليه وسلم: "تعس عبدالدينار تعس عبدالدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبدالقطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش".(١)

وما أحسن قول من قال:(٢)

أنت الأمير على الدنيا بزهدك في ... حطامها وطريق الحق مسلوك
وأنت عبد لها مادمت تعشقها ... إن المحب لمن يهواه مملوك

ثانياً: عدم حفظ الجوارح عما حرم الله:

إن العلاقة بين القلب والجوارح علاقة قوية فكل منهما يتأثر بصاحبه تأثراً بالغاً فإذا سقم القلب تأثرت الجوارح بذلك وظهر عليها هذا المرض أقوالاً وأفعالاً قلت أو كثرت بحسب قوة المرض وضعفه. وكذلك الحال بالنسبة للقلب فالجوارح إذا فسدت وصالت وجالت في محارم الله فالقلب لاشك سيتأثر أيما تأثر وسيصاب أيما إصابة.

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر ... عليه ولاعن بعضه أنت صابر

قال القرطبي: الجوارح وإن كانت تابعة فقد يتأثر القلب وإن كان رئيسها وملكها بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن.(٣)

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا نزع واستعفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٧

(٢) أورد هذه الأبيات ابن الجوزى في كتابه التذكرة في الوعظ ص٣٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨٨/١

حتى تعلوا قلبه، وهو الران الذي ذكر الله (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون).[1][2]

ولذلك فقد أمر الإسلام بحفظ الجوارح وصيانتها عن كل ماحرم الله فأمر بحفظ اللسان عن القول على الله تعالى بلا علم وبين أن ذلك مما حرمه الله على العباد فقال تعالى في سياق ذكره للمحرمات (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون).[3]

وكذلك بحفظه من الكذب فقال تعالى: (ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكـٰذبين).[4]

وقال: (يـٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصدقين).[5]

وأمر كذلك بحفظه عن السخرية والاستهزاء بالآخرين فقال عز من قائل: (يـٰأيها الذين ءامنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم).[6]

وكذلك عن التنابز بالألقاب: (ولا تنابزوا بالألقـٰب)[7] وغير ذلك مما فيه حفظ اللسان.

وأمر الإسلام كذلك بحفظ السمع عن كل باطل ولهو فقال تعالى:

---

(١) الآية (١٤) من سورة المطففين.

(٢) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٤٣٤/٥ كتاب التفسير (٤٨) باب (٧٥) من سورة ويل للمطففين رقم الحديث (٣٣٣٤) وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وحسنه الألبانى في صحيح الترمذى ١٢٧/٣ برقم (٢٦٥٤-٣٥٦٩).

(٣) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ٦١ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٦) جزء من الآية (١١) من سورة الحجرات.

(٧) جزء من الآية نفسها.

(ومـن الناس من يشترى لهـو الحديث ليضل عن سبيـل اللـه بغير علم).[١]

أخرج عبـدالرزاق في تفسيره عـن مجاهـد قال: هـو الغنـاء وكل لعب لهـــو.[٢]

وأمر كذلك بحفظ البصر فقال تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا).[٣]

وقـال تعالى: (قل للمؤمنين يغضـوا من أبصـٰـرهم ويحفظـوا فروجهم ذلـك أزكىٰ لهم إن الله خبير بما يصنعـون وقل للمؤمنـٰـت يغضضـن مـن أبصـٰـرهن ويحفظن فروجهن).[٤]

وأمـر بحفظ اليد عن البطـش والسرقة والرجل عـن المشى في الأرض كبراً وإفسـاداً وغير ذلك ممـا ورد في كتاب الله وسنـة رسـوله صلى اللـه عليه وسلم من الأمر بحفظ الجوارح مما يصعب جمعه في هذا الموضع وبالله التوفيق.

---

(١) جزء من الآية ٦ من سورة لقمان .

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١٠٥/٢

(٣) جزء من الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

(٤) الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ من سورة النور.

الفصل الثالث
منهج القرآن الكريم في معالجة أمراض القلب

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب.

المبحث الثانى: الدعوة إلى الشمول والتوازن في حياة المسلم.

المبحث الثالث: التربية القرآنية للقلب عن طريق الترغيب والترهيب.

المبحث الرابع: التربية بالقدوة وضرب المثل.

تمهيـــد:

إن التربيـة القرآنية لهى شاطىء الأمان في كل زمـان ومكان وخاصة في عالمنا المعاصر الذى انتابته الفوضى والمشكلات، في شتى نواحيه ولم تفلح تلك القوانين البشرية والدراسات النفسية والاجتماعية العقيمة التى أجريت بعيـدة عـن منهـج اللـه العليم الخبير في تنظيم هـذه الفـوضى أو حل تلـك المشكلات، وستظل التربية القرآنية هى المنقذ الوحيـد للبشرية ففيها وحدها يكـون الفلاح والخير والعـدل وفيهـا وحدهـا يكـون النـور والانشـراح والطمأنينة قال تعالى: (يـٰأيها الناس قد جاءتكم موعظـة من ربكم وشفاء لما في الصـدور وهـدى ورحمـة للمـؤمنين قـل بفضـل اللـه وبرحمتـه فبـذٰلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).[1]

وقـال تعـالى: (أفلا يتـدبرون القـرءان ولـو كان مـن عنـد غير اللـه لوجدوا فيه اختلـٰفاً كثيراً).[2]

وكيف لايكون القرآن الكريم والنور المبين والصـراط المستقيم كذلك وهو منهج العليم الخبير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).[3]

وسـأحاول في المبـاحث التـالية أن ألخص منهـج القـرآن الكـريم في معـالجة أمـراض القلوب وذلـك فيمـا أرى والله أسـأل التـوفيق والسـداد.

---

(١) الآيتان ٥٧-٥٨ من سورة يونس.
(٢) الآية ٨٢ من سورة النساء.
(٣) الآية ١٤ من سورة الملك.

المبحث الأول

غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب

وذلك يتم من خلال الأمور التالية:

أولاً: توجيه القلب البشرى إلى معرفة الله جل وعلا بأسمائه وصفاته:

فالقرآن الكريم مملوء بأسماء الله عز وجل وصفاته التى يتعرف بها إلى خلقه ممايورث للقلوب محبته تعالى وخشيته ومهابته وإجلاله والخوف منه.

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على معرفتها والإيمان بها والعمل بمقتضاها فقال صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة".(١)

والإحصاء يقع بالقول ويقع بالعمل فالذى بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والمتعال والقدير ونحوها فيجب الإقرار بها والخضوع عندها وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها كالرحيم والكريم والعفو ونحوها فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدى حق العمل بها فبهذا يحصل الإحصاء العملى وأما الإحصاء القولى فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ فإن المؤمن يمتاز عنه بالايمان والعمل بها.(٢)

فمثلاً من أسماء الله عز وجل الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير فالإيمان بها يورث للعبد دوام مراقبة الله عز وجل لأنها هى التعبد بمقتضى هذه الأسماء فمن عقلها وآمن بها وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة.(٣)

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٨٢/٤ كتاب التوحيد (٩٧) باب إن لله مائة اسم إلا واحداً (١٢) برقم ٧٣٩٢

(٢) هذا الكلام نقله ابن حجر عن ابن بطال. فتح البارى ٣٧٨/١٣

(٣) انظر مدارج السالكين ٦٦/٢

وكذلك القول في باقي أسماء الله عز وجل قال تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها).[١]

ثانياً: توجيه القلب البشرى المريض إلى النظر في آيات الله الشرعية:

فقد وجه الله تبارك وتعالى المؤمن إلى الاستماع والإنصات لما يتلى عليه من آياته فقال عز وجل: (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون).[٢]

وبين أن ذلك سبب لحصول الرحمة للسامع المنصت (لعلكم ترحمون) وأمر كذلك بتدبر كلامه تعالى: (أفلا يتدبرون القرءان) وبين أن ذلك من علامات القلب الحى بالإشارة إلى أن الذى لايتدبر القرآن مقفل قلبه (أم على قلوب أقفالها).[٣]

وقد وجه الله تعالى إلى الاستشفاء النفسي بالقرآن الكريم في كتابه الكريم فقال تعالى: (يـٰأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين).[٤]

وقد أجملت هذه الآية القرآنية الكريمة الإصلاح القرآنى لأنفس البشر في أربع **مسائل**[٥] **وهي:**

الأولى: الموعظة:

والـوَعْظُ والعِظةُ والعَظةُ والموعِظـةُ: النصح والتذكير بالعواقب.[٦]

---

(١) جزء من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف.
(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد.
(٤) الآية ٥٧ من سورة يونس.
(٥) انظر تفسير المنار ١١/٤٠٠
(٦) اللسان (وعظ) ٧/٤٦٦

والموعظة تشمل ماورد في القرآن الكريم من أساليب الترغيب والترهيب التى يرق لها القلب فتبعث على الفعل والترك قال تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتٰب والحكمة يعظكم به)[١] وفي التى بعدها (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الأخر ذلكم أزكىٰ لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لاتعلمون)[٢] وجاء في سورة آل عمران بعد النهى عن أكل الربا والأمر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس وما أعده الله لذلك من الجزاء (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)[٣] وأمثلة الوعظ كثيرة يصعب حصرها وحسبي ماذكرت من أمثلة.

الثانية: شفاء مافي الصدور:

أى شفاء جميع مافي القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق وسائر الأمراض النفسية التى يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر من شك وحقد وحسد وبغي وعدوان وحب للباطل والظلم والشر وبغض للحق والعدل والخير.[٤]

فالقرآن كله شفاء، شفاء للأمراض الحسية والمعنوية وأمثلة ذلك كثيرة:

فالفاتحةرقية نافعة كماورد في حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: "كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت إن سيد الحىّ سليم وإن

---

(١) جزء من الآية ٢٣١ من سورة البقرة.
(٢) جزء من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة.
(٣) الآيتان ١٣٧-١٣٨ من سورة آل عمران.
(٤) انظر تفسير المنار ٤٠١/١١

نفرنا غيب فهل منكم من راقٍ؟ فقام معها رجل ماكنا نأبِنُه[١] برقية، فرقاه فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاة وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى؟ قال: لا، مارقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لاتحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "وما كان يدريه أنها رقيه؟ أقسموا واضربوا لى بسهم".[٢]

والمعوذات كذلك كما ورد في حديث عائشة رضى الله عنها "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها".[٣]

وغير ذلك من الأمثلة على شفاء القرآن للأمراض الحسية وإن كانت الآية في معرض ذكر شفائه للأمراض المعنوية بقرينة (لما في الصدور).

وقراءة كلام الله ذكر له وذكره جالب للاطمئنان مبعد للوساوس والنزغات قال تعالى: (الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).[٤]

فالتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر[٥] قال تعالى: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بمايقولون فسبح بحمد ربك وكن من السٰجدين واعبد ربك حتى

---

(١) نأبنه: ماكنا نأبنه برقية: أي ماكنا نعلم أنه يرقي فنعيبه بذلك يقال أَبَنْتُ الرجل آبِنُه وآبُنُه إذا رميته بخَلّة سوء فهو مأبون. انظر النهاية ١٧/١ مادة (أبن).

(٢) أخرجه البخارى ٣٤٢/٣ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب فضل فاتحة الكتاب (٩) برقم ٥٠٠٧

(٣) أخرجه البخارى ٣٤٤/٣ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب فضل المعوذات (١٤) برقم ٥٠١٦

(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٥) تفسير المنار ٤٠٢/١١

يأتيك اليقين)[١] وقال تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلٰم فهو على نور من ربـه).[٢]

الثالثة: الهدى:[٣]

وذلـك في المقام الخاص مقام المصائب والمقام العام مقـام الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

والقرآن الكريم ملىء بالدعوة إلى الثبات في كلا المقــامين[٤] والوعد بالهداية لمن أحسن فيهما قال تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه).[٥]

وقـال كـذلك (يثبـت الله الـذين ءامنـوا بالقول الثـابت في الحيٰوة الدنيا وفي الآخرة).[٦]

الرابعة: الرحمة للمؤمنين:

وهى ماتثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من الرحمة التى هى صفة كمال من آثارها إغاثة الملهوف وبذل المعـروف وكف الظلم ومنع التعـدى والبغـى وغير ذلـك مـن أعمـال الخير والبر[٧] وقد وصف اللــه المؤمنين بقـوله: (رحمـاء بينهـم)[٨] وبقـوله: (وتواصـوا بالصبر وتواصـوا

---

(١) الآيات ٩٧-٩٩ من سورة الحجر.

(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٣) تقدم تعريف الهداية لغة واصطلاحاً وذكر أقسامها ومقاماتها بالتفصيل.

(٤) كقوله تعالى: (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأمـول والأنفس والثمـرت وبشـر الصـبرين) (البقـرة: ١٥٥) وقـوله: (والعصـر إن الإنسـان لفي خسـر... وتواصـوا بالصبر) (العصـر: ١-٣) وقوله تعالى: (ليــس البر أن تولـوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله... والصـبرين فى البأساء والضراء وحين البأس) (البقرة: ١٧٧) والآيات في ذلك كثيرة.

(٥) جزء من الآية ١١ من سورة التغابن.

(٦) جزء من الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٧) انظر تفسير المنار ٤٠٣/١١

(٨) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

بالمرحمة).[١]

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التى تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها.

والشفاء تخلية يتبعها طلب التحلية بالصحة الكامل والعافية التامة وهو الهدى من ثمراته هذه الرحمة التى لاتوجد في صورة كمالها البشري إلا في المؤمنين المهتدين ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون.[٢]

ثالثاً: توجيه القلب البشرى المريض إلى النظر في آيات الله الكونية والنفسية:

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين المجالين الكبيرين لما يحملان من دلائل عظيمة على توحيد الله وصدق كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (سنريهم ءايـٰتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).[٣]

فليس القرآن الكريم كتاباً مخصصاً للعلوم الكونية أو البشرية أو الإنسانية أو النفسية أو التاريخية وإنما ينتقى من آفاق الكون وعجائب النفس البشرية مايحقق أغراضه وأهدافه[٤] التى من أهمها تبيان الحق وإظهاره والاستدلال على توحيد الله عز وجل وترسيخ الإيمان باليوم الآخر بالبرهان والحجة وتربية الخوف من الله والابتعاد عن المحرمات والآثام.[٥]

فالكون آية الله الكبرى ومعرض قدرته المعجزة التى تبهر العقول

---

(١) جزء من الآية ١٧ من سورة البلد.
(٢) انظر تفسير المنار ١١/٤٠٣
(٣) جزء من الآية ٥٣ من سورة فصلت.
(٤) انظر التربية بالآيات لعبدالرحمن النحلاوى ص١٩٥
(٥) انظر التربية بالآيات ص٧١ إلى ص٨٦

ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون وروعة الإحساس بها جياشه واصلةً إلى الأعماق.

فالحواس تتبلد لما ترى وماتسمع فتمر بكل شىء كأنه لاوجود له وتنسى -بحكم التعود- أن كل شىء حولها آية للقدرة المبدعة الخالقة التى تبدع كل ماتريد (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون).(١)

الليل والنهار متعاقبان متكوران على الأرض مختلفان في الطول باختلاف الفصول واختلاف المكان.

الشمس الطالعة الغاربة في كل يوم لاتكف يوماً عن الطلوع أو عن الغروب.

النجوم المتلألئة في ظلمة الليل زينة للسماء وهداية للحيران ورجوماً للشياطين.

القمر الذى يبدأ هلالاً لايكاد يرى ويظل يكبر حتى يمتلى وجهه بالنور ويغمر الأرض بنور شفاف حالم هادئ جميل ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ هلالاً لايكاد يرى ثم يختفى في المحاق.

الحياة النابتة في البذرة الصغيرة التى تفتح الأرض بقوة فتتشقق عن ورق أخضر جميل.

النظام المذهل في روعته، المذهل في دقته الذى يسير عليه الكون كله فلا يختل منه كوكب واحد ولا يخرج عن مساره قيد أنملة.

الزمن ذاته، كنهه وحقيقته وطريقة إدراكه.

المخلوق البشرى المعجز بكل مافيه من أجهزة دقيقة وطاقات.

العمليات الجسمية والعمليات الفكرية والعمليات الروحية في كيان

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس.

الإنسان .

آيات كلها من آيات الله في الكون كل منها معجز وكل منها هائل وكل منها مثير ولكن لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعى ودون تفكير.

والإسلام يعمد إلى هذه الآيات فيبث فيها الحياة، فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ويستشعر عظمة الله عز وجل وإبداعه في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها فتتفتح للكون كأنه جديد.

وللقرآن في هذا الجانب قدرة عجيبة فإيقاظ النفس من إلفها ليس مهمة ميسره. إن أسلوبه القوى وجوه المشرق وروحه الصافيه لتنقل الإنسان نقلاً من إلفه وعادته وتهزه ليستيقظ، تلمس برفق أعصابه المكشوفة فتعطيه الشحنة كاملة فتنقلها إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة.

وكلما عاد المرء لقراءة هذه الآيات في كتاب الله العزيز كان اللقاء متجدداً في داخل النفس وفي صفحة الكون لاينفد ولا يسأم ولا يزول[١]

(إن في خلق السموٰت والأرض واختلٰف الليل والنهار لأيٰت لأولى الألبٰب).[٢]

(إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى).[٣]

---

(١) انظر منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٤٤/١-٤٧

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون).[١]

(والله أخرجكم من بطون أمهٰتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصٰر والأفئدة لعلكم تشكرون).[٢]

(خلق السمٰوٰت والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل).[٣]

(فلينظر الإنسٰن مم خلق).[٤]

ويصل استخدام الكون وآياته في إيقاظ الحس وإحياء القلب إلى حد استخدام أمثلة من الكون لتمثيل المواقف النفسية والاجتماعية والاقتصادية.[٥]

(كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الأخر).[٦]

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها).[٧]

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة).[٨]

(الله نور السمٰوٰت والأرض مثل نوره كمشكٰوة فيها مصباح...).[٩]

---

(١) الآية ١٠ من سورة النحل.
(٢) الآية ٧٨ من سورة النحل.
(٣) جزء من الآية ٥ من سورة الزمر.
(٤) الآية ٥ من سورة الطارق.
(٥) انظر منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٥١/١
(٦) جزء من الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.
(٧) جزء من الآية ١٧ من سورة الرعد.
(٨) جزء من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.
(٩) جزء من الآية ٣٥ من سورة النور.

رابعاً: توجيه القلب المريض إلى النظر في آيات الله التاريخية:

وهـى عبـارة عما ذكره الله عـز وجل في كتابه الكـريم مـن قصص الأنبيـاء ومـواقفهم وحوارهـم مـع أقـوامهم وكـذلـك مـاوقع مـن حوادث ومـواقف من السيرة النبوية وحوادث اجتماعية كخـراب سد مأرب وتمزيق شمل قبيلة سبأ[١] وغير ذلك.

والقـرآن الكريم ليس كتاب تاريخ يهتم بسـرد الحوادث التاريخيـة وتتـابعها الـزمنى وإنما كان ذكـره لها لما تحمله مـن عبر وعظـات لكل عاقل بصير قرأ القرآن وتدبره (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألبـٰب مـاكان حديثـاً يفترى ولكـن تصديق الـذى بين يديه وتفصيـل كـل شـىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون).[٢]

قـال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مـع قومهم وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين (عبرة لأولى الألبـٰب) وهى العقـول (ماكان حديثاً يفترى) أى: ومـا كان لهذا القـرآن أن يفترى مـن دون اللـه أى: يكـذب ويختلـق (ولكـن تصـديق الذي بين يديه) أى: مـن الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق مافيها من الصحيـح وينفى ماوقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكـم عليها بالنسخ أو التقـرير (وتفصيل كل شىء) من تحليل وتحريم ومحبـوب ومكروه وغير ذلك مـن الأمـر بالطاعات والـواجبات والمستحبات والنهـى عن المحرمات وماشـاكلها مـن المكروهات والإخبـار عن الأمور على الجلية وعن الغيوب المستقبلـة المجملة والتفصيلية والإخبـار عن الرب تبارك وتعـالى بالأسماء والصفـات وتنزيهـه عن مماثلة

---

(١) انظر التربية بالآيات ص٢٢١

(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف.

المخلـوقات فلهذا كان (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) تهتــدى به قلوبهم من الغـي إلى الـرشاد ومن الضلالـة إلى السـداد ويبتغـون به الـرحمة من رب العبـاد في هـذه الحياة الدنيـا والمعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنـا منهـم في الـدنيا والآخرة يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم النـاضرة ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.(١)

ومثـل هـذه الآية قوله تعـالى في قوم لوط: (وإنكـم لتمـرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون).(٢)

ومـن فوائد ذكر الحوادث التاريخية في كتاب اللـه عز وجل التعريف بالسنن الإلٰهيــة التى تحكم الحياة البشرية ومن خلالها يجرى قـدر الله،وإليها يشير التـوجيه الـربانى إشـارة واضحة (قد خلت من قبلكـم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عـٰقبة المكذبين).(٣)

والقـرآن الكـريم يجعل دراسـة التـاريخ والاعتبار بالسنن الـربانية في الحيـاة البشرية فارقاً بين أولى الـوعى والبصيرة والغــافلين الذين لهم أعين لايبصـرون بها وآذان لايسمعـون بها وقلوب لايفقهون بهـا (أفلم يسيروا في الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلـون بها أو ءاذان يسمعـون بها فإنها لاتعمى الأبصٰـر ولكن تعمى القلوب التى في الصدور).(٤)(٥)

والتربية بذكر السنن الربانية إنما هى جزء من التربية القرآنية الشاملة لإيقاظ مرضى القلوب ولتكوين المؤمن الحى القلب الطيب السلوك.

ولنـأخذ مثـالاً لسنة من سنن اللـه عـز وجل الألٰهيـة وهـى سننه في

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٤٩/٤

(٢) الآيتان ١٣٧-١٣٨ من سورة الصافات.

(٣) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٥) انظر حول التفسير الإسلامى للتاريخ ص٨٥

إهلاك المفسـدين بسبب فسادهـم وظلمهم عندما يقوم الصـراع بينهـم وبين دعاة الحق.[١]

قال تعالى بعد أن ذكر آيات قدرته وعدله في إهلاك الظالمين من قوم نوح وقبيلة عاد وثمود وقوم لوط وشعيب وموسى قال معقبـاً على ذلك كله (ذلـك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيـد وماظلمنـٰهم ولكـن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم ءالهتهم التى يدعون مـن دون الله من شىء لما جاء أمـر ربك ومازادوهم غير تتبيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القـرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد).[٢]

ومـن تمام هذه السنة أن اللـه نفى أن يهلك قرية بغير ظلم مـن أهلها (ومـاكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلهـا مصلحون).[٣] بل إنه تعالى وعد المؤمنين المتقين بالخيرات والبركات فقال تعالى: (ولـو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركـٰت من السماء والأرض ولكـن كذبوا فأخذنـٰهم بما كانوا يكسبون).[٤] وأما إذا بدل المنعم عليهم مابأنفسهم فـإن سنة الله عز وجل ستجـرى عليهم وستزول هـذه النعمة عنهم وسيحـل بهـم سخط الله وعقـابه (ذٰلـك بأن اللـه لم يك مغيراً نعمـة أنعمهـا على قـوم حتى يغيروا مابأنفسهم وإن اللـه سميـع عليم).[٥] فنعـم اللـه عـز وجل على الأقـوام والأمـم منـوطة ابتـداء بالعقـائد والأخلاق فمـادامـت هـذه العقـائد وهـذه الأخلاق كانت تلك النعم ثابتة بثباتها ولم يكن الرب الكـريم لينزعها منهم انتزاعـاً بغير ظلم منهم ولا ذنب فـإذا هم غيروا مابأنفسهـم مـن تلك العقائد والأخلاق ومـايترتب عليها مـن محاسن الأعمال غير اللـه عنـدئذ مابأنفسهم

---

(١) انظر التربية بالآيات ص٢٢٧

(٢) الآيات ١٠٠-١٠٢ من سورة هود.

(٣) الآية ١١٧ من سورة هود.

(٤) الآية ٩٦ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

وسلب نعمته منهم فصار الغنى فقيراً والعزيز ذليلاً والقوي ضعيفاً، هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم وهو كذلك في الأفراد إلا أنه غير مطرد فيهم لقصر أعمار كثير منهم دون تأثير التغيير حتى يصل إلى غايته.(٥)

ومن الدلالات التربوية لهذه السنة:

الحض على إصلاح النفس ومراقبة الإنسان لسلوكه فعلينا أن نرجع إلى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر أخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان ؟

هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح؟

هل غير الله مابنا قبل أن نغير مابأنفسنا، وخالف حكمه وبدل في أمرنا سننه؟

سبحانه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه واعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئا بدل عزنا بالذل وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر، نبذنا أوامر الله ظهريا وتخاذلنا عن نصره فجازانا بسوء أعمالنا.

وكيف لانلوم أنفسنا ونحن نرى أهل الكفر والإلحاد والعلمنة يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا ولانرى في أحد منا حراكا؟

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من أبناء هذ الدين لايبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ومسكنه الهوان، تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد يتقطع مابيننا لايحس أخ لأخيه ولا يهتم جار بشأن جاره ولا يرقب أحدنا في الآخر إلا ولا ذمة ولا نحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعزه

---

(١) انظر تفسير المنار ٣٧/١٠

بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلب؟.

هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟.

هل ظنوا أن لايبتلى الله مافى صدورهم ولا يمحص مافى قلوبهم؟.

ألايعلمون أن الله لايذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب؟.

هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لايبخلون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس؟

فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة في سبيل الإيمان، لابماله ولا بروحه؟.[١]

وتعلمنا هذه السنة أيضاً الاقتداء بالعدل الإلهى في كل أمورنا مع من نحب ومع من نكره مع الصديق ومع العدو (ولايجرمنكم شنئآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).[٢]

فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم[٣] فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه الا يحمله ذلك على ألايعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له.[٤]

إلى غير ذلك من الآثار التربوية الحميده التى لها أثر كبير في معالجة الكثير من أمراض القلوب.

---

(١) انظر تفسير المنار ١٠/٤٤-٤٥

(٢) جزء من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٣) في الاستقامة (يعدلوا عليهم) ولعل شيخ الإسلام رحمه الله عدى عدل بعلى ليضمنه معنى الصبر فإن العدل محتاج إلى الصبر وقد جاء في الإستقامة قبل هذه العبارة وبعدها الحث على الصبر والله أعلم.

(٤) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨/١

المبحث الثاني

الدعوة إلى الشمول والتوازن في حياة المسلم

وأعنى بالشمول الفهم الصحيح للإسلام كما جاء في قوله تعالى: (قل إن صلاتى ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العٰلمين لاشريك له)[١] إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة بالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالممات وماوراءه، إنه التوحيد الحق والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات وتخلصها لله وحده (لله رب العٰلمين) القيوم المهيمن المتصرف المربي الحاكم للعالمين في إسلام كامل لايستبقى في النفس ولا في الحياة بقية لايعبدها لله.[٢]

فليس معنى العبادة في الإسلام أن تستولى التقوى على قلب المرء في السجود والركوع فإذا ختم صلاته هبت في داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان أو تخاذل عن القيام بالأمانة أو ضعف عن نصرة الحق. كلا إن العبادة بحق أن تبقى التقوى ويبقى الإيمان مع العبد ممتلئاً بهما قلبه ينيران له الطريق ويهديانه في خلوته وفي حال قيامه بأى عمل، وحين لقائه لإخوانه من البشر وتعامله معهم، فلا يتعثر.[٣] (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن بالله واليوم الأٓخر والملٰئكة والكتٰب والنبيين...)[٤] ولاشك أن هذا الفهم للإسلام يجعل العبد في مراقبة دائمة لله عز وجل حتى كأنه يراه وكلما اشتدت هذه

(١) الآية ١٦٢ وجزء من الآية ١٦٣ من سورة الأنعام.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٨/١٢٤٠-١٢٤١

(٣) انظر منهج التربية الإسلامية ٣٧/١

(٤) جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذى قيامها به ولقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة وهى قوله في الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه".(١)(٢)

وأما التوازن فالمقصود به أن يوازن المسلم في حياته بين مطالبه الروحية والبدنية فلا يغلب جانباً على جانب في الحب والصدق والإنفاق والعدل وغير ذلك.

وقد حث الله عز وجل عباده على التوسط في كل الأمور وأثنى على هذه الأمة به فقال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس).(٣) والوسط بالتحريك اسم لما بين الطرفين.(٤) ويطلق على خيار الشيء لأن الأواسط محمية بالأطراف(٥) قال حبيب:(٦)

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً

فمن هداية الله لهذه الأمة وإكرامه لها وعنايته بها أن جعلها أمة

---

(١) قطعة من حديث جبريل الطويل وقد سبق تخريجه ص ٢٠ .
(٢) انظر أعلام الموقعين لابن القيم ١٥٥/٤-١٥٦
(٣) جزء من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.
(٤) انظر اللسان عند مادة وسط ٤٢٦/٧، والدر المصون لابن السمين ١٥١/٢
(٥) انظر الدر المصون ١٥١/٢
(٦) هو شاعر العصر أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي من حوران من قرية جاسم كان ذكياً له ديوان كبير، مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين. انظر سير أعلام النبلاء ٦٣/١١، شذرات الذهب ٧٢/٢، ٧٤
وهذا البيت في ديوانه ٣٧٤/٢ بشرح التبريزى بلفظ:

كانت هى الوسط الممنوع فاستلبت ... ماحولها الخيل حتى أصبحت طرفا

وسطاً بجميع معانى الوسط الطيب فهى أمة وسط في المكان وفي الزمان وفي الدين بين الإفراط والتفريط لأن الزيادة في الأمر إفراط والنقص فيه تعطيل، أو تقصير وتفريط وهى وسط أيضاً في الأخلاق وفي العقيدة وفي التفكير وفي التنسيق والتنظيم وفي العلم[١] كل ذلك لتكون أمة القيادة للناس (لتكونوا شهداء على الناس)[٢] عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجىء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أى رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ماجاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فتشهد أنه قد بلغ وهو قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) والوسط العدل".[٣]

فهي وسط في العقيدة لاتغلوا في الأنبياء غلو النصارى والبوذيين فتجعلهم آلهة أو أبناء الله ولا تجفو جفاء اليهود فتقتل بعضهم وتعنت بعضهم الآخر وتحرف الكلم عن مواضعه وتؤمن ببعض الأنبياء والكتب وتكفر ببعض، ولكنها أمة وسط تؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين وما أنزل إليهم من ربهم على الإجمال لاتفرق بين أحد منهم ولا تجنى على كتاب مقدس بالتأويل والتحريف، فموقفهم في العقيدة موقف سليم يأمن الناس فيه من الطائفية التى سببها الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم أو الإيمان بكتاب سماوى واحد دون الكتاب الآخر.[٤]

---

(١) انظر صفوة الآثار والمفاهيم ٢/٣٨٩-٣٩٠

(٢) جزء من الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه البخارى في الصحيح ٢/٤٥٣ كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب قول الله (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) برقم (٣٣٣٩).

(٤) انظر صفوة الآثار والمفاهيم ٢/٣٩٠

فـدينِنا ولله الحمد وسط بين الغلـو والتقصير قال تعـالى: (قل يـٰأهل الكتـٰب لاتغلـوا في دينكم غير الحق)[١] وقـال تعالى: (يـٰأيها الذين ءامنـوا لاتحرموا طيبـٰت ماأحل الله لكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتـدين وكلوا مما رزقكم الله حلـٰلاً طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون).[٢]

وديننـا وسط أيضاً بين التشبيـه والتعطيل فيوصــف الله عز وجل بما وصف به نفسه ووصفه به أعرف الناس به رسوله صلى اللـه عليه وسلم من غير تعطيـل ومـن غير تمثيـل كمـا في قوله تعالى: (ليـس كمثلـه شيء وهو السميع البصير).[٣] فقوله تعالى: (ليس كمثله شيء) رد على المشبهة وقوله: (وهو السميع البصير) رد على المعطلة.

وهـو وسـط كـذلك بين الجبر والقـدر فـالعبد غير مجبـور على أفعـاله وأقـواله، وليســت هى بمنزلـة حركات المرتعش وحركـات الأشجـار بالرياح وغيرها، وليست هى مخلوقة للعباد بل هى فعل العبد وكسبه وخلق الله عز وجل.وهو وسط كذلك بين الأمن والإياس.[٤]

وديننـا يدعـو أيضـا إلى الـوسطية في الأخلاق فلا يترك الحيـاة كلهـا للمشاعر والضمائر ولا للترف والميوعة والهوى الذى يعصف بها في تيارات المجون، ولكنه يرفع ضمائر البشر بالتهذيب والتوجيـه ويغمرها بتقوى الله ومـراقبته لتسلـك محاسن الأخلاق مقتـدية بالمصطفـى صلى اللـه عليـه وسلم وبتعاليم القرآن الكريم.[٥]

---

(١) جزء من الآية ٧٧ من سورة المائدة.
(٢) الآيتان ٨٧-٨٨ من سورة المائدة.
(٣) جزء من الآية ١١ من سورة الشورى.
(٤) انظر شرح الطحاوية ٥٨٦-٥٨٨
(٥) انظر صفة الآثار والمفاهيم ٢/٣٩١-٣٩٢

فالحب مثلاً للوالدين والأبناء والزوجات والإخوان والأموال مباح شرعاً بل هو مما زينه الله عز وجل للناس في هذه الحياة الدنيا[١] ومع ذلك نجد الدعوة إلى الوسطية فيه فلا يفرط فيه حتى يكون صاداً عن دين الله وملهياً عن واجب العبد الأساسي، وهو عبادة الله عز وجل ومنسياً له ما أعد الله عز وجل للطائعين قال تعالى: (زين للناس حب الشهوٰت من النساء والبنين والقنٰطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعٰم والحرث ذلك متٰع الحيوٰة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها وأزوٰج مطهرة ورضوٰن من الله والله بصير بالعباد).[٢]

وقال تعالى: (قل إن كان ءاباؤكم وأبناؤكم وإخوٰنكم وأزوٰجكم وعشيرتكم وأموٰل اقترفتموها وتجٰرة تخشون كسادها ومسٰكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفٰسقين).[٣]

إنه مما لاشك فيه أن من يتخذ هذا المنهج العظيم درباً يسلكه فسوف يجنب قلبه كثيراً من الأمراض التى قد تصيبه نتيجة إفراط أو تفريط كالعشق أو البخل أو الظلم أو الجبن أو غير ذلك.

---

(١) قال صاحب الإنصاف في حاشيته على الكشاف: التزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة لأنه لاخالق إلاّ هو ٤١٦/١٠

(٢) الآيتان ١٤-١٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

المبحث الثالث

التربية القرآنية للقلب عن طريق الترغيب والترهيب

وذلك من طريقين:

الأول: الحديث عن أسباب مرض القلب وذم مرضى القلوب وذكر ماتجلبه هذه الأمراض من مصائب ونكبات فى الدنيا والآخرة:

لقد اهتم القرآن الكريم ببيان أسباب أمراض القلوب اهتماماً عظيما لأن معرفة سبب الشيء يعتبر شروعاً في علاجه، وكتاب الله الكريم لم يكتف بذكرها فقط بل قام بعرضها بصورة تنفر منها مع التحذير الشديد من مباشرة شيء منها، وذلك سواء بالنسبة للأسباب العامة أو الأسباب الخاصة فنرى مثلاً في معرض ذكره تعالى لابتلائه وامتحانه لعباده وصف من يسقط في هذا الامتحان بالخبث كما في قوله تعالى: (ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)[١] تحذيراً وتنفيراً من ذلك.

ونرى تارة تصوير من يرتد على أدباره بعد أن هداه الله وبان له الحق بصورة منفرة للغاية قال تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبين).[٢]

وقال كذلك: (قل أندعوا من دون الله مالاينفعنا ولايضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدىٰنا الله كالذى استهوته الشيٰطين في الأرض حيران له أصحٰب يدعونه إلى الهدى...).[٣]

---

(١) جزء من الآية ١٧٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١١ من سورة الحج.

(٣) جزء من الآية ٧١ من سورة الأنعام.

ومن بلاغة هذه الآية أنها أنكرت هذا الفعل من خمسة أوجه:

أولاً: أن دعاء غير الله تحول وارتداد عن دعاء القادر على كل شيء الذى يكشف مايدعى إليه إن شاء إلى دعاء العاجز الذى لايقدر على نفع ولا ضر.

ثانياً: أنه نكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء والعرب تقول فيمن عجز بعد قدرة أو سفل بعد رفعة أو أحجم بعد إقدام على محمدة نكص على عقبيه وارتد على عقبيه ورجع القهقرى والأصل فيه رجوع الهزيمة أو الخيبة والعجز عن السير المحمود ثم صار يطلق على كل تحول مذموم.

ثالثاً: التعبير بنرد المبني للمجهول بدلا من التعبير بنرتد أو نرجع والنكتة فيه أن هذا التحول المذموم ليس من شأنه أن يقع من عاقل لأن العاقل إذا وصل إلى مرتبة عالية من العلم والكمال فإنه لايختار الرجوع عنها واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير وأعلى.

رابعاً: بيان أن هذا الطريق وهو دعوة غير الله يخالف هدى الله وكل ماخالف هدى الله فهو باطل.

خامساً: المثل الذى يصور المرتد في أقبح حالة كانت تتصورها العرب وذلك قوله تعالى: (كالذى استهوته الشيٰطين في الأرض حيران له أصحٰب يدعونه إلى الهدى ائتنا).

ومعنى استهوته أى ذهبت بهواه وعقله أو بمعنى زينت له هواه.[١]

ونرى كذلك التحذير من مكائد عدو الله اللعين إبليس كثيراً جداً يصعب حصره فلا تكاد تجد حزباً يخلو من ذكره والتحذير منه ومن كيده فتارة نرى التحذير منه باسمه (إن الشيطٰن لكم عدو فاتخذوه عدواً)[٢]

---

(١) انظر تفسير المنار ٧/٥٢٣-٥٢٤

(٢) جزء من الآية ٦ من سورة فاطر.

(ألم أعهد إليكم يابني ءادم ألاّ تعبدوا الشيطٰن إنه لكم عدو مبين)(١) (إنا جعلنا الشيٰطين أولياء للذين لايؤمنون).(٢)

وتارة بذكر مكائده وفضحها قال تعالى: (وقاسمهما إني لكما لمن النٰصحين فدلٰهما بغرور)(٣) وقال تعالى كذلك: (الشيطٰن يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم)(٤) وقال تعالى ذاكراً تبرأه -عليه لعنة الله- يوم القيامة ممن يتبعه: (وقال الشيطٰن لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطٰن إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظٰلمين لهم عذاب أليم)(٥) كل ذلك وغيره في مواضع متعددة وبأساليب مختلفة ليحذر الناس منه أشد الحذر فتسلم لهم قلوبهم ويسلم لهم إيمانهم.

ونرى كذلك ذكر الجهل وضعف البصيرة كسبب من أسباب مرض القلب والتحذير منه والترهيب من الوقوع فيه وقد جاء ذلك عن طريق بيان مايؤدي إليه من الوقوع في السيء من الأقوال والأعمال قال تعالى: (كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهٰلة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم)(٦) وكذلك عن طريق الثناء على العلم وترتيب حصول السلامة للقلب على الظفر به وبالتالي يظهر جلياً سوء

---

(١) الآية ٦٠ من سورة يس.
(٢) جزء من الآية ٢٧ من سورة الأعراف.
(٣) الآية ٢١ وجزء من الآية ٢٢ من سورة الأعراف.
(٤) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.
(٦) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

الجهل ومايؤدي إليه من فقد لأسباب السلامة، قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلمٰوءا).[١]

وقال كذلك: (والرٰسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألبٰب)[٢] قالت عائشة رضى الله عنها: "كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمة ومتشابهه ولا يعلمونه".[٣] وقال تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم)[٤]، فالخشية والإيمان بالمحكم والمتشابه والإخبات كل ذلك إنما يحصل لمن بالعلم تحصن وعن الجهل تترس، وأما الجاهل فلا حظ له من ذلك بل هو في الدنيا غارق في الشبهات والشهوات وفي الآخرة يخشى عليه من عذاب النار (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجٰهلين).[٥]

ونرى كذلك ذكر أسباب مرض الشبهات ومرض الشهوات وبيان ذلك بياناً شافياً كافياً والتحذير الشديد والترهيب العظيم من كل ذلك.

ولبيان ذلك نورد بعض الأمثلة:

لقد حذر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم من الهوى أشد تحذير وبين أن ضلال من ضل إنما كان بسبب هذا الداء العضال وذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (ومن أضل ممن أتبع هوىٰه بغير هدى من الله)[٦] وقوله تعالى: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[٧] وأخبر أن من

---

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٢) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٧٦/٢ برقم ١٢٩ وقال محقق هذا الجزء الدكتور حكمت بشير إسناده صحيح.

(٤) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٥) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٦) جزء من الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٧) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص.

اتبع أهواء أهل الكفر والبغى فلن يجد له من دون اللـه من ولي ولا نصير فقال تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصـرى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك مـن العلم مالك من الله من ولى ولا نصير)[١]

وحذر تعـالى من الإفراط في حب المبـاحات والغلـو في تعـاطيها حتى تؤدي بعاشقها إلى التقصير في حقوق الله تبارك وتعالى فقـال تعالى: (يٰأيها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولٰدكم عدواً لكم فاحذروهم).[٢]

وقـال صلى الله عليه وسلم: "كـلوا واشرابوا والبـسوا وتصـدقوا في غير إسراف ولامخيلة"[٣].

الطـريق الثاني: الحديث عـن القلب السليم بذكر أسباب سلامته وما أعد لأصحابه من الخير في الدنيا والآخرة.

فكمـا اهتم القرآن الكريم ببيـان أسباب مرض القلـب والتحذير منها فقـد اهتم ببيان أسباب سلامتـه والترغيب فيها لأن غشيـان أسبـاب السلامة والنهل من معينها هو من باب التحلية التى تعقب التخلية.

وأهـم أسباب سلامة القلـب سلامة العقيدة وصفـاؤها ولذلك فكتاب الله عز وجل كله يقرر التوحيد بأنواعه لأنه:

إما خبر عن الله عز وجل وما يجب أن يوصف به ومـايجب أن ينزه عنه وهو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي.

وإمـا دعوة إلى عبادته وحده لاشريك له وخلع مـايعبد من دونه وهو التوحيد الطلبي الإرادي.

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة التغابن.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٣٤

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد ومافعل بهم في الدنيامن النصر والتأييد وما يكرمهم الله به في الآخرة وهو جزاء توحيده،أو خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ومايفعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده.(١)

والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها قوله تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد).(٢) وذلك في التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادي.

وقوله تعالى: (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين).(٣) وذلك في التوحيد الطلبي الإرادي.

وقوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة فإخوٰنكم في الدين).(٤)

وقوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءايٰته زادتهم إيمٰناً وعلى ربهم يتوكلون).(٥) وذلك في ذكر حقوق التوحيد ومكملاته.

منها أيضاً في ذكر جزاء أهل التوحيد في الدنيا والآخرة قوله تعالى: (الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمٰنهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون).(٦)

ومنها أيضاً في ذكر جزاء أهل الشرك في الدنيا وما حل بهم من

---

(١) انظر مختصر معارج القبول ص٢١-٢٢

(٢) سورة الإخلاص بأكملها.

(٣) جزء من الأية ٢٩ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ١١ من سورة التوبة.

(٥) الآية رقم ٢ من سورة الأنفال.

(٦) الأية رقم ٨٢ من سورة الأنعام.

العذاب قوله تعالى: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صٰعقة مثل صٰعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لوشاء ربنا لأنزل ملٰٓئكة فإنا بماأرسلتم به كٰفرون).(١)

قال سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية:

إنها جولة في مصارع الغابرين جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين(٢)

ومنها في ذكر مصير المشركين البئيس يوم القيامة وما يلقونه من عذاب وتنكيل قوله تعالى: (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون).(٣) وقوله تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزوٰجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صرٰط الجحيم)(٤)، (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون)(٥) وكما اهتم كتاب الله الكريم بالتوحيد هذا الاهتمام العظيم فقد اهتم أيضاً بأسباب السلامة الأخرى فها هي عبادات الإسلام تملأ الكتاب الكريم أمراًبها وحثاً على فعلها وتحذيراً من التهاون فيها سواءً في ذلك الظاهرة والباطنة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء بالوعد وأداء الأمانة والخوف والتقوى وغير ذلك من أنواع العبادات قد شغل حيزاً كبيراً في كتاب الله عز وجل.(٦)

---

(١) الآيتان ١٣و١٤، من سورة فصلت.

(٢) في ظلال القرآن ٣١١٧/٢٤

(٣) الآية ٢٢ من سورة الأنعام.

(٤) الآيتان ٢٢-٢٣ من سورة الصافات.

(٥) الآية ١٩ من سورة فصلت.

(٦) انظر ذلك بالتفصيل في الباب الأول/الفصل الثاني.

المبحث الرابع:

التربية بالقدوة وضرب المثل.

مماهو معلوم أن التربية بالقدوة تعتبر أرقى أنواع التربية لأنها واقع حي ملموس يدعو إلى الامتثال بالعمل قبل القول ولذا فإنها أبلغ وأكثر تأثيراً من التربية بالمقال(١)

وقد اهتم القرآن الكريم بذكر كثير من الشخصيات الصالحة لأن يقتدى بها أعظمها شخصيه خاتم النبيين وإمام المتقين محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً)(٢)، ولقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن" (٣) وقال تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم)(٤)ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته ولما فيه من أسس تربوية إسلامية وأساليب تربوية قرآنية(٥)

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً)

---

(١) انظر معالم في التربية للدكتور عجيل جاسم النشمى ص ١٧٥

(٢) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح ١/٥١٢-٥١٣ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب جامع صلاة الليل (١٨) برقم ٧٤٦/١٣٩

(٤) الآية (٤) من سورة (ن).

(٥) أصول التربية الإسلامية وأساليبها للنحلاوى ص٢٢٩

قال رحمه الله: هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: (لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً)[١] والمتتبع لكتاب الله وسنة رسول الله يعجب من عظمه سيرته صلى الله عليه وسلم فهو القدوة والأسوة في كل الأمور الدنيوية والأخروية في رسوخ العقيدة وفي التعامل وفي العبادة وفى الإخلاص وسلامة القلب صلوات الله وسلامه عليه.[٢]

ومن القدوات التى ذكرها القرآن العظيم أبونا آدم عليه السلام فهو قدوة صالحة في مقام التوبة والاستغفار (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخٰسرين).[٣]

ومنها نوح عليه السلام فهو قدوة صالحة في مقام الصبر والتحمل في سبيل الدعوة إلى التوحيد (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما)[٤] وقال تعالى عن نوح عليه السلام

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٩٢/٦

(٢) يمكن الرجوع في ذلك إلى كتب السيرة النبوية وكتب الشمائل كسيرة ابن هشام والبداية والنهاية ودلائل النبوة للبيهقى والسيرة النبوية لابن حبان وتاريخ الطبرى وابن الأثير وتاريخ خليفة بن خياط والصحيحين والسنن والمسانيد والصحاح والشمائل ككتاب الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوى والشمائل للترمذى وغيره ولأننى أعتقد أنني لو ذكرت أمثلة لبعض ذلك سوف أنقص الموضوع حقه بل سيكون كلاماً مبتوراً قليلاً فإننى لم أذكر أى مثال واكتفيت بهذه الإحالة والله المستعان.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ١٤ من سورة العنكبوت.

(قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاءى إلا فراراً وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصٰبعهم فيءاذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا)[1] وهو قدوة كذلك في مقام البراءة من المشركين ولو كانوا أقرب الناس (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحٰكمين قال يٰنوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صٰلح فلا تسئلن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجٰهلين قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخٰسرين).[2] وهو قدوة في الاستعانة بالله عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقات[3] قال تعالى: (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسها)[4] وقال تعالى: (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظٰلمين وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين)[5] وهو قدوة كذلك في مقام الشكر قال تعالى: (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً).[6]

ومن القدوات التى ذكرها القرآن الكريم نبي الله هود عليه السلام فهو قدوة في التوكل على الله تعالى والبراءة من الشرك وأهله:

---

(١) الآية ٥-٩ من سورة نوح.
(٢) الآيات ٤٥-٤٧ من سورة هود.
(٣) انظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للشيخ عبدالرحمن السعدى ص١٥٠
(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة هود.
(٥) الآيتان ٢٨ و٢٩ من سورة المؤمنون.
(٦) الآية ٣ سورة الإسراء.

(قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مماتشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صرٰط مستقيم).[١]

وهو قدوة في الوعظ والتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا الفانية والدعوة إلى تقوى الله وطاعته (أتبنون بكل ريع ءاية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون).[٢]

ومن القدوات التى ذكرها القرآن كذلك أنبياء الله صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين الذين يمثلون أروع القدوات في تاريخ البشرية (أولئك الذين هدى الله فبهدىٰهم اقتده).[٣]

وأما ضرب المثل:

فالمثل الشبه يقال مِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد[٤] وهو تشبيه شىء بشىء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.[٥]

واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وتهييج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه وينتهى إلى أعماق نفسه.[٦]

---

(١) جزء من الآية ٥٤ والآيتان ٥٥ و٥٦ من سورة هود.
(٢) الآيات ١٢٨-١٣١ من سورة الشعراء.
(٣) جزء من الآية (٩٠) من سورة الأنعام.
(٤) اللسان عند مادة (مثل) ٦١٠/١١
(٥) الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ص٩
(٦) تفسير المنار ٢٣٦/١ وقد عزا صاحب المنار هذا القول لشيخه محمد عبده.

والمقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب مالا يؤثره وصف الشيء في نفسه وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين أمثاله قال تعالى: (وتلك الأمثٰل نضربها للناس)[١].[٢]

وسأتكلم فيمايلى باختصار على أحد أمثلة القرآن مع بيان لبعض أهدافه التربوية:

قال تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متٰع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والبطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال).[٣]

فشبه الله عز وجل الوحى الذى أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماءً كثيراً وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادى الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها كما أن السيل إذا خالط الأرض ومن عليها احتملت غثاء

(١) جزء من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.
(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ٨٠/٢
(٣) الآية ١٧ من سورة الرعد.

وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار مافيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيكرب بها شاربه وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لايجامعها ولا يساكنها وهكذا (يضرب الله الحق والبطل) ثم يستقر في قرار الوادى الماء الصافي الذى يسقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القلب وجذوره الإيمان الخالص الصافى الذى ينفع صاحبه وينتفع به غيره.[١]

ومن أهداف ضرب هذا المثل بيان سنة الله عز وجل بضرب الحق والباطل بعضهما ببعض وأن ذلك سبب لرفعة الحق مما يدفع المؤمن إلى التحلى بالصبر عند اشتداد الكروب وتسلط الظلمة والكافرين على المؤمنين الصادقين مما يزيد قلوب المؤمنين يقيناً واطمئناناً في حين أن قلوب المنافقين قد تزلزلت واضطربت وماجت.

ومن أهدافه كذلك تخويف السامع من الباطل وأهله وأن مصيرهم الاضمحلال والأفول وترغيبه بأن يكون من أهل الحق الذين لهم العاقبة (والعـٰقبة للمتقين).[٢] والله ولى التوفيق.

---

(١) انظر الأمثال في القرآن لابن القيم ص١٢

(٢) جزء من الآية ٨٣ من سورة القصص.

الباب الثالث
حديث القرآن عن القلب الميت

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أوصاف القلب الميت.

الفصل الثاني: أسباب موت القلب.

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة القلب الميت.

الفصل الأول
أوصاف القلب الميت

وفيه خمسة عشر مبحثاً:

المبحث الأول: الزيغ.

المبحث الثاني: النفاق.

المبحث الثالث: الريب.

المبحث الرابع: الإنكار.

المبحث الخامس: الاشمئزاز.

المبحث السادس: الرعب.

المبحث السابع: التحسر.

المبحث الثامن: النجاسة.

المبحث التاسع: التشتت.

المبحث العاشر: الطبع والختم والرين والكن والقفل والتغليف.

المبحث الحادى عشر: القسوة.

المبحث الثاني عشر: العمى.

المبحث الثالث عشر: الغفلة.

المبحث الرابع عشر: الكبر.

المبحث الخامس عشر: الغل للمؤمنين

المبحث الأول

الزيــــغ

الـزيغ الميـل زاغ يزيغ زيغـاً وزيغـاناً وزيوغاً وزيغـوغة وأزغتـه أنا إزاغـةً وهو زائغ من قوم زاغـةٍ: مال[١] والمراد بالـزيغ في كتاب اللـه عـز وجل الميل عن الاستقـامة[٢] وقـال بعضهم: هو أخص من مطلق الميـل فإن الـزيغ لايقال إلا لما كان من حق إلى باطـل.[٣] قال تعالى: (فأما الـذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشٰبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله).[٤]

قـال ابن جرير رحمـه اللـه: يعني بذلـك جل ثنـاؤه فـأما الـذين في قلـوبهم ميل عن الحق وانحراف عنـه، يقال منه: زاغ فلان عـن الحق، فهـو يزيغ عنه زيغاً وزيغاناً وزيغوغة وزيوغاً، وأزاعه الله: إذا أماله فهو يزيغه، ومنـه قـوله جل ثنـاؤه (ربنا لاتزغ قلـوبنا).[٥] لاتملهـا عـن الحق (بعـد إذ هديتنا) ونقل هذا المعنى عـن عدد من أهل التفسير ثم قـال رحمه الله عند قوله تعالى: (فيتبعون ماتشٰبه منـه) أى ماتشابهت ألفـاظه وتصـرفت معانيه بوجوه التـأويلات ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التـأويلات في ذلك ماهم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق تلبيساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه.[٦]

كماقال ابن عباس رضى الله عنهما (فيتبعون ماتشٰبه منه) فيحملون

---

(١) اللسان عند مادة زيغ ٨/٤٣٢

(٢) انظر المفردات مادة زيغ ص٢١٧

(٣) انظر الدر المصون ٣/٢٧

(٤) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٥) جزء من الآية ٨ من سورة آل عمران.

(٦) انظر جامع البيان ٣/١٧٦

(٧) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

المحكـم على المتشابه والمتشـابه على المحكم ويلبسـون فلبـس الله عليهم.[١]

ثم ذكـر رحمه الله اختلافـاً بين أهل التأويل فيمـن عنى بهـذه الآية فقـال بعضهم عنى بها وفد نصارى نجران الذين قدموا على رسـول اللـــه صلى اللـه عليـه وسلم فحاجوه بما حاجوه به، وخاصمـوه بأن قـالوا: ألسـت تزعـم أن عيسـى روح الله وكلمتـه، وتأولـوا في ذلـك مـايقولون فيه من الكفـر، وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية في أبي ياسـر بن أخطب وأخيه حيي بن أخطـب والنفر الذين ناظـروا رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم في قدر مدة أجله وأجل أمته وأرادوا علم ذلـك من قبل قـوله: (الـم، والمص، والمـر، والـر) فقـال جل ثنـاؤه فيهـم: (فـأما الذين في قلـوبهم زيغ) يعنى هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحق (فيتبعـون ماتشٰبه منه) يعنى معـانى هـذه الحروف المقطعـة المحتملـة التصريف في الـوجوه المختلفـة التأويلات ابتغاء الفتنة.

وقـال آخرون بل عنى الله عز وجل بذلك كل مبتـدع في دينه بدعة مخالفـة لما ابتعـث به رسولـه محمداً صلى الله عليه وسلم بتـأويل يتـأوله من بعـض آى القرآن المحتملة التـأويلات وإن كان اللـه قـد أحكم بيان ذلك إما في كتابه أو على لسان رسوله.

ثم نقـل رحمـه اللـه عن قتـادة قـوله: (فـأما الـذين في قلـوبهم زيغ فيتبعـون ماتشٰبه منهم ابتغاء الفتنة) قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئيـة فلا أدرى مـن هم ولعمرى لقـد كان في أهل بدر والحديبيـة الـذين شهدوا مع رسول الله بيعة الرضوان مـن المهـاجرين والأنصـار خبر لمن استخبر وعبرة لمن استعبر لمن كـان يعقل أو يبصر إن الخوارج خرجوا وأصحـاب

---

(١) سبق عزو هذا الأثر ص ٨٠.

رسول الله يومئذ كثير بالمدينة والشام والعراق وأزواجه يومئذ أحياء والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حرورياً قط ولا رضوا الذى هم عليه ولا مالؤوهم فيه بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله إياه ونعته الذى نعتهم به وكانوا يبغضونهم بقلوبهم ويعادونهم بألسنتهم وتشتد والله عليه أيديهم إذا لقوهم ولعمرى لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع ولكنه كان ضلالاً فتفرق وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافاً كثيراً فقد ألاصوا[1] هذا الأمر منذ زمان طويل فهل أفلحوا فيه يوماً أو أنجحوا ؟ ياسبحان الله كيف لايعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم لو كان على هدى قد أظهره الله وأفلحه ونصره ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه، فهم كما رأيتهم كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم وأكذب أحدوثتهم وأهرق دماءهم ذاكم والله دين سوء فاجتنبوه والله إن اليهودية لبدعة وإن النصرانية لبدعة وإن الحرورية لبدعة وإن السبئية لبدعة مانزل بهن كتاب ولاسنهن نبى.[2]

والذى يبدو أنه يعنى بها كل من جادل فيما ليس له به علم ثم تتبع المتشابه من آيات الله ليستدل به على باطله بصرف الكلام عن وجهه والأدلة عن مدلولاتها ويدخل في ذلك دخولاً أولياً كل من وقع منه ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كنصارى وفد نجران ومن جادل في مدة أجل النبي صلى الله عليه وسلم وأجل أمته.

ومن أجل ذلك قال تعالى معلماً عباده ذلك الدعاء العظيم:

---

(١) ألاص الأمر بمعنى أداره على الشيء الذي يريده. انظر اللسان مادة (لوص) ٧/٨٨

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٣/١٧٨

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).(١) أي لاتملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ماتشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم (وهب لنا من لدنك) أي: من عندك (رحمة) تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً (إنك أنت الوهاب).(٢)

وقد روت أم سلمة(٣) رضى الله عنها قالت: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : "يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت: فقلت يارسول الله: ما أكثر ماتدعو بهذا الدعاء؟ فقال ياأم سلمة: إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ".(٤)

---

(١) الآية ٨ من سورة آل عمران.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩/٢

(٣) هي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمر المخزومية بنت عم خالد ابن الوليد سيف الله المسلول من المهاجرات الأول كانت قبل النبي صلى الله عليه وسلم عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي الرجل الصالح، دخل بها النبي صلى الله عليه وسلم في سنة أربع من الهجرة وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً، وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين وكانت تعد من فقهاء الصحابيات، توفيت سنة ٥٩هـ. أنظر سير أعلام النبلاء ٢٠١/٢، شذرات الذهب ٦٩/١

(٤) أخرجه الترمذي في السنن ٤٤٨/٤ كتاب القدر (٣٣) باب ماجاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن (٧) برقم ٢١٤٠ عن أنس رضى الله عنه.
وقال: وهذا حديث حسن. وابن ماجه في السنن ١٢٦٠/٢ كتاب الدعاء (٣٤) باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) برقم ٣٨٣٤ وصححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه ٣٢٥/٢ برقم ٣٠٩٢

المبحث الثاني

النفـاق

مـأخوذ من النفق وهو سـرب في الأرض مشتـق إلى مـوضع آخر.

ومنـه النُّفَقَـة والنَّـافِقاء وهـو جحـر الضب واليربوع، وقيـل: النفقـة والنـافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى مـن قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، ونَفِقَ اليربوع ونَفَق وانْتَفَق ونَفَّق: خرج منه.(١)

وهـو في الاصطلاح ستر الكفـر وإظهار الإيمان وهـو اسـم إسلامى لم تعـرفه العـرب بالمعنى المخصـوص به وإن كـان أصلـه في اللغـة معـروفاً.(٢)

وقـد ذكر ابن حجر رحمه اللـه أن النفاق لغة مخالفـة الباطن للظاهر فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر وإلا فهو نفاق العمل ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه.(٣)

وبهذا يتضح أن النفاق نوعان: نفاق اعتقاد ونفاق عمل فنفاق الاعتقاد إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

ونفـاق العمل الوقوع ببعـض الذنوب التى نص على أنهـا من خصال المنـافقين كمـا في قوله صلى اللـه عليـه وسلم: "آية المنـافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلـف وإذا أئتمـن خان"(٤) وكمـا في قوله صلى اللــــه عليه وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاًومـن كانت فيه خصلة منهن

---

(١) اللسـان عند مادة (نفق) ٣٥٨/١٠

(٢)انظرالنهاية لابن الأثير ٩٨/٥ عند مادة (نفق).

(٣) انظر فتح البارى ٨٩/١

(٤) أخرجه البخـارى في صحيحه ٢٧/١ كتـاب الإيمان (٢) باب علامـة المنافق (٢٤) الحديث (٣٣) ومسلم في الصحيــح ٧٨/١ كتـاب الإيمان (١) باب بيــان خصـال المنافق (٢٥) برقم ٥٩/١٠٧

كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أئتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر".[١]

والمراد هنا النوع الأول وهو النفاق الاعتقادى وهو بلا شك متضمن للنوع الثانى.

قال تعالى في ذم من اتصف بذلك: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحيوٰة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام).[٢]

قال ابن كثير: قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق[٣] جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك.[٤]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في نفر من المنافقين.[٥]

وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع[٦] وهو الصحيح.[٧]

وقد بين الله عز وجل بأن موطن النفاق هو القلب فقال تعالى: (ومنهم من عٰهد الله لئن ءاتٰنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصٰلحين

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٧/١-٢٨ كتاب الإيمان(٢) باب علامة المنافق(٢٤) برقم ٣٤

(٢) الآية (٢٠٤) من سورة البقرة.

(٣) هو الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى أبو ثعلبة حليف بنى زهرة لقب بالأخنس لأنه رجع ببنى زهرة من بدر لما جاءهم الخبر بنجاة أبي سفيان بالعير، ذكر ابن حجر أنه أسلم ثم ارتد ثم أسلم، توفى أول خلافة عمر.
انظر الإصابة ٣٩/١ برقم ٦١، الكامل ١٢١/٢

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣١٣/٢ وابن هشام في السيرة ١٦٣/٣

(٥) انظر جامع البيان ٣١٣/٢

(٦) هو الربيع بن أنس بن زياد البكرى الخراساني المروزى بصرى سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرياحى وأكثر عنه والحسن البصرى وكان عالم مرو في زمانه، توفى سنة ١٣٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٦٩/٦، تهذيب التهذيب ٢٣٨/٣

(٧) تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/١ ، وانظر جامع البيان ٣١٣/٢-٣١٤

فلما ءاتٰهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم).[١]

والنفاق من أخطر أوصاف القلب الميت توعد الله عز وجل عليه بأشد العذاب (إن المنٰفقين في الدرك الأسفل من النار).[٢]

ومماهو معلوم أن هذا الوصف تصحبه أمراض كثيرة منها الكذب والخداع، فالمنافق مضطر إلى الكذب في كل وقت لأن ظاهره يخالف باطنه ولابد له من كتمان مافي باطنه وإظهار خلافه دائمًا لئلا يظهر فيفتضح ويعاقب ولا يحصل ذلك إلا بالكذب.[٣] قال تعالى: (يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم...)[٤] وقال تعالى كذلك: (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون)[٥] وقال تعالى كذلك: (إذا جاءك المنٰفقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنٰفقين لكٰذبون).[٦]

ومنها الخوف الشديد من افتضاح أمره قال تعالى: (يحذر المنٰفقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بمافي قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ماتحذرون).[٧]

نعوذ بالله العظيم من النفاق وأهله ونسأله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في السر والعلن.

---

(١) الآيتان ٧٥ و٧٦ وجزء من الآية ٧٧ من سورة التوبة.

(٢) جزء من الآية ١٤٥ من سورة النساء.

(٣) انظر تفسير المنار ١٠/٥٥٩

(٤) جزء من الآية ١١ من سورة الفتح.

(٥) الآية ١٤ من سورة المجادلة.

(٦) الآية ١ من سورة المنافقون.

(٧) الآية ٦٤ من سورة التوبة.

المبحث الثالث

الريـب

الـريب والريبة الشك والظنـة والتهمة[١] يقـال رابني الشىء وأرابني بمعنى شككني.[٢]

قـال تعـالى: (إنما يستـأذنك الـذين لايؤمنـون باللـه واليـوم الأخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون).[٣]

والـريب هنا يراد به الشك في الـدين.[٤] وأضيف الشك إلى القلـب لأنه محل المعرفة والإيمان أيضاً فإذا داخله الشك كان ذلك نفاقاً.[٥]

وحيـث إن الريب ينافي كلمـة التوحيد فقد نزه اللـه عز وجل عباده المؤمنين عنـه بقوله تعالى: (إنما المؤمنـون الذين ءامنـوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجـٰهدوابأموٰلـهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصـٰدقون).[٦]

قـال ابن جرير رحمه الله: يقـول تعالى ذكره للأعـراب الـذين قالوا آمنـا ولما يدخل الإيمان في قلـوبهم: إنما المؤمنون أيهـا القـوم الذين صدقوا الله ورسوله ثم لم يرتابوا يقول: ثم لم يشكوا في وحدانية الله ولا في نبوة نبيه صلى الله عليه وسلم وألزموا أنفسهم طاعة اللـه وطاعة رسوله والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك منهم في وجوب ذلـك عليهم.[٧]

وقـد بين تبارك وتعالى أن هذا الوصف الخطير لازم لأهـل النفـــاق

---

(١) اللسان عند مادة (ريب) ٤٤٢/١

(٢) النهاية عند مادة (ريب) ٢٨٦/٢

(٣) الآية ٤٥ من سورة التوبة.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٥٦/٨ وتفسير الخازن ١٠٣/٣

(٥) تفسير الخازن ١٠٣/٣

(٦) الآية ١٥ من سورة الحجرات.

(٧) جامع البيان ١٤٤/٢٦

والخداع حتى يقلعوا عما هم عليه ويتوبوا أو يهلكوا وذلك أنهم لخبث نيتهم سيظلون في خوف دائم وارتياب مستمر أن يكشف أمرهم ويفتضح حالهم ، قال تعالى: (يحذر المنٰفقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ماتحذرون)(١)

وقال تعالى: (لايزال بنيٰنهم(٢) الذى بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم).(٣)

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: (لايزال بنيٰنهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم) يعنى شكاً (إلا أن تقطع قلوبهم) يعنى الموت.(٤)

---

(١) الآية ٦٤ من سورة التوبة.

(٢) المراد بهذا البنيان مسجد الضرار الذى قال الله فيه: (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً...) (التوبة: ١٠٧).
وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح... فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه فتدعو لنا بالبركة فأنزل الله فيه (لاتقم فيه أبداً...) (التوبة: ١٠٨).
وهذا الأثر أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٤/١١

(٣) الآية ١١٠ من سورة التوبة.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٣/١١

المبحث الرابع

الإنكـار

الإنكار[1] الجحـود والإنكـار ضد العـرفان يقال: أنْكَـرْتُ كذا ونَكَرْتُ وأصله أن يرد على القلب مالا يتصوره وذلك ضرب مـن الجهل، قال تعالى: (فلمـا رأى أيديهـم لاتصل إليــه نكـرهم)[2] وذلـك فيما يذكـر باللسـان وسبـب الإنكار باللسان هو الإنكـار بالقلب ولكن ربما ينكـر اللسـان الشيء وصـورته في القلـب حاصلة ويكـون في ذلك كاذباً وعلى ذلـك قـوله تعالى: (يعـرفون نعمت اللـه ثم ينكـرونها)[3] وقوله تعالى: (إلٰهكـم إلٰه وٰحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون).[4]

وهذه الآية الكريمة تبين أن الإنكار محله القلب، وأن إنكـار الحق من أوصاف القلوب الميتة التي لايؤمن أصحابها بالآخرة.

قال المراغـي [5]:أي فـالذين لايصـدقـون بوعـد الله ولا وعيـده ولا يقـرون بالمعاد إليه بعد الممـات قلوبهم جاحدة لما قصصنـاه عليكم من قدرة اللـه وعظمته وجزيل نعمه عليهـم، وأن العبادة لاتصلـح إلا لـه والألوهية ليســت لشـيء سـواه، فلا يؤثر فيهـا وعـظ ولا ينجـع فيهـا تذكير، وهـم مستكبرون عـن قبول الحق متعظمـون عن الإذعان للصـواب مستمـرون على الجحـد تقليداً لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به كمـا حكى سبحانه عنهم قولهم: (إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثـرهم مقتـدون).[6] وقولهم: (أجعل الألهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجاب)[7].[8]

---

(١) انظر اللسان عند مادة (نكر) ٢٣٣/٥، والمفردات مادة (نكر) ٥٠٥

(٢) جزء من الآية ٧٠ من سورة هود.

(٣) جزء من الآية ٨٣ من سورة النحل.

(٤) الآية ٢٢ من سورة النحل.

(٥) هو أحمد بن مصطفي المراغي مفسر مصرى تخرج بدار العلـوم سنة ١٩٠٩م توفى بالقاهرة، له عدة كتب منها الحسبة في الإسلام والوجيز في أصـول الفقه، وتفسير المراغي وغيرها. انظر الأعلام ٢٥٨/١

(٦) جزء من الآية ٢٣ من سورة الزخرف.

(٧) الآية ٥ من سورة ص

(٨) تفسير المراغي ٦٧/١٤

المبحث الخامس

الاشمئزاز من ذكر الله عز وجل

الشمـز: التقبض. اشمأز اشمئزازاً: انقبـض واجتمـع بعضـه إلى بعض. والشمز نفور النفس من الشيء تكرهه.[١]

قـال تعالى: (وإذا ذكر اللـه وحده اشمأزت قلـوب الـذين لايؤمنون بالأخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون).[٢]

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قوله: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلـوب الذين لايؤمنون بالأخرة): أي نفـرت قلوبهم واستكبرت (وإذا ذكـر الذين من دونه) الآلهة (إذا هم يستبشرون).[٣]

وأخرج عـن مجاهد قوله (اشمـأزت) قال: انقبضـت. قـال وذلك يوم قرأ عليهم النجم عند باب الكعبة.[٤]

وأخرج عـن السدي قوله: (اشمـأزت) قال: نفرت (وإذا ذكـر الذين من دونه) أوثانهم.[٥]

قـال سيد قطب عند هذه الآية: والآية تصـف واقعـة حال على عهـد النبي صلى اللـه عليه وسلم حين كان المشركون يهشـون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم، وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيـد. ولكنها تصف حالة نفسيـة تتكـرر في شتى البيئـات والأزمـان. فمـن النـاس مـن تشمئز قلـوبهم وتنقبـض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهاً، وإلى شـريعة الله وحدها

---

(١) اللسان عند مادة شمز ٣٦٢/٥
(٢) الآية ٤٥ من سورة الزمر.
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٠/٢٤
(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٠/٢٤
(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١١/٢٤

حاكماً، وإلى منهج الله وحده نظاماً، حتى إذا ذكرت المناهج والنظم والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث وفتحوا صدورهم للأخذ والرد، هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجاً منهم في هذه الآية وهم بذاتهم في كل زمان ومكان، هم الممسوخوا الفطرة، المنحرفوا الطبيعة، الضالون المضلون مهما تنوعت البيئات والأزمنة، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام.(١)

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٠٥٥/٢٤

المبحث السادس:

الرعب:

الرعب هو الفزع والخوف رعبه يرعبه رعباً ورعبا فهو مرعوب ورعيب: أفزعه.[١]

والرعب هو الانقطاع من امتلاء الخوف، قيل رعبت الحوض ملأته وسيل راعب يملأ الوادي ورعبت السنام قطعته.[٢]

فالقلوب الميتة قلوب مرعوبة فزعة غير مطمئنة لأن الاطمئنان إنما يأتي من ذكر الله عز وجل[٣] وهي أبعد ماتكون عن ذلك

وهذا الرعب إنما ألقاه الله عز وجل في قلوبهم جزاء تكذيبهم آياته ورسله، قال تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتٰب من ديٰرهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتٰهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصٰر).[٤]

فالمراد بالذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير[٥]، وقوله تعالى: (فأتٰهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) أي أتاهم من داخل أنفسهم لامن داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لايملكون ذواتهم ولايحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإراداتهم وتصميمهم! فضلاً على أن يمتنعوا

---

(١) اللسان عند مادة (رعب) ٤٢٠/١

(٢) انظر المفردات عند مادة (رعب) ص١٩٧

(٣) كما قال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد: ٢٨).

(٤) جزء من الآية ٢ من سورة الحشر.

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١٧٨/٣-١٧٩

عليه ببنيانهم وحصونهم، وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها.[١] وقد ورد ذكر إلقاء الرعب في قلوب الكفار عند لقائهم للذي آمنوا في عدة مواضع من كتاب الله عز وجل غير هذا الموطن[٢] ليظهر من كل ذلك أن مايلقيه الله عز وجل من الرعب في قلوبهم سبب رئيس لنصر المسلمين وتخاذل أعداء الدين عند التقاء الصفوف وتلاحم الجيوش.

---

(١) في ظلال القرآن ٢٨/٣٥٢١-٣٥٢٢

(٢) كقوله تعالى: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً) (آل عمران: ١٥١) وذلك يوم أحد، وقوله تعالى: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (الأنفال: ١٢) وذلك يوم بدر، وقوله تعالى: (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً) (الأحزاب: ٢٦) وذلك في غزوة بني قريظة وإلقاء الرعب في قلوب من يقف في وجه الدعوة الإسلامية خاص بهذه الأمة المباركة أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما روى البخارى في الصحيح ١/١٢٦، كتاب التيمم برقم ٣٣٥ ومسلم في الصحيح ١/٣٧٠ كتاب المساجد برقم ٣/٥٢١

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (الحديث).

المبحث السابع:

التحسر:

حَسِـرَ يَحْسَرُ حَسَراً وحَسْرَةً وحَسَـراناً فهو حَسِير وحَسْران إذا اشتدت ندامته على أمر فاته.(١)

والحسـرة مكـانها القلب قـال تعـالى: (يـٰأيها الذين ءامنـوا لاتكـونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوٰنـهم إذا ضـربوا في الأرض أو كـانوا غـزى لـو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلـوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلـوبهم والله يحي ويميت والله بما تعلون بصير).(٢)

وقـد أخرج ابن جرير عن مجاهد قوله تعالى: (وقـالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى) قول المنافق عبدالله بن أبي بن سلول.(٣) وقـوله: (ليجعـل الله ذلك حسـرة في قلـوبهم) أي خلـق هـذا الاعتقـاد في نفـوسهم ليزدادوا حسـرة على مـوتهم وقتلهم(٤) وقيـل: اللام متعلقة بقـوله (قـالوا) أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلــوبهم والمراد أنه صار ظنهـم أنهـم لو لم يخرجوا مـاقتلوا حسـرة، أو متعلقة بقـوله: لاتكـونوا أي لاتكـونوا مثلهـم في اعتقاد ذلـك ليجعلـه الله حسرة في قلـوبهم فقـط دون قلوبكم، وقيل المعنى لا تلتفتوا إليهم يجعل الله عدم التفـاتكم إليهم حسرة في قلـوبهم،وقيـل المراد حسـرة في قلـوبهم يوم القيامـة لما فيـه مـن الخزي والندامـــة.(٥)

---

(١) اللسان عند مادة حسر ١٨٨/٤ وانظر المفرادت مادة (حسر) ص١١٨

(٢) الآية ١٥٦ من سورة آل عمران.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤٦/٤

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٢٧/٢

(٥) فتح القدير ٣٩٣/١

ولكـن قد لا يشعر أصحاب القلوب الميتة في كثير مـن الأحيان بتلك الحسـرة المحـرقة لقاء تكذيبهـم وزيغهم عن الحق والـذنوب التى رانت على قلوبهم ولكن من المؤكد قطعاً أنهم حين يرون ماسيلحقهم من الخسران يوم القيامة سيعض كل واحد منهم على يديه حسرة وندامة.[١] (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهـم الساعة بغتة قالوا يـٰحسرتنا على مـافرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون).[٢]

أخرج ابن جرير عن السدى قوله: (يـٰحسرتنا على مـافرطنا فيها) أما ياحسرتنا: فندامتنا على مافرطنا فيها فضيعنا من عمل الجنة.[٣]

وحسـرة يوم القيامة حسرة عظيمـة لأنها تكون في وقـت لايمكـن فيه استدراك مافات قال تعالى: (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كمـا تبرأوا منا كذلك يريهـم الله أعمـٰلهم حسرٰت عليهـم وماهم بخارجين من النار).[٤] فكما أراهم الله عز وجل العـذاب[٥] يريهم أعمالهم الخبيثة حسـرات عليهم يعنى ندامات لم عملـوا بها وهلا عملوا بغيرهـا فنـدموا على مافرط منهم من أعمالهم الرديئة إذا رأوا جزاءها وعقابهـا مـن اللـــــه عز وجل[٦] وقـال تعالى: (إن الذين كفـروا ينفقون أموٰلـهم ليصـدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون).[٧]

---

(١) كمـا قال تعالى: (ويوم يعض الظـالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مـع الرسول سبيلاً) (الفرقان: ٢٧).

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنعام.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٧/٧٩

(٤) الآية ١٦٧ من سورة البقرة.

(٥) كمـا في الآية التي قبـل هذه الآية وهـي قوله تعالى: (إذ تبرأ الـذين اتُّبِعُـوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) (البقرة: ١٦٦).

(٦) انظر جامع البيان ٢/٧٣-٧٥

(٧) الآية ٣٦ من سورة الأنفال.

أخرج ابن جرير عن السدي قال: قال الله فيما كان المشركون، ومنهم أبو سفيان يستأجرون الرجال يقاتلون محمداً صلى الله عليه وسلم بهم (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) يقول ندامة يوم القيامة وويلاً (ثم يغلبون).[١]

إن يوم القيامة يوم تشتد فيه الحسرات حتى لكأنه ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها[٢] ولذلك سماه الله عز وجل بيوم الحسرة فقال تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لايؤمنون)[٣]

وتشتد الحسرة ويعظم الخطب عندما يذبح الموت بين الجنة والنار ويقال لأهل كلٍّ منهما خلود فلا موت فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: ياأهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: ياأهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول: ياأهل الجنة خلود فلا موت وياأهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ "وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة -وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا- وهم لا يؤمنون".[٤]

نسأل الله عز وجل أن لايجعلنا من أهل الحسرة وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٤٥/٩

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢٣٠٩/١٦

(٣) الآية ٣٩، من سورة مريم.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح ٢٥٨/٣ كتاب التفسير باب (وأنذرهم يوم الحسرة) برقم ٤٧٣٠

المبحث الثامن:

النجاسة:

وهي القذارة وذلك ضربان: حسية ومعنوية[١]

فالقلوب الميته قلوب نجسة غير طاهرة قال تعالى: (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا)[٢]

والمراد بالنجاسة في هذه الآية النجاسة المعنوية[٣] وهذه النجاسة إنما أتت المشرك من قبل قلبه الذي لم يطهر من أدران الشرك والزيغ والضلال قال تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الأخرة عذاب عظيم)[٤]

قال صاحب المنار عند قوله تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أي أولئك الذين بلغت منهم الفتنة هذا الحدهم الذين لم تتعلق إرادة الله تعالى بتطهير قلوبهم من الكفر والنفاق لأن إرادته تعالى إنما تتعلق بما اقتضته حكمته البالغة وسنته العادلة، ومن سنته في قلوب البشر وأنفسهم أنها إذا جرت على الباطل والشر ونشأت على الكيد والمكر واعتادت اتخاذ دينها شبكة لشهواتها وأهوائها ومردت على الكذب والنفاق، وألفت عصبية الخلاف والشقاق، وصار ذلك من ملكاتها الثابتة وأخلاقها

---

(١) انظر المفردات ص٤٨٣ عند مادة نجس.

(٢) الآية ٢٨ من سورة التوبة.

(٣) كما هو قول جمهور أهل العلم وخالفهم في ذلك بعض الظاهرية فذهبوا إلى نجاسة أبدانهم والمترجح هو قول الجمهور لماورد من أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد، وهو مشرك فلو كان نجساً لم يربطه أخرجه البخاري في الصحيح ١٦٨/٣ كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة برقم ٤٣٧٢ وانظر تفسير ابن كثير ٧٤/٤

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

الموروثة الثابتة، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها، حتى لايبقى لنور الحق منفذ لينفذ منه إليها فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار، والاستعداد للنظر والاعتبار التي جعلها الله أسباب الاتعاظ والاهتداء، بحسب سنة الله تعالى الحكيمة، وهؤلاء الزعماء وأعوانهم من اليهود قد صبوا في قوالب تلك الصفات الرديئة صبا، فلا تقبل طبائعهم سواها قطعاً، فهذا هو سبب عدم تعلق إرادة الله تعالى بأن يطهر قلوبهم مما طبع عليها لأن إرادته تطهير قلوبهم وهم متصفون بما ذكرنا إبطال للقدر، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السنن وكان أمر الله قدراً مقدوراً لاأمراً أنفا[١] ولن تجد لسنته تبديلاً.[٢]

---

(١) الأنف أي مستأنف لم يسبق به قدر (انظر القاموس ص١٠٢٥ مادة أنف).
والقول بأن الأمر أنف هو قول القدرية (انظر شفاء العليل ص١٢١).

(٢) انظر تفسير المنار ٦/٣٩٠-٣٩١

المبحث التاسع

التشتت

الشت الافتراق والتفريق شت شعبهم يشت شتاً وشتاتاً، وانشت وتشتت أي تفرق جمعهم.(١)

إن القلوب الميتة قلوب مختلفة غير مؤتلفة لاتكاد تجد قلبين منها متفقين قال تعالى: (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون).(٢)

روى ابن جرير عن قتادة عند هذه الآية قال: تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفةأعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق.(٣)

وذلك على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة.

إذ المظاهر قد تخدع أحياناً فنرى تضامن الذين كفروا ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض كما نرى تجمع المنافقين أحياناً في معسكر واحد، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجي خادع، وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء وتصادم الاتجاهات، وما صدق المؤمنون مرة وتجمعت قلوبهم على الله حقاً إلا

---

(١) اللسان ٤٨/٢ عند مادة شتت.

(٢) جزء من الآية (١٤) من سورة الحشر.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤٧/٢٨

وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذى لايمثل حقيقة الحال. وماصبر المؤمنون وثبتوا إلا شهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل ينفسخ وينهار وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتيتة المتفرقة.

والقرآن يقر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين ليهون فيها من شأن أعدائهم ويرفع هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم فهو إيحاء قائم على حقيقة، وتعبئة روحية تركن إلى حق ثابت، ومتى اتخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد فلم تقف لهم قوة في الحياة.[١]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن المنافقين تشابهت قلوبهم وأعمالهم وهم مع ذلك (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى)[٢] فليست قلوبهم متوادة متوالية إلا مادام الغرض الذى يؤمونه مشتركاً بينهم، ثم يتخلى بعضهم عن بعض، بخلاف المؤمن فإنه يحب المؤمن، وينصره بظهر الغيب، وإن تناءت بهم الديار وتباعد الزمان.[٣]

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٥٢٩/٢٨

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة الحشر.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ص١٩

المبحث العاشر

الطبع والختم والرين والكن والقفل والتغليف

ومن أوصاف القلب الميت الطبع والختم والرين والكن والقفل كما جاءت بذلك آيات الكتاب العزيز وسأعرف بكل واحد منها على حدة ثم أذكر العلاقة بينها جميعاً.

أولاً: الطبع:

الطاء والباء والعين أصل صحيح وهو مَثَلٌ على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها ومن ذلك طبع الله على قلب الكافر كأنه ختم عليه حتى لايصل إليه هدى ولا نور فلا يوفق لخير.(١)

قال تعالى: (ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون).(٢)

قال أبو حيان:(٣) إن من أوضح الله له سبيل الهدى وذكر له أمثالاً ممن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وهو مع ذلك دائم على غيه لايرعوى يطبع الله على قلبه فينبو سمعه عن سماع الحق.(٤)

وقال تعالى: (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار).(٥)

وقال كذلك: (كذلك نطبع على قلوب المعتدين).(٦)

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس عند مادة (طبع) ٤٣٨/٣

(٢) جزء من الآية (١٠٠) من سورة الأعراف.

(٣) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثيرالدين أبوحيان الأندلسي الغرناطي نحوى ولغوى ومفسر ومحدث ومقرىء ومؤرخ وأديب، له من التصانيف البحر المحيط، اتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب وغيرها، توفى سنة ٧٤٥هـ. انظر طبقات المفسرين للداودي ٢٨٧/٢، والأعلام ١٥٢/٧

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٣٥٠/٤-٣٥١

(٥) جزء من الآية (٣٥) من سورة غافر.

(٦) جزء من الآية (٧٤) من سورة يونس.

وقال كذلك: (كذلك يطبع الله على قلوب الكٰفرين).[١]

وقال كذلك: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون).[٢]

إلى غير ذلك من الآيات.

قال الألوسي:[٣] وكثيراً مايعاقب الله تعالى على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه كما قال سبحانه: (فزادتهم رجساً إلى رجسهم)[٤] كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه فثواب الإيمان إيمان وثواب الكفر كفر.[٥]

ثانياً: الختم:

ختمه يختمه ختماً وختاماً طبعه فهو مختوم ومختم شدد للمبالغة والخاتِم الفاعل والختم على القلب: أن لايفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طبع.[٦]

قال تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصٰرهم غشٰوة

---

(١) جزء من الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٨٧ من سورة التوبة.

(٣) هو محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي شهاب الدين أبوالثناء مفسر ومحدث وأديب من أهل بغداد، من كتبه روح المعاني في التفسير وكشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص للحريري وغيرها، توفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر الأعلام ١٧٦/٧، معجم المؤلفين ١٧٤/١٢

(٤) جزء من الآية ١٢٥ من سورة التوبة.

(٥) روح المعانى ١٤/٩

(٦) اللسان عند مادة ختم ١٦٣/١٢

ولهم عذاب عظيم).[١]

وقال تعالى: (أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك).[٢]

قال ابن جرير: يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذبا، لطبعت على قلبك، وأذهبت الذي آتيتك من وحي، لأني أمحو الباطل فأذهبه وأحق الحق، وإنما هذا إخبار من الله تعالى للكافرين الزاعمين أن محمداً افترى هذا القرآن من قبل نفسه فأخبرهم أنه إن فعل لفعل به ماأخبر به في هذه الآية.[٣]

وهذا ماذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره ثم قال كقوله جل جلاله: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين)[٤] أي لانتقمنا منه أشد الانتقام وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.[٥]

وأما الزمخشري[٦] فقد قال عند هذه الآية: فإن يشأ الله أن يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب فإنه لايجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد

---

(١) الآية ٧ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة الشورى.

(٣) جامع البيان ٢٨/٢٥

(٤) الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقة.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٩١/٧

(٦) الزمخشري: هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر أبوالقاسم الزمخشري صاحب الكشاف في التفسير والمفصل في النحو سمع الحديث وطاف البلاد وجاور بمكة مدة وكان يظهر الاعتزال ويصرح بذلك في تفسيره ويناظر عليه، توفي سنة ٥٣٨هـ. انظر البداية والنهاية ٢٣٥/١٢، وطبقات المفسرين للداودي ٣١٤/٢

الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم، ومثال هذا أن يُخَوَّن بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي، وهو لايريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله[١] أن يمحو الباطل ويثبت الحق (بكلماته) بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[٢] يعني لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه، ويجوز أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لامرد له من نصرتك عليهم إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم فيجرى الأمر على حسب ذلك.[٣]

ومما سبق يتبين أن الختم على القلب وصف ذميم لايقع إلا للقلوب الزائغة الميتة ولذلك هدد الله عز وجل به المشركين إن لم ينتهوا عن شركهم (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصٰركم وختم على قلوبكم من إلٰه غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الأيٰت ثم هم يصدفون).[٤]

والمراد سلبهم الأسماع والأبصار أو منعهم الانتفاع بها الانتفاع الشرعي والختم على قلوبهم كما قال تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين

---

(١) الأصح أن يقول (سنة الله) كما هو اللفظ الوارد.

(٢) جزء من الآية (١٨) من سورة الأنبياء.

(٣) الكشاف ٤٦٨/٣

(٤) الآية ٤٦ من سورة الأنعام.

المرء وقلبه)[١] هـل أحد غير الله يقـدر على رد ذلك إليكـم إذا سلبه الله منكم؟ لايقدر على ذلك أحد سواه ولهذا قال: (انظـر كيف نصرف الأيـٰت) أي نبينهـا ونوضحها ونفسرهـا دالة على أنه لا إله إلا اللـه وأن مـايعبدون من دونه باطل وضلال (ثم هم يصدفون) أى يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه.[٢]

وقـال كذلك: (أفرأيت من اتخذ إلٰهه هوىٰه وأضله اللـه على علم وختم على سمعـه وقلبـه وجعل على بصـره غشـٰوة فمن يهديه مـن بعـد الله أفلا تذكرون).[٣]

ثالثاً: الريـن:

الراء والياء والنون: أصل يدل على غطاء وستر فالرين هو الغطاء على الشيء وقد رين عليه كأنه غشي عليه.[٤]

وقال صاحب اللسان: الرين الطبع والدنس وران الذنب على قلبه يرين ريناً وريوناً: غلب عليه وغطاه وفي التنزيل العزيز: (كلابل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون)[٥] أي غلب وطبع وختم.[٦]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: "إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب ونزع واستغفر

---

(١) جزء من الاية ٢٤ من سورة الأنفال.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٥٢/٣
(٣) الآية ٢٣ من سورة الجاثيه.
(٤) معجم مقاييس اللغة ٤٧٠/٢ مادة (رين).
(٥) الآية ١٤ من سورة المطففين.
(٦) اللسان عن مادة (رين) ١٩٢/١٣

صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون).(١)

وقال الحسن رحمه الله عند هذا الآية: الذنب على الذنب حتى يموت قلبه.(٢)

رابعاً: الكن:

كَنَّ الشيءَ يَكُنُّه كَنّاً وكُنوناً وأَكَنّه وكَنَّنَه: ستره والأَكِنَّة الأغطية والواحد كِنَان.(٣)

قال تعالى: (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقراً).(٤)

قال صاحب المنار: أي وجعلنا على آلة الفهم والإدراك من أنفسهم -وهي قلب الإنسان ولبه- أغطية حائلة دون فقهه، ونفوذ الأفهام إلى أعماق علمه وفي آذانهم وقراً أي ثقلاً وصمماً حائلاً دون سماعه بقصد التدبر واستبانة الحق منه.

ومعنى هذا الجعل مامضت به سنة الله تعالى في طباع البشر من كون التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه يكون مانعاً له باختياره من النظر

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن ١٤١٨/٢ كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الذنوب ٢٩ برقم ٤٢٤٤ وأحمد في المسند ٢٩٧/٢ وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ٤١٧/٢ برقم ٣٤٢٢

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٩٨/٣٠

(٣) اللسان عند مادة كنن ٣٦٠/١٣ مادة كن.
وانظر المفردات ص٤٤٢ مادة كن.

(٤) جزء من الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

والاستدلال والبحث عن الحقائق فهو لايستمع إلى متكلم ولاداع لأجل التمييز بين الحق والباطل وإذا وصل إلى سمعه قول مخالف لما هو دين له أو عادة لايتدبره ولا يراه جديراً بأن يكون موضوع المقابلة والتنظير مع ماعنده من عقيدةأو رأي أو عادة، وجعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان في الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية فإن القلب الذي لايفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء والآذان التي لاتسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم لأن سمعها وعدمه سواء.(١)

وقال تعالى كذلك: (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً).(٢)

فالقلب إذا غطي وستر عن تفهم الحق وتدبره لإعراضه عن ربه أو لكثرة ذنوبه كما مضى فإنه سيحرم أعظم نعمة يعطاها الإنسان وهي نعمة الهداية فما أعظمه من حرمان وماأعظمها من خسارة ومن العجب أن بعض المختوم على قلوبهم يتججون بهذه الحجة تعجيزاً لمن يدعوهم إلى الهدى والخير كما ذكر لنا ربنا تبارك وتعالى ذلك في قوله: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي ءاذاننا وقر).(٣)

فما أسخف هذه العقول وما أجهل هذه القلوب وما أجرأ هذه الألسن التي تصف نفسها بأشنع الأوصاف وأخسها فمتى كان انغلاق القلب

---

(١) تفسير المنار ٣٤٧/٧-٣٤٨

(٢) جزء من الآية ٥٧ من سورة الكهف.

(٣) جزء من الآية ٥ من سورة فصلت.

وثقل السمع صفة كمال ومدح حتى ينسبها الأنسان الـذي وهبه الله العقل وكـرمه به إلى نفسـه ولكنه إنطمـاس الفطرة وسيطرة العنـاد والهـوى نسأل الله العافية من ذلك.

خامساً: القفل:

القُفْل والقُفُل: مايغلق به الباب مما ليس بكثيف ونحوه والجمع أقفال وأَقْفُل.[١]

وقـد جعل ذلك مثلاً لكل مـانع للإنسان من تعاطـي فعل فيقال فلان مقفـل عـن كذا، فيقال للبخيـل مقفل اليدين كما يقـال مغلـول اليدين.[٢]

قـال تعالى: (أفلا يتـدبرون القرءان أم على قلـوب أقفـالها).[٣] فهذه الآية الكريمة ترد عدم تدبر الإيمان إلي تلك الأُقفال التي تكون على القلوب فترد عنهـا وصول الخير والهـدى والفهم والفقه والتدبر لما يتلى عليهـا مـن آيات الله والحكمة.

و(أَمْ) في الآية متصلـة على قول البعض فيكون المعنى: أفلا يتـدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها.[٤]

ومنقطعـة على قول آخرين وتكـون بمعنى (بل) والهمـزة للتقدير وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التـوبيخ بكون قلوبهم مقفلـة لاتقبل التدبر والتفكـر وتنكير القلوب لتهويل حالهـا وتفظيـع شأنها

---

(١) اللسان عن مادة (قفل) ١١/٥٦٢

(٢) المفرات للراغب عن مادة قفل ص٤٠٩

(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد

(٤) روح المعاني ٢٦/٧٤

وأمرها في القساوة والجهالة كأنه قيل: على قلوب منكـرة لايعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة، وقيل: لأن المراد قلوب بعـض منهم وهم المنافقون فتنكيرهـا للتبعيض أو للتنويع وإضافة الأقفال إليها للـدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة.(١)

فقلـوب أهـل الكفر والزيغ مقفلـة لايدخلهـا الهـدى والنـور إلا أن يفتحها رب العباد وهو الفتاح العليم وهذا مافهمه الصحـابة الكرام رضوان اللـه عليهم أجمعين فهذا المقداد بن الأسـود(٢) يقول: والله لقد بعـث الله النبي صلى اللـه عليه وسلم على أشد حال بعث عليها فيـه نبي من الأنبياء في فترة وجاهليه مايرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النـار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبـه في النار وإنهـا للتى قال اللـــــه عز وجل الذى يقولون (ربنا هب لنا من أزوٰجـنا وذريـٰتنا قرة أعين" (٣)(٤).

ولهذا ففتح أقفال القلوب نعمة عظيمة من نعم اللـه عز وجل وقفلها من أعظم الخذلان نسأل الله العافية.

---

(١) انظر روح المعاني ٧٤/٢٦، والبحر المحيط ٨٣/٨

(٢) هـو المقداد بن الأسود الكندي ابن عمـرو بن ثعلبة بن مـالك بن ربيعـة النهراني وقيـل الحضرمي تبناه الأسود فصار يقال له المقداد بن الأسـود وغلبت عليه فلما نزلـت (ادعـوهم لآبائهم) (الأحزاب: ٥) قيـل لـه المقـداد بن عمـرو واشتهـرت شهرته بابن الأسود هاجر الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد بعـدها وكان فارساً يوم بدر توفي سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان قيل وهو ابن سبعين سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء ٣٨٥/١، الإصابة ٤٣٣/٣ برقم ٨١٨٥

(٣) جزء من الآية ٧٤ من سورة الفرقان

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٦

سادساً: التغليف:

الغلاف: الصِّوان وما اشتمل على الشيء والجمع غلف وقلب أغلف بين الغلفة كأنه غشى بغلاف فهو لايعي شيئاً[١]

وقد ورد في وصفه صلى الله عليه وسلم أنه يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا: لاإله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عميا، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.[٢]

وبهذا يعلم أن التغليف على القلب خاص بالكافر لقاء كفره برسل الله وكتبه وأما قوله تعالى: (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً مايؤمنون).[٣]

فإن الله عز وجل يذكر فيها ماكان يحتج بنو اسرائيل ويعتذرون به عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والاهتداء بكتابه بعد تقرير الدعوة وإقامة الحجة فهم يقولون إننا لانعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى: (وقالو قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي ءاذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)[٤] وقد رد الله عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال تعالى: (بل لعنهم الله بكفرهم)[٥] أي إن قلوبهم ليست غلفاً لاتفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه فكان ذلك سبباً

(١) اللسان عند مادة (غلف) ٢٧١/٩

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٣/٣-٢٩٤ كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الفتح (٤٨) باب (إنا أرسلنك شهداً ومبشراً ونذيراً) (الأحزاب: ٤٥) (٣) رقم الحديث (٤٨٣٨)

(٣) الآية ٨٨ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ٥ من سورة فصلت.

(٥) جزء من الآية ٨٨ من سورة البقرة.

في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة خاتم النبيين.[١]

ولعـن الله عز وجل لهم إنما جرى على سنـة الله تعـالى في الأسباب والمسببـات فهـم قد ظلموا أنفسهـم بالكفـر الذى يستتبـع الكفـر والعصيان الـذي يجر إلى التمادى في العصيـان كما هى السنـة في أخلاق الإنسـان.[٢]

ثم قال تعالى: (فقليلاً مايؤمنون).[٣]

ومما سبق ذكره تبدو العلاقة القوية بين المعاني المذكـورة فهي جميعاً تشترك في معنى الستر والتغطيـة وإن كان بعضها يدل على تمكـن ذلـك أكثر من غيره وهى كذلك عقوبة مـن الله عز وجل لكل مـن كفر وعاند وأصر على الباطل والمتصف بها يفقد قلبه المقدرة على الفقه والإدراك والانتفـاع بما يسمع أو يرى.

وقـد ذكر عن بعض السلف أنه قـال: الرين أيسر مـن الطبـع والطبع أيسر من الإقفال والإقفال أشد من ذلك كله.[٤][٥]

---

(١) انظر تفسير المنار ٣٧٨/١

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) جزء من الآية ٨٨ من سورة البقرة.

(٤) كمـا ذكر ذلك ابن الأثير عن مجاهـد. انظر النهاية في غـريب الحديث والأثر عند مادة (طبع) ١١٢/٣

(٥) ولابن القيم رحمـه اللـه كلام نفيـس في ذلـك فليرجع إليـه في شفـاء العليل من ص(٨٥) إلى (٩٦).

المبحث الحادي عشر

القســـوة

القسـوة الصلابة في كل شيء والمصدر القساء وهـو مصدر للفعل قسا يقســـو.[١]

والمراد هنا غلظ القلب.[٢]

وقسوة القلب مما اتصف به أهل الكتاب، ولهذا حذر الله عز وجل المؤمنين مـن ذلـك وأمرهم بما يرقـق قلـوبهم ويلينها فقـال تعـالى: (ألم يأن للـذين ءامنـوا أن تخشع قلـوبهم لذكر الله وما نزل مـن الحق ولا يكـونوا كالذين أوتوا الكتٰب من قبـل فطـال عليهـم الأمـد فقسـت قلـوبهم وكثير منهم فـٰسقون).[٣]

قـال ابن كثير رحمـه الله عنـد هـذه الآية: نهـى اللـه المؤمنين أن يتشبهـوا بالـذين حملوا الكتـاب قبلهـم من اليهود والنصـارى لما تطـاول عليهـم الأمد بدلوا كتاب اللـه الذي بأيديهم واشتروا به ثمنـاً قليلاً ونبذوه وراء ظهـورهم وأقبلـوا على الآراء المختلفـة والأقـوال المؤتفكـة وقلـدوا الـرجال في دين الله واتخذوا أحبـارهم ورهبانهم أرباباً مـن دون الله فعند ذلـك قسـت قلوبهم، فلا يقبلـون موعظة ولا تلين قلـوبهم بوعـد ولا وعيد (وكثير منهم فـٰسقون) أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمـالهم باطلة كما قال تعالى: (فبما نقضهم ميثٰقهم لعنـهم وجعلنا قلوبهـم قـٰسيه يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به)[٤] أي فسدت قلوبهم فقست وصار

---

(١) اللسان عند مادة (قسا) ١٥/١٨٠

(٢) المفردات عند مادة (قسا) ٤٠٤

(٣) الآية ١٦ من سورة الحديد.

(٤) جزء من الآية ١٣ من سورة المائدة.

من سجيتهم تحريف الكلم عـن مـواضعه، وتركوا الأعمـال التى أمـروا بها، وارتكبوا مانهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.(١)

قـال ابن مسعود رضي الله عنه: "ماكان بين إسلامنـا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين.(٢)

قـال سيد قطب رحمه الله: إنه عتاب مؤثر من المولى الكـريم الرحيم واستبطـاء للاستجابة الكاملـة من تلك القلوب التى أفـاض عليهـا من فضله فبعـث إليهـا الرسول صلى اللـه عليـه وسلم يدعوها إلى الإيمان بربهـا ونزل عليهـا الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور وأراهـا من آياته في الكون والخلق مايبصر ويحذر.

عتـاب فيـه الـود والحض وفيـه الاستجـاشة إلى الشعـور بجلال اللـه والخشـوع لـذكره وتلقى مانزل بما يليـق به مـن الطاعـة والاستسلام، وإلى جانب ذلك فيه تحذير من التباطؤ والتقاعس عن الاستجـابة وبيان لما يغشى القلـوب مـن الصدأ حين يمتـد بهـا الزمن بدون جلاء ومـاتنتهى إليـه مـن القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله.(٣)

إن قسـوة القلب مرض خطير يصيب القلب بالعمى فلا يتعـظ بموعظة ولا يعتبر بما فيه العبرة وبهذا يرد صاحب القلب القاسى المهالك من غير أن يشعـر بما هو مقدم عليه قال تعـالى: (فلولا إذ جاءهـم بأسنا تضرعوا ولكن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٦/٨

(٢) أخرجه مسلم في صحيحـه كتـاب التفسير (٥٤) باب في قـوله تعـالى: "ألم يأن للـذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" (١) رقم الحديث (٣٠٢٧/٢٤).

(٣) في ظلال القرآن ٣٤٨٩/٢٧

قست قلوبهم وزين لهم الشيطٰن ماكانوا يعملون فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبوٰب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنٰهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العٰلمين).(١)

فقسوة القلب وتزيين الشيطان قد حالا بين هؤلاء وبين الرجوع إلى الله عز وجل عند حلول البلاء فأعرضوا عما ذكروا به وتناسوه ففتح الله عليهم أبواب الرزق من كل مايختارون استدراجاً لهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الأموال والأولاد والأرزاق أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر على غفلة فإذا هم آيسون من كل خير.(٢)

وقد بين الله عز وجل أن قسوة القلب قد تتفاقم حتى تكون أشد من صلابة الحجارة تنفيراً منها كما في قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة).(٣)

وتوعد القاسية قلوبهم بقوله: (أفمن شرح الله صدره للإسلٰم فهو على نور من ربه فويل للقٰسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلٰل مبين).(٤)

ولماكانت قسوة القلب عقوبة عظيمة فقد دعا موسى عليه الصلاة السلام على فرعون وملائه أن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم فقال تعالى: (وقال موسىٰ ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة وأموٰلاً في الحيوٰة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموٰلهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم).(٥)

---

(١) الآيات ٤٣-٤٥ من سورة الأنعام.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٥١/٣
(٣) جزء من الآية ٧٤ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٢٢ من سورة الزمر.
(٥) الآية ٨٨ من سورة يونس.

والشد في اللغة الإيثاق وشددت الشيء أشده شـداً إذا أوثقته[١] فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع والمعنى قسها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشـرح للإيمان وهـذا الشـد والتقسيـة مـن كمال عـدل الـرب سبحـانه في أعـدائه، جعله عقوبة لهم على كفـرهم وإعراضهم كعقـوبته لهـم بالمصائب ولهـذا كـان محموداً عليه فهـو حسن منه وأقبح شيء منهـم فـإنه عدل منه وحكمـة وهـو ظلم منهم وسفـه فـالقضاء والقدر فعل عـادل حكيم غنى عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما والمقضي المقـدر من الشر يكون من العبد ظلماً وجوراً وسفهاً فهو فعل جاهل ظالم سفيه.[٢]

---

(١) انظر اللسان عند مادة شدد ٣/٢٣٣

(٢) انظر شفاء العليل ص٩٧

المبحث الثاني عشر

العمـــى

العمى لغة افتقاد البصر والبصيرة.

قال الراغب: العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة ويقـال في الأول أعمى وفي الثاني أعمى وعم وعلى الأول قوله: (أن جاءه الأعمى)[١] وعلى الثاني ماورد من ذم العمى في القرآن نحو قـوله (صم بكم عمى)[٢] وقوله: (فعموا وصموا)[٣] بل لم يعـد افتقاد البصـر في جنب افتقـاد البصيرة عمى حتى قـال تعـالى: (فـإنها لاتعمـى الأبصٰـر ولكـن تعمـى القلـوب التى في الصدور)[٤].[٥]

قـال ابن كثير رحمـه الله عنـد قوله تعالى (أفلـم يسيروا في الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلون بهـا أو أذان يسمعون بها فـإنها لاتعمى الأبصٰـر ولكن تعمىٰ القلوب التى في الصدور)[٦]:

ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة وإن كـانت القوة البـاصرة سليمة فإنها لاتنفـذ إلى العبر ولا تدرى ماالخبر، ومـا أحسن ماقاله بعـض الشعـراء في هـذا المعنى وهـو أبو محمـد عبداللـه بن محمـد بن سـاره الأندلسي الشنتريني[٧] وقد كان وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

---

(١) الآية ٢ من سورة عبس.

(٢) جزء من الآية ١٨ من سورة البقرة.

(٣) جزء من الآية ٧١ من سورة المائدة.

(٤) جزء من الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٥) المفردات ص٣٤٨ مادة (عمى).

(٦) الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٧) هـو أبو محمد عبدالله بن محمد بن صارة ويقال سارة اللغـوي الشنتريني الإشبيلي شاعر الأندلس، توفى سنة ٥١٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٥٩/١٩، خريدة القصر وجريدة العصر ٣١٥/٢، وانظر هذه الأبيات في الخريدة ٣٢١/٢

يامـن يصيخ إلى داعي الشقاء وقــد نادى به النـاعيان الشيـب والكبـر
إن كنـت لاتسمع الذكرى ففيم تـرى في رأسك الـواعيان:السمع والبصر
ليـس الأصم ولاالأعمى سوى رجل لم يهـده الهاديان: العين والأثــــر
لاالـدهر يبقى ولاالدنيا، ولاالفلك الـ أعلى ولا النيران: الشمـس والقمر
ليرحلـن عن الدنيا، وإن كرهــــا فراقها، الثـاويان: البدو والحضر[(١)]

إن القلـب الأعمى لا ينتفـع بذكرى ولا موعظة ولـذلك عنـدما ذكر الله عز وجل في كتابه الموت وسكراته والحشر وأهواله بين أن ذلك ذكرى لأصحـاب القلوب الحية الواعيـة فقال تعالى: (إن في ذلـك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).[(٢)]

قـال ابن القيم رحمه الله: "لمن كان له قلب" فهـذا هو المحل القابل، والمراد به القلـب الحي الـذي يعقل عن الله، كما قـال تعـالى: (إن هو إلا ذكر وقرءان مبين لينذر من كان حياً)[(٣)] أي حي القلب وقوله: (أو ألقى السمـع) أي وجه سمعه وأصغـى حاسة سمعه إلى مايقـال لـه، وهذا شرط التـأثر بالكلام، وقوله (وهـو شهيد) أى شاهد القلـب حاضر غير غائب.[(٤)]

ومـن كان أعمى القلب فهو غائب وإن كان حاضـراً، غير فقيه وإن كان يملك آله ذلك قال تعالى: (ولقــد ذرأنا لجهنم كثيراً مــن الجن والإنس لهـم قلوب لايفقهون بها ولهـم أعين لايبصرون بها ولهـم ءاذان لايسمعون بها أولئك كالأنعـٰم بل هم أضل أولئك هم الغـٰفلون).[(٥)]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/٤٣٦
(٢) الآية ٣٧ من سورة ق.
(٣) جزء من الآية ٦٩ وجزء من الآية ٧٠ من سورة يس.
(٤) الفوائد ص٦
(٥) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله كما قال تعالى: (وجعلنا لهم سمعاً وأبصٰراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصٰرهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بـٔايٰت الله)[١] وقال تعالى: (صم بكم عمى فهم لايرجعون)[٢] هذا في حق المنافقين وقال في حق الكافرين (صم بكم عمى فهم لايعقلون)[٣] ولم يكونوا صما بكما عميا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون).[٤]

ثم قال: (أولٰئك كالأنعم) أى هؤلاء الذين لايسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لاتنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلا دعآءً ونداءً)[٥] أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لاتسمع صوته ولا تفقه مايقول ولهذا قال في هؤلاء (بل هم أضل) أي من الدواب، لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا بس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء ولأن الدواب تفقه ماخلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به ولهذا فالدواب أتم منه.[٦]

---

(١) جزء من الآية ٢٦ من سورة الأحقاف.
(٢) جزء من الآية ١٨ من سورة البقرة.
(٣) جزء من الآية ١٧١ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٢٣ من سورة الأنفال.
(٥) جزء من الآية ١٧١ من سورة البقرة.
(٦) تفسير ابن كثير ٥١٥/٣

المبحث الثالث عشر

الغفلـــة

غفل عنه يغفل غفولاً وغفلة وأغفله: تركه وسها عنه.[١]

قـال صـاحب المفردات: الغفلـة سهو يعترى الإنسـان مـن قلة التحفظ والتيقظ[٢] قـال تعـالى: (ولا تطع مـن أغفلنـا قلبه عن ذكـرنا واتبـع هـوٰه وكان أمره فرطا).[٣]

قال ابن القيم رحمه الله: الغفل الشيء الفارغ والأرض الغفل التى لا علامـة بها والكتاب الغفل الـذي لاشكل عليه، وأغفلنـاه: تركناه غافلاً عن الـذكر فـارغاً منه، فهو إبقاء لـه على العدم الأصلي لأنه سبحـانه لم يشـأ له الـذكر، فبقـى غافلاً فالغفلـة وصفه والإغفال فعل اللـه فيـه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته فإذا لم يشأله التذكر لم يتذكر وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر.

فإن قيل فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب لأضدادها، أم إلى عدم مشيئته لوقوعها؟

قيل القرآن قد نطق بهذا وبهذا قال تعالى: (أولٰئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهـم)[٤] وقـال: (ومـن يرد اللـه فتنته فلن تملـك لـه من الله شيئاً)[٥] وقال: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلٰم ومن يرد أن

---

(١) اللسان عند مادة (غفل) ٤٩٧/١١

(٢) المفردات عند مادة (غفل) ص٣٦٢

(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٥) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء).[١][٢]

قال الشيخ الأمين رحمه الله عند قوله تعالى: (ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هوىٰه وكان أمره فرطا).[٣]

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا، وقد كرر في القرآن نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن اتباع مثل هذا الغافل عن ذكر الله المتبع لهواه، كقوله تعالى: (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم ءاثما أو كفوراً).[٤] وقوله: (ولاتطع الكٰفرين والمنٰفقين ودع أذىٰهم)[٥] الآية وقوله تعالى: (ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم)[٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أمره في مواضع أخر بالإعراض عن المتولين عن ذكر الله الذين لايريدون غير الحياة الدنيا وبين له أن ذلك هو مبلغهم من العلم وذلك في قوله تعالى: (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحيوٰة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم).[٧]

وقوله في هذه الآية الكريمة (من أغفلنا قلبه) يدل على أن مايعرض للعبد من غفلة ومعصية إنما هو بمشيئة الله تعالى إذ لايقع شيء البتة كائناً

---

(١) جزء من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.
(٢) التفسير القيم لابن القيم ص٣٥٠
(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة الكهف.
(٤) الآية ٢٤ من سورة الإنسان.
(٥) جزء من الآية ٤٨ من سورة الأحزاب.
(٦) الآيات ٩-١٣ من سورة القلم.
(٧) الآية ٢٩ وجزء من الآية ٣٠ من سورة النجم.

ماكان إلا بمشيئته الكونيـة القـدرية جل وعلا (ومـا تشـاءون إلا أن يشـاء الله)(١) (ولو شاء الله ماأشركوا)(٢) (ولو شئنا لأتينا كل نفـس هدٰيها)(٣) (ولـو شاء اللـه لجمعهم على الهـدى)(٤) (إنا جعلنـا على قلـوبهم أكنـة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقـراً)(٥) إلى غير ذلـك من الآيات الدالـة على أن كل شيء من خير وشر لايقع إلا بمشيئـة خالـق السمـوات والأرض فمـايزعمه المعتزلة ويحاول الزمخشرى في تفسيره -دائمًا- تأويل آيات القـرآن على نحو مايطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته بأفعاله دون مشيئة الله(٦) لايخفى

---

(١) جزء من الآية ٢٩ من سورة التكوير.
(٢) جزء من الآية ١٠٧ من سورة الأنعام.
(٣) جزء من الآية ١٣ من سورة السجدة.
(٤) جزء من الآية ٣٥ من سورة الأنعام.
(٥) جزء من الآية ٥٧ من سورة الكهف.
(٦) فقـد قال عند هذه الآية (من أغفلنـا قلبه) (الكهف: ٢٨) مـن جعلنـا قلبه غافلاً عـن الذكر بالخذلان أو وجدناه غـافلاً عنه كقولك أجبنتـه وأفحمتـه وأبخلته إذا وجدته كـذلك، أو من أغفل إبلـه إذا تركها بغير سمه: أي لم نسمـه بالـذكر ولم نجعلهـم من الذين كتبنا في قلـوبهم الإيمان، وقد أبطل اللـه توهـم المجبره بقوله (واتبـع هـوىٰه) وقرى أغفلَنا قلبُـه بإسناد الفعل إلى القلـب على معنى حسبنا قلبه غافلين: من أغفلته إذا وجدته غافلاً. أ.هـ الكشاف ٤٨٢/٢
قـال صـاحب الإنصـاف: وهو يشمـر للهـرب من الحق وهو أن المراد خلقنـا لـه وجدير به أن يستمر في اتباع هواه فإن حمل أغفل على بابه صـرفه إلى الخذلان وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل للمصادفة -إلى أن قال- وقوله (وقد أبطـل اللـه توهم المجبرة بقـوله -واتبع هواه-): قد تقـدم في غير مـاموضع أن أهـل السنـة يضيفون فعل العبـد إلى الله تعالى من حيث كـونه مخلـوقاً له وإلى العبـد مـن حيـث كونه مقروناً بقـدرته واختيـاره ولاتنافي بين الإضـافتين فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه فلا محيص له عنها بوجه.
الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصرالـدين أحمد بن محمد بن المنير الأسكندري المالكي المطبوع مع الكشاف ٤٨٢/٢

بطلانه ! كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفاً وأمثالها في القرآن كثيرة.[١]

فالمقصود أن القلب الميت قلب ساهٍ لاهٍ عن ذكر الله عز وجل وعن كل خير وهو في ظلمة شديدة من الجهل والعمى فلا يصل إليه حق ولا ينتفع بما يرى ويسمع قال تعالى: (بل قلوبهم في غمرة من هذا).[٢]

قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ماالأمر كما يحسب هؤلاء المشركون من أن إمدادناهم بما نمدهم به من مال وبنين نجير نسوقه بذلك إليهم، والرضا منا عنهم ولكن قلوبهم في غمرة عمى عن هذا القرآن وعنى بالغمرة[٣] ماغمر قلوبهم، فغطاها عن فهم ماأودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج، وعنى بقوله (من هذا) من القرآن.

ثم ساق بسنده إلى مجاهد قوله (في غمرة من هذا) قال: في عمى من هذا القرآن.[٤]

وبما أن القلب الميت لاهٍ ساهٍ غافل عن الحق فهو مشغول بالدنيا مستغرق في شهواته وملذاته الأرضية والقرآن الكريم يذكر لنا هذه الحقيقة في قوله تعالى: (اقترب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون مايأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم

---

(١) أضواء البيان ٤/٩٨-٩٩

(٢) جزء من الآية ٦٣ من سورة المؤمنون.

(٣) جاء في اللسان: غمرة الماء يغمره غمراً أو اغتمره: علاه وغطاه وقال قوله تعالى: (بل قلوبهم في غمرة من هذا) (المؤمنون: ٦٣) يقول: بل قلوب هؤلاء في عماية من هذا، وقال القتيبي: أى في غطاء وغفلة. والغمرة: حيرة الكفار. انظر اللسان عند مادة (غمر) ٥/٢٩-٣٠
وقال الراغب في المفردات: والغمرة معظم الماء الساترة لمقرها وجعل مثلاً للجهالة التى تغمر صاحبها. المفردات عند مادة (غمر) ص٣٦٥

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيرة ١٨/٣٥

وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون).[١]

قال الراغب: اللهو مايشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، وقوله: (لاهية قلوبهم) أي ساهية مشتغلة بمالا يعنيها.[٢]

والقلب الغافل اللاهى قلب معرض عن الحق قال تعالى: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون).[٣]

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية: هذاإخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم (نظر بعضهم إلى بعض) أي تلفتوا (هل يريكم من أحد ثم انصرفوا) أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لايثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كما قال تعالى: (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة)[٤] وقال تعالى: (فمالالذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين)[٥] أى مالهؤلاء القوم يتفللون عنك يميناً وشمالاً وهروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل، وقوله: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) كقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)[٦]،(بأنهم قوم لايفقهون) أي لايفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شده[٧] عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ماصاروا إليه.[٨]

---

(١) الآيات ١-٣ من سورة الأنبياء.

(٢) المفردات مادة (لهى) ص٤٥٥

(٣) جزء من الآية ١٢٧ من سورة التوبة.

(٤) الآيات ٤٩ -٥١ من سورة المدثر.

(٥) الآيتان ٣٦ - ٣٧ من سورة المعارج.

(٦) جزء من الآية ٥ من سورة الصف.

(٧) أي في شغل عنه. انظر اللسان ٥٠٦/١٣ مادة شده.

(٨) تفسير ابن كثير ١٧٦/٤-١٧٧

المبحث الرابع عشر

الكبر

الكبر بالكسر والكبرياء العظمة والتجبر وقد تكبر واستكبر وتكابر والتكبر والاستكبار: التعظم.

والاستكبار هو الامتناع عن قبول الحق معاندة.(١)

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معناه بقوله: "الكبر بطر الحق وغمط الناس".(٢)

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه أن الكبر من أوصاف القلوب الميتة فقال تعالى: (إن الذين يجٰدلون في ءايٰت الله بغير سلطٰن أتىٰهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببٰلغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير).(٣)

قال ابن كثير رحمه الله: أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله (إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببٰلغيه) أى مافي صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع (فاستعذ بالله) أي من حال مثل هؤلاء (إنه هو السميع البصير).(٤)

والكبر وصف ذميم أول من اتصف به إبليس أخزاه الله قال تعالى: (إلا إبليس أبي واستكبر وكان من الكٰفرين).(٥)

---

(١) انظر اللسان مادة (كبر) ١٢٩،١٢٧/٤

(٢) تقدم تخريجه ص ١٨٧

(٣) الآية ٥٦ من سورة غافر

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٤١/٧ وانظر جامع البيان ٧٦/٢٤-٧٧

(٥) جزء من الآية (٣٤) من سورة البقرة.

ثم انتقل هذا الداء الخطير إلى اتباعه من بعده من شياطين الإنس والجن فهاهو فرعون وجنوده يستكبرون عن سماع الحق كما قال تعالى: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق).[١]

وهاهم بنو إسرائيل يقول الله تعالى في حقهم: (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم).[٢]

بل إن هذا المرض الخطير هو أعظم أسباب تكذيب من كذب من الأمم.

ولذلك توعد الله عز وجل عليه بالعذاب الشديد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (وإذا تتلى عليه ءايٰتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم).[٣]

وقوله: (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين).[٤]

وقوله:(ادخلوا أبوب جهنم خٰلدين فيها فبئس مثوى المتكبرين).[٥]

وقوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)[٦] وقال صلى الله عليه وسلم: "لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".[٧]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٨]: فالكبر المباين للإيمان لايدخل

---

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة القصص.
(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٧ من سورة لقمان.
(٤) جزء من الآية ٦٠ من سورة الزمر.
(٥) الآية ٧٦ من سورة غافر.
(٦) جزء من الآية ٦٠ من سورة غافر.
(٧) أخرجه مسلم في الصحيح ٩٣/١ كتاب الإيمان (١) باب تحريم الكبر برقم ٩١/١٤٧
(٨) مجموع الفتاوى ٦٧٧/٧ .

صاحبه الجنة كما في قوله: (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) ومن هذا كبر إبليس وكبر فرعون.وهذا الاستكبار يكون في بعض الأحيان حمية جاهلية لعادات وموروثات باطلة أخذها الأبناء عن الآباء كما قال تعالى مبيناً لذلك: (وكـذلك ما أرسلنا من قبلك في قـرية مـن نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على ءاثـٰرهم مقتدون).[١]

وقـد ذكر تعالى هذه الحمية الجاهلية في قوله: (إذ جعـل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية).

قـال سيد قطب رحمه الله: حميـة لا لعقيدة ولا لمنهـج إنما هي حمية الكبروالفخـر والبطر والتعنـت. الحمية التى جعلتهـم يقفـون في وجه رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ومـن معه يمنعونهم من المسجـد الحرام، ويحبسون الهـدى الذى ساقوه أن يبلـغ محله الذي ينحر فيه مخالفين بذلـك كل عرف وكـل عقيـدة كى لاتقول العـرب إنه دخلها عليهم عنـوة، ففـي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين وينتهكون حرمـة البيت الحرام الذى يعيشـون على حساب قداستـه، وينتهكـون حرمة الأشهـر الحرم التى لم تنتهـك في جاهليـة ولا إسلام، وأمـا المؤمنـون فقـد حمـاهم اللـه عـز وجل من هـذه الحميـة وأحل محلهـا السكينـة والتقـوى: (فأنزل الله سكينته على رسوله على المؤمنين وألزمهـم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما) [٢].[٣]

فكـانت عاقبة هذه السكينـة والتقوى خيراً كثيراً للمسلمين فقـد رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد سنة من هذا الموقف فاتحين ودخلوا

---

(١) الآية رقم ٢٣ من سورة الزخرف.
(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة الفتح.
(٣) في ظلال القرآن ٣٣٢٩/٢٦

المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون إلا الله وحده.

وقد كان أبي بن كعب[١] يقرأ: (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام) فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، قال: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمني مما علمه الله، فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله.[٢]

---

(١) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار سيد القراء أبو منذر الأنصارى البدري ويكنى أيضاً أبا الطفيل شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، جمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكان رأسا في العلم والعمل، مات في خلافة عثمان سنة ثلاثين من الهجرة وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء ٣٨٩/١، الإصابة ٣١/١ برقم (٣٢).

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره ٣٠٨/٢، والحاكم في المستدرك ٢٢٥/٢-٢٢٦ في كتاب التفسير، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

المبحث الخامس عشر

الغل للمؤمنين

ومن أوصاف القلب الميت الغل للمؤمنين وقد ذكر الله عز وجل أن من أوصاف أتباع السلف ممن جاء بعدهم أنهم يدعون الله عز وجل أن يسلم قلوبهم من الغل لأحد من المؤمنين قال تعالى: (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمٰن ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) [١].

والغل بالكسر والغليل: الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد.[٢]

ولقد ابتليت الأمة الإسلامية بمن يحمل هذا المرض العضال منذ القرن الهجري الأول وإلى يومنا هذا وهم مايسمى بالرافضة وقد قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غل لخيار المؤمنين وسادات أولياء الله بعد النبيين ولهذا لم يجعل الله تعالى في الفيء نصيباً لمن بعدهم إلا الذين يقولون (ربنا اغفر لنا ولإخوننا الذين سبقونا بالايمٰن ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم).

ولهذا كان بينهم وبين اليهود من المشابهة في الخبث واتباع الهوى وغير ذلك من أخلاق اليهود وبين النصارى من المشابهة في الغلو والجهل وغير ذلك من أخلاق النصارى ماأشبهوا به هؤلاء من وجه وهؤلاء من وجه ومازال الناس يصفونهم بذلك.[٣]

---

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر.

(٢) اللسان عند مادة (غلل) ٤٩٩/١١

(٣) منهاج السنة ٢٢/١

ومثل الرافضة المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر قال تعالى مصوراً لعظم حقدهم على المؤمنين: (يأيها الذين ءامنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالاً ودوا ماعنتم قد بدت البغضآءُ من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الأيٰت إن كنتم تعقلون. هٰأَنتم أُولآء تحبونهم ولايحبونكم وتؤمنون بالكتٰب كله وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور).(١)

ففي هذه الآيات ينهى الله عز وجل عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لايألون المؤمنين خبالاً(٢) أي يسعون في مخالفتهم ومايضرهم بكل ممكن وبما يستطيعونه من المكر والخديعة ويودون مايعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم، قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ماهم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله مالايخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى: (قد بينا لكم الأيٰت إن كنتم تعقلون).

ثم قال تعالى: (هٰأَنتم أُولآء تحبونهم ولا يحبونكم) أى أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لايحبونكم لاباطناً ولا ظاهراً (وتؤمنون بالكتٰب كله) أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب وهم عندهم الشك والرب والحيرة (وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) والأنامل أطراف

---

(١) الآيتان ١١٨ و١١٩ من سورة آل عمران.

(٢) الخبال: الفساد. انظر المفردات عند مادة (خبل) ص ١٤٢

الأصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه قال تعالى: (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وذلك أشد الغيظ والحنق، قال تعالى: (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) أى مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومعل كلمته ومظهر دينه فموتوا بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) أي هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ماتؤملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التى أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال: (إن تمسسكم حسنه تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين وإن أصاب المسلمين سنة أي -جدب- أو أديل عليهم أعداؤهم لما لله في ذلك من الحكمة -كما جرى يوم أحد- فرح المنافقون بذلك ثم قال تعالى مخاطباًعباده المؤمنين (وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط)[١] فيرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار بالصبر والتقوى والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به وهو الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ومن توكل على الله كفاه.[٢]

---

(١) الآية رقم ١٢٠ من سورة آل عمران.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٨٨/٢ إلى ٩٠

الفصل الثاني
أسبـاب مـوت القلـب

وفيه تمهيد وستة مباحث:

المبحث الأول : الكفـــر.

المبحث الثاني: الزيـــغ.

المبحث الثالث: الجهل وعدم الفقه.

المبحث الرابع: إخلاف وعد الله عز وجل.

المبحث الخامس: الكـــبر.

المبحث السادس: اتباع الهوى.

تمهيـد

مما هـو معلوم عند المؤمنين أن القلـوب بيد اللـه عـز وجل يقلبها كيـف شاء قال صلى الله عليـه وسلم:"إن قلوب بني آدم كلهـا بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصـرفه كيـف يشاء" ثم قـال رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم:"اللهـم مصرف القلوب صرف قلـوبنا على طاعتك".(١)

وقـد كـان النبي صلى الـه عليـه وسلم يستعيـذ باللـه مـن الحور بعـد الكون.(٢)

وقال تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلٰم ومن يرد أن يضلـه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السمـاء كذٰلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون).(٣)

والإرادة في هـذه الآية هـى الكـونية التى لا تتخلـف ولا يتعلـق بهـا الرضا والمحبة مالم تجتمع مع الإرادة الشرعية.

وقال تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)(٤)

ولكـن جرت سنة الله عز وجل في خلقـه أن يجري أحكـامه الكونية مرتبة على أسباب هى في مقـدور الخلق وهم مطالبون بهـا إن كـانت تؤدي إلى مـايحبه الله ويرضاه ومنهيون عنها محاسبون عليهـا إن كانت تؤدى إلى ما يبغضـه اللـه، وأعطاهـم اللـه عـز وجـل القـدرة عـلى الفعـل والتـرك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحـه ٢٠٤٥/٤ كتـاب القـدر (٤٦) باب تصـريف اللـه تعـالى القلوب كيف شاء (٣) رقم الحديث(٢٦٥٤/١٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحـه ٩٧٩/٢ كتـاب الحج (١٥) باب مـايقول إذا ركـب إلى سفر الحج وغيره (٧٥) رقم الحديث (٤٢٦-١٣٤٣) ومعنى الحديث: الاستعـاذة من الـرجوع عـن الجماعة بعد أن كنـا منهم. انظر النهاية في غـريب الحديث والأثر عند مادة (حور) ٤٥٨/١

(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .

(٤) جزء من الآية ٢٤ من سورة الأنفال.

والمشيئـة المقيـدة بمشيئته تعـالى وهـو تعالى لم يكلفهـم مـالا يطيقـون ومالا يستطيعون قال تعالى:(لا يكلف الله نفساًإلا وسعها)[١]

وفيما يلي من مباحث سأبين أسباب موت القلـب وذلك حسب الجهد والطاقة والله الموفق.[٢]

---

(١) جزء من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة

(٢) ممـا ينبغى ذكره أن هذه الأسبـاب إذا لم تؤد إلى الكفـر فـإن القلب يكون فيه نصيب من الموت بقدر ما وقع فيه من هذه الأسباب حتى يموت مـوتاً كاملاً بترك دين الإسلام والردة عنه نسأل الله العافية.

المبحث الأول:

الكفــر

الكفر نقيض الإيمان، كفر بالله يكفر كفراً وكفراناً.

وكفـر نعمة الله يكفرها كفـورا، وكفراناً وكفر بهـا جحـدها وسترها. وكـافره حقه: جحده. ورجل مكفر: مجحود النعمة مع إحسـانه. ورجل كافر جاحد لأنعم الله مشتق من الستر. وقيل لأنه مغطى على قلبه.(١)

والكفـر عدم الإيمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضـه وتكلم به، أم لم يعتقد شيئاًولم يتكلم به.

واعلم أن الكفر بعضه أغلظ من بعض، فالكافر المكذب أعظم جرماًمن الكـافر غير المكـذب فـإنه جمـع بين ترك الإيمان المأمـور به وبين التكـذيب المنهى عنه. ومن كفر وكذب وحارب الله ورسوله والمؤمنين بيده أو لسانه أعظـم جرماًممن اقتصر على مجرد الكفـر والتكذيب، ومـن كفـر وقتل وزنا وسرق وصد وحارب كان أعظم جرماً.(٢)

وأنواع الكفر أربعة:

كفـر جهل وتكذيب وكفر جحـود وكفر عناد واستكبـار وكفر نفاق، فأحدها يخرج من الملة بالكلية وإن اجتمعت في شخص فظلمات بعضها فوق بعض والعياذ بالله من ذلك.

فإذا انتفى قول القلب وعمله وقول اللسان وعمل الجوارح اجتمعت أنواع الكفر غير النفاق قال تعالى: (إن الذين كفروا سوآء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهـم وعلىٓ أبصـٰرهم غشـوة ولهم عذاب عظيم).(٣)

---

(١) اللسان عند مادة (كفر) ١٤٤/٥

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٧٦/٢٠-٨٧

(٣) الآيات ٦ - ٧ من سورة البقرة .

وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق فكفر الجهل والتكذيب قال تعالى:(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)[١] وقال تعالى:(أكذبتم بِئايٰتي ولم تحيطوا بها علماً أمَّاذا كنتم تعملون)[٢] وإن كتم الحق مع العلم بصدقه فكفر الجحود والكتمان قال تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عقبة المفسدين)[٣] وقال تعالى: (فلما جآءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكٰفرين)[٤] وقال تعالى:(الذين ءاتينٰهم الكتب يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين).[٥]

وإن انتفى عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة والإذعان مع انقياد الجوارح الظاهرة فكفر نفاق قال تعالى: (ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الأخر وماهم بمؤمنين يخٰدعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلآ أنفسهم ومايشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون).[٦]

وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان فكفر عناد واستكبار ككفر إبليس وكفر غالب اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه.

وكفر من ترك الصلاة عناداً واستكباراً ومحال أن ينتفى انقياد

---

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة يونس.
(٢) جزء من الآية ٨٤ من سورة النمل.
(٣) الآية ١٤ من سورة القصص.
(٤) جزء من الآية ٨٩ من سورة البقرة.
(٥) الآيتان ١٤٦ و١٤٧ من سورة البقرة.
(٦) الآيات ٨-١٠ من سورة البقرة.

الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب قال النبي صلى اللـــه عليه وسلم: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب".(١)

والمقصود أن الكفر بجميع أنواعه مميت للقلب قال تعالى مبيناً موت قلوب الكافرين وكيف أنه لايحييها إلا نور الإيمان (أو من كان ميتاً فأحيينٰه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمٰت ليس بخارج منها كذلك زين للكٰفرين ماكانوا يعملون).(٢)

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية التى لاتفنى وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فهو موت والإيمان اتصال واستمداد واستجابة فهو حياة.

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع وختم على الجوارح والمشاعر وتيه وضلال فهو ظلمة.

والإيمان تفتح ورؤية وإدراك واستقامة فهو نور بكل مقومات النور إن الكفر انكماش وتحجر فهو ضيق وشرود عن الطريق الفطرى الميسر فهو عسر، وحرمان من الاطمئنان فهو قلق.

والإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود.

فما الكافر إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود، فهو منقطع الصلة بالوجود لاتربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردى المحدود في أضيق الحدود، في الحدود التى تعيش فيها البهيمة حدود الحس ومايدركه هذا الحس من ظاهر الوجود.

(١) تقدم تخريجه ص ٣

(٢) الآية ١١٩ من سورة الأنعام.

لقد كانت قلوب المسلمين قبل بعثه خاتم الأنبياء والمرسلين مواتا وكانت أرواحهم ظلاماً ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء ويفيض منها النور فتمشى به في الناس تهدى الضال وتلتقط الشارد وتطمئن الخائف وتحرر المستعبد وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد، المتحرر المستنير الذى خرج بعبودية الله وحده من عبودية العبيد.(١)

كما قال تعالى في آية أخرى منبهاً على ذلك (اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الأيٰت لعلكم تعقلون).(٢)

قال ابن كثير رحمه الله: فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدى الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لايصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لم يشاء بعد الإضلال والمضل لمن أراد بعد الكمال الذى هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال اللطيف الخبير الكبير المتعال.(٣)

وأما القلب المصر على الطغيان والمكث في دياجير الكفر والبهتان فهو قلب منكوس مظلم قد طبع الله عليه كما قال تعالى: (بل طبع الله عليها بكفرهم)(٤) وقال كذلك: (كذلك يطبع الله على قلوب الكٰفرين)(٥)

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٨/١٢٠٠-١٢٠١

(٢) الآية رقم ١٧ من سورة الحديد.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧

(٤) جزء من الآية ١٥٥ من سورة النساء.

(٥) جزء من الآية ١٠١ من سورة الأعراف.

ولـذلك إذا ذكر عنده الله عز وجل اشمأز وضا ق (وإذا ذكـر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالأخرة).[١]

وهو كذلك قلب مرعوب قلق (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بمآ أشـركوا بالله مـالم ينزل به سلطٰناً)[٢] إنه لا أمـن مـع الكفر فـالأمن والاطمئنـان مـن لوازم الإيمان بالله وحده وقـد حاج إبراهيم قـومه بذلـك عنـدما حاولوا تخويفه من آلهتهـم الباطلة فقال تعالى مبينـاً ذلـك: (وكيف أخاف مـاأشركتم ولا تخافون أنكـم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكـم سلطٰناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمٰنهم بظلم أولٰئك لهم الأمن وهم مهتدون).[٣]

وقـد بين النبي صلى اللـه عليـه وسلم للصحابة الكرام أن المراد بالظلم هنا الشرك كما في قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم).[٤][٥]

والقلـب الكافر قلب ملىء بالحقـد والغل لعباد اللـه المؤمنين وخاصـة الصفـوة منهـم أصحـاب النبي المصطفـى صلـوات الله وسلامـه عليـه وعلى أصحـابه أجمعين قـال تعالى: (محمـد رسـول الله والـذين معـه أشـداء على الكفـار رحمـآء بينهم ترٰهـم ركعـاً سجـداً يبتغون فضلاً مـن اللـه ورضوٰنـا سيمـاهم في وجوههـم من أثر السجـود ذلـك مثلهم في التـورٰة ومثلهـم في الإنجيـل كـزرع أخرج شطئـه فـٔازره فـاستغلظ فاستـوى على سـوقه يعجـب الـزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملـوا الصٰـلحٰـت منهم مغفرة وأجراً عظيماً).[٦]

---

(١) جزء من الآية ٤٥ من سورة الزمر.
(٢) جزء من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.
(٣) الآيتان ٨١ و٨٢ من سورة الأنعام.
(٤) جزء من الآية (١٣) من سورة لقمان.
(٥) تقدم ذكر هذا الحديث وتخريجه ص ٩٤؟
(٦) الآية (٢٩) من سورة الفتح.

المبحث الثاني

الزيــغ

إن زيغ القلب عن الحق سبب رئيس في موته قال تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفسقين)[١] وذلك أن الله تعالى كثيراً مايعاقب على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه كما جاء في قوله تعالى أيضاً (فزادتهم رجساً إلى رجسهم).[٢]

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى: (ونقلب أفئدتهم وأبصٰرهم كما لم يؤمنوا به أول مرة).[٣]

فالمعنى على أحد الأقوال: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة فعاقبناهم بتقليب أفئدهم وأبصارهم.[٤]

وقد استحسن هذا القول ابن القيم رحمه الله فقال: وهذا معنى حسن فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله (وأحسن كما أحسن الله إليك)[٥] وقوله: (كمآ أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم ءايٰتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتٰب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[٦] والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.[٧]

---

(١) جزء من الآية رقم ٥ من سورة الصف.
(٢) جزء من الآية ١٢٥ من سورة التوبة.
(٣) جزء من الآية١١٠ من سورة الأنعام.
(٤) انظر شفاء العليل ص٩٩
(٥) جزء من الآية ٧٧ من سورة القصص.
(٦) الآيتان ١٥١ و١٥٢ من سورة البقرة.
(٧) انظر شفاء العليل ص٩٩

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون)[١] فعاقبهم الله عز وجل لانصرافهم بصرف آخر غير الصرف الأول. فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لاقبالهم لأنه لاصلاحية فيهم ولاقبول فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن -كما قال تعالى- في آية أخرى: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)[٢] فهو سبحانه لم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به لأنه لاخير في قلوبهم يدخل بسببه الحق إليها وإنما أسمعهم سماعاً تقوم عليهم به الحجة فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول.

وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولنتأمل قصة إبليس عندما عصى ربه تعالى ولم ينفذ أمره وأصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية صغيرة وكبيرة فصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق فمن عقاب السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها والعباد في ذلك دائرون بين عدل الله تعالى وحجته عليهم فقد مكنهم وفتح لهم الباب ونهج لهم الطريق وهيأ لهم الأسباب فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ودعاهم على ألسنة رسله وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردى وأسباب الفلاح وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً فآثروا

---

(١) جزء من الآية ١٢٧ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأنفال.

الهوى على التقوى واستحبوا العمى على الهدى وقالوا معصيتك آثر عندنا من طاعتك والشرك أحب إلينا من توحيدك وعبادة سواك أنفع لنا في دنيايا من عبادتك فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم وانصرفت عن طاعته ومحبته فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً فسده عليهم اضطراراً فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ماتولوه ومكنهم فيما ارتضوه وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه وأغلق عنهم الباب الذى تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم ولاأحسن من فعله ولوشاء لخلقهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم على غير هذه النشأة ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث والملائكة والشياطين والشاء والذئاب ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له فبعضها بطباعها وبعضها بإراداتها ومشيئتها وكل ذلك جار على وفق حكمته وهو موجب حمده ومقتضى كماله المقدس وملكه التام ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ماخفي عليهم بوجه ماإن هو إلا كنقرة عصفور من البحر.[١]

قال تعالى: (ولايحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شآء).[٢]

وقد جاء في حديث موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر أن الخضر قال لموسى وقد أخذ طائر بمنقاره من البحر: والله ماعلمي وماعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر.[٣]

---

(١) انظر شفاء العليل ص٩٧-٩٨

(٢) جزء من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٥٥/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة الكهف (١٨) باب (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا)(٣) رقم الحديث (٤٧٢٦).

المبحث الثالث

الجهل وعدم الفقه

إن الجهل باب عظيم من أبواب الفساد -أعنى فساد القلوب وفساد الأبدان وفساد الدنيا بأسرها-.

فهو يؤدى إلى التكذيب بخبر الله وذلك هو أحد أنواع الكفر.(١)

قال تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)(٢) وقال كذلك: (اكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما)(٣) وهو يؤدى مع إضلال النفس إلى إضلال الغير قال تعالى: (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم).(٤)

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساًجهالاً فسئلوا فأفتوابغير علم فضلوا وأضلوا".(٥)

ولذلك نهى الله عز وجل عن القول بلا علم فقال تعالى: (وأن تقولوا على الله مالاتعلمون).(٦)

وقال كذلك: (ولاتقف ماليس لك به علم)(٧) وبين أن القول بلا علم

---

(١) كما سبق بيانه ص ٤٣٠.

(٢) جزء من الآية ٣٩ من سورة يونس.

(٣) جزء من الآية ٨٤ من سورة النمل.

(٤) جزء من الآية ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٥) اخرجه البخارى في صحيحة ٥٣/١ كتاب العلم (٣) باب كيف يقبض العلم (٣٤) رقم الحديث (١٠٠) ومسلم في صحيحه ٢٠٥٨/٤ كتاب العلم (٤٧) باب دفع العلم وقبضه (٥) رقم الحديث ٢٦٧٣/١٣

(٦) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٧) جزء من الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

من وسوسة الشيطان فقال تعالى: (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)[١] وصور إضلال الغير في المجتمعات الإسلامية كثيرة جداً من أعظمها زعم من زعم أن لله وسطاء بينه وبين خلقه لايفعل سبحانه شيئاً من غير وساطتهم فحولوا القلوب عنه تعالى ووجهوها إلى قبور لاتعد ولاتحصى وإلى عبيد ضعفاء لايملكون لأنفسهم ضراً ولانفعاً ولايملكون موتاً ولاحياة ولانشوراً وقد يسمون هذا توسلاً إليه أى يتقربون إليه بالشرك به ودعاء غيره من دونه أو معه وهو يقول: (فلا تدعوا مع الله أحداً)[٢] ويقول (بل إياه تدعون)[٣] أى دون غيره.[٤]

ومن أوصله جهله إلى مثل هذه الأمور المنكرة فإنه سوف يقوده بلا ريب حتى يطبع على قلبه فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ولا ينتفع بخبر قال تعالى: (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون)[٥] فالله تعالى يختم على قلوب الذين لايعلمون حقيقة مايأتيهم به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله من العبر والعظات والآيات البينات فلايفقهون عن الله حجة ولا يفهمون عن النبي مايتلو عليهم من كتاب الله فهم في طغيانهم يترددون.[٦]

ولا يكفى العلم المجرد لسلامة القلب حتى يرافقه الفهم الصحيح وقد

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ١٨ من سورة الجن.

(٣) جزء من الآية ٤١ من سورة الأنعام.

(٤) انظر تفسير المنار ٨٩/٢

(٥) جزء من الآية ١٠١ من سورة الأعراف.

(٦) انظر جامع البيان ٥٨/٢١

قال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين".[١]

وأول الفقه فهم خطاب الله ورسوله بعد معرفة ثبوت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٢]

وعدم فهم خطاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو الذي أوقع الكثير في حبال المبتدعة الذين يلبسون على الناس فانصرفوا عن الحق فصرف لله قلوبهم قال تعالى: (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون).[٣]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٢/١ كتاب العلم (٣) باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (١٣) رقم الحديث (٧١) ومسلم في صحيحه ٧١٨/٢ كتاب الزكاة (١٢) باب النهي عن المسألة (٣٣) رقم الحديث (١٠٣٧/٩٨).

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٧٨/٨

(٣) جزء من الآية ١٢٧ من سورة التوبة.

المبحث الرابع

إخلاف وعد الله عز وجل

لقد أخذ الله عز وجل على الناس **ثلاثة مواثيق**[١] بعبادته وحده دون ماسواه وترك كل مايعبد من دونه وهى كالتالى:

الميثاق الأول: ماأخذه عليهم وهم في أصلاب آبائهم فقال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بنى ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيٰمة إنا كنا عن هذا غٰفلين أو تقولوا إنما أشرك ءاباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون).[٢]

الميثاق الثاني: أن الله عز وجل فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم في الميثاق الأول كما قال تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله)[٣] وهو الثابت في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مامن مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها".[٤]

الميثاق الثالث: وهو ماجاءت به الرسل وأنزلت به الكتب تجديداً للميثاق الأول وتذكيراً به قال تعالى: (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).[٥]

---

(١) انظر مختصر معارج القبول من ص١٢ إلى ١٥

(٢) الآيتين ١٧٢ و١٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) جزء من الآية ٣٠ من سورة الروم.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٤١٦/١-٤١٧ كتاب الجنائز (٢٣) باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (٧٩) الحديث (١٣٥٨) و (١٣٥٩) ومسلم في صحيحه ٢٠٤٧/٤ كتاب (٤٦) باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦) الحديث رقم (٢٦٥٨/٢٢).

(٥) جزء من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

وقد أيد الله رسله بالبراهين الدالة على صدقهم فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته قبله وقام به دون تردد ومن انحرفت فطرته فتلك البراهين التى مع الرسل وماالديهم من إقناع فيها الحجة الكافية عليه فمن وفى بالميثاق دخل الجنة وإلا فالنار أولى به.

والمقصود أن إخلاف وعد الله عز وجل ومواثيقه التى أخذها على عباده وأقروا بها من الأسباب العظيمة لموت القلب ومن ذلك ماجاء في قوله تعالى: (ومنهم من عهد الله لئن ءاتىٰنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصلحين فلما ءاتىٰهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون).[(١)]

وإخلاف الوعد من صفات المنافقين كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان".[(٢)]

والآية تبين أن إخلاف الوعد يمكن النفاق في القلب ويقويه وتلك هى سنته تعالى.[(٣)]

قال ابن كثير عند هذه الآية: ومن المنافقين من أعطي الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين فما وفي بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك.[(٤)]

---

(١) الآيات٧٥-٧٧من سورة التوبة.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ٢٧/١ كتاب الإيمان (٢) باب علامة المنافق (٢٤) رقم الحديث (٣٣) ومسلم في صحيحه ٧٨/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال المنافق (٢٥) رقم الحديث (٥٩/١٠٧) و(٥٩/١٠٩).

(٣) انظر تفسير المنار ٥٥٩/١٠

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٢٤/٤

المبحث الخامس

الكبر

الكبر هو الامتناع عن قبول الحق معاندة والتنقص من الناس وهو من أوصاف القلب الميت اتصف به إبليس وتبعه على ذلك كل من اقتفى أثره وسار على ضلاله من الأمم المكذبة المعاندة.

وهو كذلك من أسباب تمكن موت القلب وقسوته ويؤدى به إلى أمراض أخرى هو عنها في منأى لو سلم من الكبر.

منها الطبع قال تعالى: (كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار).[١]

ومنها الإنكار والجحود قال تعالى: (فالذين لايؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون).[٢]

ومنها الانصراف عن آيات الله قال تعالى: (سأصرف عنءايتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كلءاية لايؤمنون بها).[٣]

ومنها المكر قال تعالى: (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً).[٤]

إلى غير ذلك من الأمراض نسأل الله السلامة.

---

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة غافر.
(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة النحل.
(٣) جزء من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.
(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة سبأ.

المبحث السادس

اتبــاع الهــوى

الهـوى: ميل النفس إلى الشهوة قيل سمى بذلك لأنه يهـوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية.(١)

والهـوى والظن هما أصل الضلال كمـا قال تعالى: (إن يتبعـون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى).(٢)

ولذلك قال الله عز وجل في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: (والنجم إذا هـوى ماضل صاحبكم ومـاغوى وماينطق عن الهـوى إن هو إلا وحي يوحى)(٣) فنزهـه عن الضلال والغـواية اللذين هما الجهـل والظلم فـالضال هو الذى لايعلم الحق والغـاوى الـذي يتبـع هواه، وأخبر أنه مـاينطق عـن هوى النفس بل هو وحى أوحاه اللــه إليـه فـوصفه بالعلم ونزهـــه عــن الهــــوى.(٤)

ومتبـع الهوى لابد أن يضـل سواء عن علم أو عـن جهـل فإنه كثيراً مايترك العلم اتباعاً لهواه ولابد أن يظلم إما بالقول أو بالفعـل لأن هواه قد أعمــــاه.(٥)

وقد حذر السلف من مجالسة أهل الأهواء لأنها ممـرضة للقلوب، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهمـا: "لاتجالـس أهـل الأهــواء فـإن مجالستهـم ممرضة للقلوب".(٦)

---

(١) المفردات عند مادة (هوى) ص٥٤٨

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة النجم.

(٣) الآيات ١-٤ من سورة النجم.

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٣٨٤/٣

(٥) الهوى وأثره في الخلاف ص٨

(٦) تقدم تخريجه ص ٢٨٤

وكـل من اتبع هواه كان لـه نصيب من ذلك بحسب هذا الاتباع قل أو كثر.

ومن مفاسد اتباع الهوى الوقوع في الذنب بعد الذنب حتى يران على قلب صاحبه (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون).[١]

ومنها أيضاً تجاوز حدود الله والاعتداء على محارم الله حتى يطبع على قلب صاحبه (كذلك نطبع على قلوب المعتدين).[٢]

قـال صـاحب المنـار: وأما الاعتـداء الـذي صار وصفـاً ثابتـاً لهـؤلاء (المعتـدين) فمعنـاه تجاوز حدود الحق والعـدل اتبـاعاً لهـوى النفـس وشهواتها.[٣]

---

(١) الآية ١٤ من سورة المطففين.

(٢) جزء من الآية ٧٤ من سورة يونس.

(٣) تفسير المنار ٤٦٤/١١

الفصل الثالث
منهج القرآن الكريم في معالجة القلب الميت

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول : غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب الميتة.

المبحث الثاني: العلاج عن طريق الترغيب والترهيب.

المبحث الثالث: العلاج بضرب المثل.

المبحث الرابع: التأثير على القلب الميت عن طريق الإعجاز القرآني.

المبحث الخامس: الدعوة إلى إحياء القلوب الميتة بالرجوع إلى الله عز وجل والبشارة بإمكانية ذلك.

تمهيـــد:

إن القـرآن الكـريم كتاب هـداية للناس كافة (قل يـٰأيها النـاس إني رسول الله إليكم جميعاً).[١]

ولذلك فقد اهتم بهداية القلوب الحائرة الضالة اهتماماً عظيماً فتنوعت أساليبه لأجل هذا الغرض الرباني الكريم بحيث لاتبقـى حجة لأحد على ربه (رسلاً مبشـرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللـه حجة بعد الرسل).[٢]

وذلك من رحمة الله عز وجل بعباده ولطفه بهم ولا يهلـك على الله إلا هالك.

وفيمـا يلى سأذكر منهج القـرآن الكريم في علاج مــوت القلـب كما ظهر لى. والله هو الموفق.

---

(١) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) جزء من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

المبحث الأول

غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب

وذلك عن طريق الأمور التالية:

أولاً: توجيه القلب الميت إلى معرفة الله جل وعلا بأسمائه وصفاته:

إن لأسماء الله عز وجل وصفاته وقعاً عظيماً في قلوب الخلق مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم ولذلك كان من منهج كتاب الله الكريم مخاطبة موتى القلوب وتذكيرهم بصفات الله العظيمة عسى أن يحي ذلك منهم قلباً أو يرد ضالاً قال تعالى: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون).[١]

فهذا تذكير ودعوة لأهل الإلحاد بصفة الخلق والرزق.

فلله كم أحيا ذكر الله وأسمائه وصفاته قلوباً غلفاً وكم فتح أعيناً عميا وآذاناً صما.

أخرج البخارى عن جبير بن مطعم[٢] رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون) كاد قلبي أن يطير.[٣]

---

(١) الآيات ٣٥-٣٧ من سورة الطور.

(٢) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف بن قصي، شيخ قريش في زمانه أبو محمد ويقال أبو عدى القرشى النوفلي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الطلقاء حسن إسلامه وكان موصوفاً بالحلم ونبل الرأى كأبيه، له رواية أحاديث، مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين. انظر السير ٩٥/٣، الإصابة ٢٢٧/١ برقم ١٠٩١

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٩٧/٣-٢٩٨ كتاب التفسير (٦٥) سورة الطور (٥٢) باب (١) رقم الحديث (٤٨٥٤).

وقال تعالى في محكم التنزيل: (أفي الله شك فاطر السمٰوٰت والأرض).[١]

وهذا القول هو ماقالته الرسل لأقوامهم في دعوتهم إياهم.

وقال تعالى: ذاكراً مناظرة موسى عليه الصلاة والسلام لإمام موتى القلوب فرعون: (قال فرعون وما رب العٰلمين. قال رب السمٰوٰت والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب ءاباءكم الأولين. قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون).[٢]

والآيات في هذا كثيرة ليس هذا مقام سردها.

ثانيا: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله الشرعية:

لقد دعا الله عز وجل أصحاب القلوب الميتة من أهل الكفر والعناد إلى الاستماع لآيات كتابه الكريم وتدبرها فقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرءان أم على قلوب أقفالها).[٣]

وقال تعالى مخاطباً موتى القلوب من أهل الكتاب داعياً إياهم إلى الاستماع للقرآن الذي يحمل نور الحياة إلى قلوبهم التى أطفأ نورها ديجور الكفر والتكذيب، قال تعالى: (يٰأهل الكتٰب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتٰب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتٰب مبين يهدى به الله من اتبع رضوٰنه سبل السلٰم ويخرجهم من الظلمٰت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صرٰط مستقيم).[٤]

---

(١) جزء من الآية ١٠ من سورة إبراهيم.
(٢) الآيات ٢٣-٢٨ من سورة الشعراء.
(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد.
(٤) الآيتان ١٥ و١٦ من سورة المائدة.

بل لقد أمر الله عز وجل المؤمنين بإسماع المشركين كلامه الكريم لما يحمل في طياته من هداية ونور فقال تعالى:(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله).(١)

ولقد ذكر الله عز وجل الكفر والشرك والنفاق وأوصاف القلوب الميتة وماينتظر أهلها من عذاب عظيم، وثواب المنيبين إليه التائبين المخبتين في الدنيا والآخرة، ذكر ذلك كله في آيات كثيرة من شأنها أن تنير قلوب السامعين وتعيد إليها الحياة (اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها)(٢) هذا مع مايحمله كلام الله من الشفاء والبركة والهداية (يـٰأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين).(٣)

ثالثاً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله الكونية والنفسية:

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذين المجالين لما يحملان من دلائل عظيمة على توحيد الله عز وجل وصدق كتابه ورسوله فقال تعالى: (سنريهم ءايـٰتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).(٤)

والقرآن الكريم إنما ينتقى من آفاق الكون وعجائب النفس البشرية مايحقق أغراضه وأهدافه التى من أهمها تبيان الحق وإظهاره والاستدلال على توحيدالله عز وجل وترسيخ الإيمان باليوم الآخر بالبرهان والحجة.(٥)

---

(١) جزء من الآية ٦ من سورة التوبة.
(٢) جزء من الآية ١٧ من سورة الحديد.
(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس.
(٤) جزء من الآية ٥٣ من سورة فصلت.
(٥) انظر التربية بالآيات ص ١٩٥

وقـد خاطـب القـرآن أصحاب القلـوب الميتـة بهـذا الجانب لتحقيـق الأغـراض السابقة نفسها فقال تعالى: (وضرب لنا مثلاً ونسـي خلقه قال من يحي العظـٰم وهـى رميم قل يحييهـا الذي أنشأها أول مـرة وهـو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منـه توقدون أوليس الـذي خلق السمـٰوٰت والأرض بقـٰدر على أن يخلـق مثلهـم بلى وهو الخلـٰق العليم).(١)

وقال تعالى: (ذٰلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالـق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل).(٢)

إلى غير ذلـك مـن الآيات التي يصعـب حصـرهـا في هـذا الموضع.(٣)

رابعاً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله التاريخية:

والمراد ماذكره الله عز وجل في كتابه الكريم مـن قصص الأنبياء مع أقـوامهم وكذلك ماحل بالأمم المكذبة من عذاب في الـدنيا وما ينتظرهم في الـدار الآخرة من ذل وهوان قال تعالى: (أو لم يسيروا في الأرض فينظـروا كيـف كـان عـٰقبة الذين من قبلهـم كـانوا أشد منهم قـوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينـٰت فما كان الله ليظلمهم ولكـن كـانوا أنفسهـم يظلمـون. ثم كـان عـٰقبة الذين أسـٰوا السـوأى أن كذبوا بـٔايـٰت الله وكانوا بها يستهزءون).(٤)

والقـرآن ملىء بذكـر هذه السنـة الـربانية وبالدعـوة إلى النظـر فيهـا وتدبرها والاعتبار بها.(٥)

---

(١) الآيات ٧٨-٨١ من سورة يس.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنعام.

(٣) وقد تقدم الكلام عن آيات الله الكونية والنفسية بشيء من التفصيل.

(٤) الآيتان ٩ و١٠ من سورة الروم.

(٥) وقد تقدم الكلام على ذلك بشيء من التفصيل.

المبحث الثاني

العلاج عن طريق الترغيب والترهيب

وذلك من طريقين:

الأول: الحديث عن القلب الميت وذكر أسباب موته وبيان مايوصل إليه موت القلب من العذاب الدنيوى والأخروي:

فلقد اهتم القرآن الكريم بالحديث عن القلوب الميتة القاسية ولا أدل على ذلك من ذكره لكثير من أوصافها التى سبق بيانها كالكفر والنفاق والكبر والطبع والختم والرين والكن والزيغ وغير ذلك وليس ذاك فحسب بل اهتم أيضاً ببيان أسباب موت القلب وقد سبق بيان ذلك أيضاً.

ثم ذكر أيضاً مايوصل إليه موت القلب من العذاب الدنيوى والأخروي.

ومن الأمثلة على ذلك:

الحديث عن المنافقين ومصيرهم المؤلم يقول تعالى في ذلك: (بشر المنٰفقين بأن لهم عذاباً أليما)[1] وقال كذلك: (إن المنٰفقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا).[2]

ومنها بيان قلقهم وتشتتهم في الدنيا فقال: (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلآء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا).[3]

ومنها أيضاً بيان تشتت أصحاب القلوب الميتة وإنهم لايجتمعون وإن أظهروا ذلك (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون).[4]

ومنها أيضا ذكر ماينال القلب الميت من الرعب والخوف من المؤمنين

---

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٤٥ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٤٣ من سورة النساء.

(٤) جزء من الآية ١٤ من سورة الحشر.

قال تعالى: (فأتـٰهم الله من حيث لم يحتسبوا وقـذف في قلـوبهم الـرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين).[١]

ومنا أيضاً ذكر ماهم فيه في الدنيا والآخرة من عمى وضلال قال تعالى: (ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الأخرة أعمىٰ وأضل سبيلاً).[٢]

وأما ماتوعدوا به في الآخرة فهو النار وبئس المصير قال تعالى: (إن المنـٰفقين في الدرك الأسفل من النار).

وقال تعالى أيضاً: (وعد الله المنـٰفقين والمنـٰفقـٰت والكفار نار جهنم خـٰلدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم).[٣]

وقال تعالى أيضاً: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأوىٰه النار وما للظـٰلمين من أنصار).[٤]

والآيات في ذلك كثيرة جداً يصعب حصرها في هذا الموضع.

ثانياً: الحديث عن القلب الحي وذكر أسباب حياته وسلامته وبيان مايناله أصحابه من النعيم الدنيوى والأخروى:

ولقد اهتم القرآن الكريم بذلك اهتماماً عظيماً فذكر أوصاف القلب الحي السليم كالإيمان واليقين والطمأنينة والسكينة والرحمة والرأفة وغير ذلك مما سبق ذكره من أوصاف القلب السليم ثم ذكر أسباب سلامة القلب وما أعد الله عز وجل لأصحاب القلب السليم من النعيم المقيم.[٥]

إن في ذكر ذلك كله لحثاً لكل من له عقل وقلب أن يلحق بالركب وأن يعود إلى الله عز وجل ويقبل عليه تعالى بقلب خالص من كل شبهة وشهوة لينال الطمأنينة والراحة في الدنيا والآخرة.

---

(١) جزء من الآية ٢ من سورة الحشر.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٦٨ من سورة التوبة.

(٤) جزء من الآية ٧٢ من سورة المائدة.

(٥) كما سبق بيان ذلك بالتفصيل.

المبحث الثالث

العلاج بضرب المثـــل

للأمثـال تأثير كبير في القلـوب لأنهـا تشبـه الخفـي بالجلي والغـائب بالشـاهد فيتـأكد الوقوف على مـاهية الشـيء ويصير الحـس مطـابقاً للعقـل ولذلك استخدم القرآن الكريم المثل كعلاج لموتى القلوب.

والمتـدبر لآيات القـرآن الكـريم يجد الأمثـال المضــروبة للمعـاندين الجاحدين كثيرة يصعب حصرها:

كتمثيل الكافر بالأعمى والأصم وذلك في قوله تعـالى: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً).[١]

والمتخـذ من دون الله أولياء بالعنكبوت وذلك في قـوله تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتـاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).[٢]

والكفـار بمنزلـة العبد المملـوك العاجز وذلك في قـوله تعـالى: (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء).[٣]

ومـن يعرف الحق ثم يخالف ذلك بالحمار وذلك في قـوله تعالى: (مثل الذين حملوا التورلة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً).[٤]

ومن أوتي العلم فترك العمل به اتباعاً لهواه بالكلـب وذلك فـــــي

(١) جزء من الآية ٢٤ سورة هود.

(٢) الآية ٤١ سورة العنكبوت.

(٣) جزء من الآية ٧٥ سورة النحل.

(٤) جزء من الآية ٥ سورة الجمعة.

قوله تعالى: (واتل عليهم نبــأ الـذي ءاتينـٰه ءايـٰتنا فـانسلخ منهــا فـأتبعه الشيطـٰن فكـان من الغاوين ولـو شئنا لرفعنـٰه بها ولٰكنـه أخلد إلى الأرض واتبـع هوىٰه فمثله كمثل الكلـب إن تحمل عليه يلهـث أو تتركه يلهث).(١)

وغير ذلـك من الأمثلة التي هي كفيلة بإعادة من لـديه أدنى عقل إلى منهج الله عز وجل في الاعتقاد والقول والعمل.(٢)

---

(١) الآية ١٧٥ وجزء من الآية ١٧٦ سورة الأعراف

(٢) انظـر للاستزادة من هذه الأمثـال مع شرحها بالتفصيل كتـاب الأمثـال في القرآن لابن القيم رحمـه اللـه وقـد تقـدم الكلام على الأمثــال وفـوائدها بشـيء مـن التفصيل.

المبحث الرابع

التأثير على القلب الميت عن طريق الإعجاز القرآني

القرآن الكريم كلام الله عز وجل وفيه الدعوة والحجة وله اختصاص على غيره كما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: "مامن الانبياء نبي إلا وقد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي"[١] فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".[٢]

والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً من وجوه[٣] فيقال: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الرسائل ولا الخطابة ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس، عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته أمر عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل يعرفه من له نظر وتدبر.

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر لانبي[٤] ولاغير نبي.

---

(١) لعل المراد أن أعظم ماأوتيه النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن لا أنه لم يؤت غيره من خوارق العادات لأن القرآن هو الآية الباقية إلى قيام الساعة ولذلك قال بعد ذلك "فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٣٦/٣ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب كيف نزل الوحى (١) رقم الحديث (٤٩٨١) ومسلم في صحيحه ١٣٤/١ كتاب الإيمان (١) باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس (٧٠) برقم ٢٣٩

(٣) انظر ذلك بالتفصيل في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٧٨/٤، والبرهان للزركشي ٩٠/٢ إلى ١٢٤، ومناهل العرفان ٣٥٤/٢ إلى ٤٤٢

(٤) المراد كلام النبي الذي يكون من عند نفسه.

وكـذلك ما أخبر عن الملائكة والعرش والكرسي والجن، وخلـق آدم وغير ذلـك، وما أمر به القرآن من الدين والشرائع، كـذلك ماأخبر به من الأمثال وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك.

والإعجـاز في معناه أعظم وأكثر مـن الإعجاز في لفظـه وجميع عقلاء -بنى آدم- عـاجزون عـن الإتيـان بمثل معانيه أعظـم مـن عجز العرب عن الاتيان بمثل لفظه.(١)

ولقـد كان العرب يفدون ويستمعـون إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم، حتى إن كبار المعـارضين للنبي صلى الله عليـه وسلم خافوا على أنفسهـم من أن يؤثر القرآن فيهـم واستحبـوا الكفر على الإيمان واستحبـوا العمـى على الهـدى ولذلك تفاهمـوا فيمـا بينهم ألا يسمعـوا لهـذا القرآن، لأن الـذين يسمعونه يتأثرون بما فيـه مـن علو بيان وأنه فوق طاقة البشر ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى، ومنهم كبراء ذووا مقـام وجبروت فوجدوا الإيمان يقوى ويكثر أهله والشـرك يضعف وينقص عدده، تفاهموا على ألا يسمعـوا لهـذا القـرآن وأن يُهَـرِّجوا بالقـول عنـد سمـاعه. وقـد حكى الله سبحـانه وتعـالى عنهم ذلك فقـال: (وقـال الـذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون).(٢)(٣)

هـذا وقد اعترف مشركوا قـريش بما في كتاب الله تعـالى من الإعجاز وأنه لايشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغـة وأرباب اللسان كما جاء في قصـة عتبة عندما كلم النبي صلى الله عليه وسلم محاولاً أن يثنيـه عن

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٧٨/٤

(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة فصلت.

(٣) انظر المعجزة الكبرى القرآن ص٦٨-٦٩

دعـوة الإسلام فقد قال عتبة لقومه بعد أن عاد عليهـم: ولقد علمتم أني من أكثر قـريش مالاً ولكني أتيته فقص عليهم القصة فأجابني بشـيء والله ماهو بسحـر ولا شعـر ولا كهانة قـرأ (بسم الله الرحمٰن الـرحيم حم تنزيل مـن الـرحمٰن الـرحيم كتٰب فصلت ءايٰته قـرءانا عربياً لقــوم يعلمـون حتى بلغ فقـال: أنذرتكم صٰعقة مثـل صٰعقة عـاد وثمود)[١] فأمسكت بفيه وناشـدته الـرحم أن يكـف وقد علمتم أن محمـداً إذا قال شيئـاً لم يكـذب فخفت أن ينزل بكم العذاب".[٢]

وكثير ممن أسلم إنما بهرته روعة القرآن وإعجازه ولذلك أمر اللــــه عز وجل بإسماعه للمشركين فقال تعالى: (وإن أحد مـن المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلٰم الله ثم أبلغه مأمنه).[٣]

وفي قصة إسلام أبي ذر[٤] رضي الله عنه قال أبو ذر: فـانطلق أنيس

---

(١) الآيات ١-١٣ من سورة فصلت.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢٠٢/٢ إلى ٢٠٤
وقـال الشيخ الألباني في هذه القصـة: أخرجها ابن اسحاق في المغـازي ١٨٥/١ من سيرة ابن هشـام بسند حسن عـن محمد بن كعب القرظي مـرسلاً ووصله عبد بن حميـد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضـي الله عنه كما في تفسير ابن كثير ٩٠/٤-٩١ وسنـده حسـن إن شـاء اللـه. انظـر تحقيـق الشيخ الألباني لفقه السيرة للغزالي ص١١٦

(٣) جزء من الآية رقم ٦ من سورة التوبة.

(٤) هـو جنـدب بن جنادة الغفاري أحد السـابقين الأولين مـن نجبـاء أصحـاب محمد صلى الله عليه وسلم قيل كان خامس خمسة في الإسلام ثم رجع إلى بلاده وأقام فيهـا بأمر النبي صلى الله عليـه وسلم فلما هاجر النبي صلى اللـه عليه وسلم هاجر إليـه أبو ذر رضـى الله عنه ولازمـه وجاهد معه وكان يفتى في خلافـة أبي بكـر وعمـر وعثمان رضى الله عنهـم أجمعين وكان رأسا في الـزهد والصـدق والعلم والعمل، مات سنة ٣٢هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٦/٢، الإصـابة ٦٣/٤ في باب الكنى برقم ٣٨٤

-أخو أبي ذر- حتى أتى مكة فراث عليّ ثم جاء فقلت: ماصنعت؟ قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله قلت : فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر كاهن ساحر وكان أنيس أحد الشعراء قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فماهو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فمايلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.(١)

وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخٰلقون أم خلقوا السمٰوٰت والأرض؟ بل لايوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) كاد قلبي أن يطير".(٢)

قال الخطابي: إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة فاستدركها واستشف معناها بذكى فهمه.(٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة وحسبى ماذكرت.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩١٩/٤-١٩٢٠ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٨) رقم الحديث ١٣٢-٢٤٧٣

(٢) تقدم تخريجه ص ٤٤٨

(٣) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ١٩١٢/٣

المبحث الخامس

الدعوة إلى إحياء القلوب الميتة بالرجوع إلى الله عز وجل والبشارة بإمكانية ذلك

إن موت القلب لايعتبر أمراً لانجاة منه كما يفهم ذلك الجبرية وإنما القلب يموت ويقسو لوجود أسباب ذلك والنجاة من ذلك أمر ممكن بترك المعاند لعناده والمقلد لتقليده إيثاراً للحق الذي يقوم عليه الدليل.(١)

ولذلك قال تعالى بعد أن عاتب المؤمنين استبطاء منه تعالى لقلوبهم بقوله: (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتٰب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فٰسقون).

قال تعالى بعد ذلك: (اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الأيٰت لعلكم تعقلون).(٢)

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدى الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها فكما يحي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ماكانت مقفلة لايصل إليها الواصل فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.(٣)

---

(١) انظر تفسير المنار ٤٦٤/١١

(٢) الآية ١٧ من سورة الحديد.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٧/٨

وقال تعالى في آية أخرى: (أو من كان ميتاً فأحيينٰـه وجعلنا له نوراً يمشـى به في النـاس كمن مثلـه في الظلمٰـت ليس بخارج منهـا كـذلك زين للكٰفرين فيه ماكانوا يعملون).[١]

قـال ابن كثير رحمه الله: هـذا مثل ضربه الله تعـالى للمـؤمن الذى كان ميتاً أي في الضلالة هالكـاً حائراً فـأحياه اللـه، أي أحيـا قلبـه بالإيمان وهـداه لـه ووفقه لاتباع رسلـه (وجعلنـا له نوراً يمشـى به في النـاس) أي يهتدى كيف يسلك وكيف يتصرف به.[٢]

والنـور هـو القرآن كمـا روى عن ابن عباس رضـى اللـه عنهما.[٣]

وقال السدي: الإسلام.[٤]

قال ابن كثير: والكل صحيح.[٥]

فـالقرآن حياة القلوب والأسماع والأبصار، وهو يدخل القلـوب التى تأخذه بحسبها فقلب كبير يسع علماً عظيماً وقلب صغير يسع بحسبه.

فـإذا دخل القلـوب خالـط مـافيها مـن الشبهات والشهـوات ليقلعهـا ويذهبهـا كما يثير الدواء وقـت شربه من البدن أخلاطـه وهذا من تمام نفع الـدواء فإنه آثارها ليذهب بهـا فإنه لايجامعها ولا يسـاكنها فكذلك ما أنزله الله من العلم والهدى لايساكن الضلال في قلب واحدٍ البتة.

واقرأ في ذلك قوله تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وممـا يوقدون عليه في النار ابتغـاء حلية أو متـٰع

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٢٢

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨/٢٣

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) تفسير القرن العظيم ٣/٣٢٢

زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والبٰطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال).[١]

فشبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض وشبه القلوب بالأودية التي تختلف في الكبر والصغر وشبه الوحي أيضاً بالنار وشبه الشهوات والشبهات التى تحملها القلوب بالخبث الذي يحمله الذهب أو الفضة أو غيره من المعادن ويخرج عند السبك.[٢]

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد.

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ص١١-١٢

الخاتمـــة

وبعـد هذه الجولة المباركـة في رحاب كتاب ربنا الكـريم فإنني أحمده تعـالى الذي بحمده تتم الصـالحات، أحمده على توفيقـه وامتنـانه وأسأله أن يبارك هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يجزل لى ولـوالدي ولكـل مـن أعانني فيه الأجر والمثـوبة يوم العـرض عليـه إنه جواد كـريم.

وفيمـا يلى سـأذكر بعض الأمـور التى توصلـت إليهـا مـن خلال هذا البحــــث:

أولاً: أن المراد بالقلـب هـو تلـك اللطيفـة الربانيـة التي تعقـل وتحب وتؤمـن وتخاف وترجو وتطمئن وغير ذلـك من أعمال القلـب ولـه اتصال بالقلب البشري المحسوس وله اتصال كذلك بالدماغ وسـائر أعضاء الإنسان يأمرها وينهاها فهو القائد وهي الجنود.

ثانياً: أن القلب ينقسم باعتبار أوصافه إلى ثلاثة أقسام: سليم، ومريض، وميت، ولكل من هذه الأقسام صفات معينة تقوم بالقلب.

ثالثاً: أن لسلامـة القلب أسباباً لابد من القيام بهـا حتى يتحقق للقلب ذلك وتتبع السلامة هذه الأوصاف وجوداً وعدماً وقوة وضعفاً.

رابعاً: أن مـرض القلب نوعان: نوع مـؤلم في الحال، ونوع مـؤلم عنـد ظهور ثماره وعواقبه لأن غلبة الشهوة ولذة المعصية حالتـا بين الشعور بالألم مع وجوده فإذا انقطعت الشهوة وزالت اللذة ظهر الألم جلياً قوياً.

خامساً: أن لمرض القلب أسباباً لابد من الحذر منها.

سادساً: أن موت القلب حدث عظيم وأمر خطير يوقـع صاحبه في أسوأ الأوصـاف وأخسها التي لا ترتضيهـا العقول السليمة ولا الفطـر المستقيمـة فضلاً عن الشرع القويم.

سابعاً: أن معالجة القلب المريض والميت لابد أن تكون وفق المنهج الذي ذكره الله عز وجل في كتابه وذكره رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته لأن أعلم الناس بالخلق هو خالقهم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[1].

ثامناً: عظم هذا الكتاب العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في أسلوبه ونظمه ومعانيه فألفاظ سهلة قصيرة تحمل من المعانى الشيء الكثير الذى لو كتبت فيه الكتب بنظم البشر لعجزت أن تفى بما حملته تلك الألفاظ القرآنية القليلة وتراكيب متناسقة بأساليب متنوعة لايتطرق معها الملل إلى القارىء بل تزيده شوقاً إلى شوقه ومحبة إلى محبته وقرباً إلى قربه، تفتح القلوب المغلقة وتهديها إلى الصراط المستقيم.

تاسعاً: قلة علم المخلوق إذا قورن بعلم الله عز وجل كما قال تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)[2] فكل ماوقع في يدى من كتب البشر وأفدت منه مفتقر إلى كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم محتاج إليه فهو إما شرح له أو فهم أوتيه رجل لكلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ثم مع هذا ففي الكتب البشرية نقص وعيب وخلل مهما كان كاتبها ينزه عنه كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: (أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلٰفاً كثيراً).[3]

عاشراً: رحمة الله عز وجل بعباده ولطفه بهم حيث إنه اهتم بما يصلح حالهم ويسعدهم في الدارين فأنزل إليهم مايهديهم ويشرح صدورهم وينير

---

(١) آية رقم (١٤) من سورة الملك.
(٢) جزء من الآية (٨٥) من سورة الإسراء.
(٣) الآية (٨٢) من سورة النساء.

قلوبهم مع غناه تعالى وعدم احتياجه لأحد من خلقه.

أحد عشر: أهمية القلوب وأنها هى التى تنجي عند علام الغيوب ولذلك فإعطاؤها وقتاً كبيراً من البحث والنظر فيما يصلحها ويقيم حالها أمر مهم جداً لترتب السعادة والشقاوة الأبدية على ذلك.

إثنا عشر: معرفة بعض السنن الربانية التى تحكم حياة البشر والتى يؤدى جهلها إلى عواقب وخيمة.

ثلاثة عشر: أهمية التفسير الموضوعي لبحث كثير من الموضوعات التى طرقها القرآن الكريم مما في شأنه إظهارها وتوضيحها من خلال الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة وأقوال الصحابة وما تقتضيه اللغة العربية.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

فهـــرس الفهــارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهـرس الأشعـار

فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة في الهامش

فهرس الأعلام المترجمين

فهرس المصادر والمراجع

١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية:
تأليف أبي عبدالله عبيدالله بن محمد بن بطة العكبري، ت. رضا بن نعسان معطى، نشر دار الراية، الرياض، ط. الأولى ١٤٠٩هـ

٢- أحكام القران:
لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، ت. علي محمد البجاوي، نشر دار المعرفة، بيروت- لبنان.

٣- إحياء علوم الدين:
تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي وبذيله كتاب، المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار للعراقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.

٤- أسباب النزول:
تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تخريج عصام بن عبدالمحسن الحميدان، نشر دار الإصلاح الدمام، ط. الأولى ١٤١١هـ.

٥- الاستقامة:
لابن تيمية أبي العباس تقى الدين أحمد بن عبدالحليم، ت. الدكتور محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

٦- الاستيعاب:
للقرطبي المالكي، المطبوع مع الإصابة، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٧- أسد الغابة:
لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، ت. محمد إبراهيم البنا - محمد أحمد عاشور، محمود عبدالوهاب فايد، ط. الشعب.

٨- الإصابة:
لابن حجر العسقلاني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٩- أصول التربية الإسلامية وأساليبها:
لعبدالرحمن النحلاوي، نشر دار الفكر، ط. الأولى ١٣٩٩هـ.

١٠- أضواء البيان:
تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط. ١٤٠٨هـ.

١١- الأعلام للزركلي:
تأليف خير الدين الزركلي، نشر دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط. السابعة ١٩٨٦م.

١٢- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري:
للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، ت. الدكتور محمد بن سعد آل سعود، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
١٣- أعلام الموقعين:
تأليف شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بأبن قيم الجوزية، ت. محمد عبدالسلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤١١هـ.
١٤- أعلام النساء:
تأليف عمر رضا كحالة، نشر مؤسسةالرسالة، بيروت - لبنان، ط.العاشرة ١٤١٢هـ.
١٥- إغاثة اللهفان:
تأليف أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، ت. محمد حامد الفقى، نشر دار المعروفة، بيروت - لبنان.
١٦- اقتضاء الصراط المستقيم:
تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، نشر دار الفكر.
١٧- الأمثال في القرآن الكريم:
للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، ت. إبراهيم بن محمد، نشر مكتبة الصحابة بطنطا، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
١٨- الإنصاف حاشية على الكشاف:
المطبوع مع الكشاف، للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري المالكي، ط. الحلبية بمصر، ط. الأخيرة ١٣٩٢هـ.
١٩- الإيمان:
تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، ت. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتبة أنس بن مالك، ط. ١٤٠٠هـ.
٢٠- الباعث على إنكار البدع والحوادث:
للإمام شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة، ت. مشهور حسن سلمان، نشر دار الراية - الرياض، ط. الأولى ١٤١٠هـ.
٢١- البحر المحيط:
لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، نشر دار الفكر، بيروت - لبنان، ط. الثانية ١٤٠٣هـ.
٢٢- البداية والنهاية:
تأليف أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، ت. د. أحمد أبو ملحم، مهدى ناصر الدين، د. علي نجيب عطوي، علي عبدالساتر، فؤاد السيد. نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٣- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع:
للقاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني، نشر مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
٢٤- البرهان:
للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٢٥- بصائر ذوي التمييز:
تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، ت. الاستاذ محمد علي النجار، نشر وزارة الأوقاف المصرية، ط. الثانية ١٤٠٦هـ.
٢٦- بيان فضل علم السلف على علم الخلف:
تأليف الحافظ ابن رجب الحنبلي، ت. محمد بن ناصر العجمي، نشر دار الصميعي، ط. الثالثة ١٤١٢هـ.
٢٧- تأويل مختلف الحديث:
تأليف الإمام أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت. محمد زهري النجار، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.
٢٨- تاريخ بغداد:
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، نشر دار الفكر.
٢٩- تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك:
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت. محمد أبوالفضل إبراهيم، ط.الثانية، نشر دار المعارف- مصر.
٣٠- التحرير والتنوير:
تأليف الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، نشر الدار التونسية، تونس، ط. ١٩٨٤م.
٣١- تحفة الأحوذي:
تأليف الإمام محمد عبدالرحمن المباركفوري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط. الثالثة ١٤٠٤هـ.
٣٢- التذكرة في الوعظ:
للإمام عبدالرحمن بن علي بن محمد القرشي الملقب بابن الجوزي، ت. أحمد عبدالوهاب فتيح، نشر دار المعرفه، بيروت - لبنان، ط الأولى ١٤٠٦هـ.
٣٣- تذكرة الحفاظ:
للإمام أبي عبدالله شمس الدين الذهبي، نشر دار التراث العربي، بيروت - لبنان.
٣٤- التربية بالآيات:
تأليف عبدالرحمن النحلاوي، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
ط.الأولى ١٤٠٩هـ.

٣٥- التعريفات:
للشريف علي بن محمد الجرجاني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الثالثة ١٤٠٨هـ.

٣٦- تفسير آيات من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عبدالوهاب:
تأليف الإمام محمد بن عبدالوهاب التميمي، ت. د. محمد بلتاجي، نشر أنصار السنة المحمدية.

٣٧- تفسير البيضاوي:
تأليف القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٨- تفسير الخازن:
لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، نشر دار الفكر، ط. ١٣٩٩هـ.

٣٩- تفسير سفيان الثوري:
للإمام أبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، رواية أبي جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي عنه صححه ورتبه وعلق عليه وراجع النسخة وضبط أعلامها، لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

٤٠- تفسير القرآن:
للإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت. د. مصطفى مسلم محمد، نشر مكتبة الرشد، الرياض، ط. الأولى ١٤١٠هـ.

٤١- تفسير القرآن العظيم:
للحافظ ابن كثير، ت. عبدالعزيز غنيم -محمد أحمد عاشور- محمد إبراهيم البنا، نشر دار الشعب، بالقاهرة

٤٢- تفسير القرآن العظيم:
مسنداً عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لأبي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي، ت. د. أحمد عبدالله الزهراني، (المجلد الأول)، ت. د. حكمت بشير ياسين، (المجلد الثاني)، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة، دار طيبة، بالرياض، دار ابن القيم، بالدمام، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

٤٣- التفسير القيم:
للإمام ابن القيم، جمعة محمد أويس الندوي، ت. محمد حامد الفقى، نشر مكتبة السنة المحمدية.

٤٤- تفسير المراغي:
تأليف أحمد مصطفى المراغى، ط. الحلبية بمصر، ط. الخامسة ١٣٩٤هـ.

٤٥- تفسير المنار:
للإمام محمد رشيد رضا، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط. الثانية.
٤٦- تفسير النسائي:
للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، ت. صبري بن عبدالخالق الشافعي، سيد بن عباس الجيلمي، نشر مكتبة السنة، ط. الأولى ١٤١٠هـ.
٤٧- التمهيد:
تأليف محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي، ت. د. مفيد محمد أبو عمشة، نشر دار المدني جده، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
٤٨- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة:
لأبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني، ت. عبدالوهاب عبداللطيف وعبدالله الصديق، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط.الثانية ١٤٠١هـ.
٤٩- تهذيب الأسماء واللغات:
للإمام العلامة أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي، ط.المنيرية.
٥٠- تهذيب التهذيب:
للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٥١- تهذيب اللغة:
لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت. عبدالسلام هارون، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر- الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٤هـ.
٥٢- تيسير العزيز الحميد:
تأليف الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، نشر أنصار السنة المحمدية.
٥٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:
تأليف الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، نشر مؤسسة مكة للطباعة والإعلام بمكة، ط. ١٣٩٨هـ.
٥٤- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن:
للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي.
٥٥- جامع البيان:
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، نشر دار الفكر، بيروت - لبنان، ط. ١٤٠٥هـ.

٥٦- الجامع الصحيح للبخاري:
لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
٥٧- الجامع الصحيح للترمذي:
لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت. أحمد محمد شاكر، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٨- الجامع لأحكام القرآن:
لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط. الثانية.
٥٩- الجواب الصحيح لمن بذل دين المسيح:
لشيخ الإسلام ابن تيمية، قدم له علي السيد صبح المدني، نشر مطبعة المدني، القاهرة.
٦٠- الحديث والمحدثون محمد محمود أبو زهو:
طبع ونشر الرئاسة العامة للإدارات، والبحوث العلمية، والإفتاء، والدعوة، والإرشاد، الرياض ١٤٠٤هـ.
٦١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:
للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، ط.مطبعة السعادة ١٣٩٤هـ.
٦٢- حول التفسير الإسلامي للتاريخ:
تأليف محمد قطب، نشر المجموعة الإعلامية، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
٦٣- خريدة القصر وجريدة العصر:
للعماد الأصفهاني، الكاتب قسم شعراء المغرب والأندلس، ت. آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر ١٩٧١م.
٦٤- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب:
لعبدالقادر البغدادي، نشر دار صادر- بيروت.
٦٥- درء تعارض العقل والنقل:
لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، ت. د. محمد رشاد سالم، نشر مكتبة ابن تيمية.
٦٦- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:
لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، ت. محمد سيد جادالحق، نشر دار الكتب الحديثة.
٦٧- الدر المصون:
تأليف أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ت. د. أحمد محمد الخراط، نشر دار القلم، دمشق، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.

٦٨- الدر المنثور:
للإمام جلال الدين السيوطي، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٦٩- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب:
للشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٧٠- دلائل النبوة:
لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت. د. عبدالمعطي قلعجى، نشر دار الريان للتراث، القاهرة، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
٧١- ديوان حسان بن ثابت:
ترتيب عبدالأمير مهنا، نشر دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
٧٢- رسالة في القلب:
تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، ت. سليم بن عيدالهلالي، نشر دار ابن الجوزي، ط. الأولى ١٤١١هـ.
٧٣- الرعاية لحقوق الله:
لأبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي، ت. عبدالقارد أحمد عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الرابعة.
٧٤- الروح:
تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، ت. محمد اسكندريلدا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٢هـ.
٧٥- روح المعاني:
لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط.الرابعة ١٤٠٥هـ.
٧٦- الروض المربع:
لمنصور بن يونس البهوتي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط. السابعة.
٧٧- روضة التعريف بالحب الشريف:
للوزير لسان الدين بن الخطيب، ت. عبدالقادر أحمد عطا، نشر دار الفكر العربي.
٧٨- روضة المحبين ونزهة المشتاقين:
لابن قيم الجوزية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٧٩- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين:
لمحمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضى بعنيزة، ط. الحلبية بمصر ١٤٠٠هـ.
٨٠- الزهد:
للإمام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ط. أم القرى.

٨١- سلسلة الأحاديث الصحيحة:
للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، ط. ١٤٠٥هـ.
٨٢- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة:
للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الأسلامي، ط. ١٤٠٥هـ.
٨٣- سنن الدارمي:
للإمام أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، نشر دار إحياء السنة النبوية، دار الكتب العلمية.
٨٤- سنن أبي داود:
للإمام أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدي، ت. محمد محي الدين عبدالحميد، نشر دار الفكر.
٨٥- سنن ابن ماجة:
للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، ت. محمد فؤاد عبدالباقي، نشر المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
٨٦- سنن النسائي:
بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، ت. عبدالفتاح أبو غدة، نشر دار البشائر الإسلامية مصورة عن الطبعة الأولى المصرية في القاهرة، ط. الثانية ١٤٠٦هـ.
٨٧- سير أعلام النبلاء:
تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، بأشراف وتخريج شعيب الأرنؤوط، تحقيق حسين الأسد، نشر مؤسسة الرسالة، ط. الرابعة ١٤٠٦هـ.
٨٨- شذرات الذهب:
للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي، نشر دار الفكر، ط. الأولى ١٣٩٩هـ.
٨٩- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة:
للالكائي، ت. أحمد سعد حمدان، نشر دار طيبة، بالرياض.
٩٠- شرح العقيدة الطحاوية:
للعلامة إبن أبي العز الحنفى، ت. جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الخامسة ١٣٩٩هـ.
٩١- شرح فتح القدير:
لكمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفى، علي الهداية: شرح بداية المبتدى للمرغيناني، ط. الحلبية، الأولى ١٣٨٩هـ.

٩٢- شرح الكوكب المنير:
تأليف العلاقة محمد بن أحمد بن عبدالعزيز ابن علي الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار، ت. د. محمد الزحيلي، د. نزيه حماد، نشر دار الفكر، بدمشق، ط. ١٤٠٠هـ.

٩٣- شرح مختصر أصول الفقه:
للشيخ تقى الدين أبي بكر بن زيد الجراعي المقدسى الحنبلي، رسالة ماجستير في قسم أصول الفقه، في الجامعة الإسلامية، ت. عبدالعزيز محمد عيسى القائدي.

٩٤- شرح النووى على صحيح مسلم:
للإمام أبي زكريا يحي بن شرف النووى، نشر دار الكتب العلمية.

٩٥- الشعر والشعراء:
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، نشر دار صادر، ط. مطبعة بريل - ليدن ١٩٠٢م.

٩٦- شفاء العليل:
للإمام العالم ابن قيم الجوزية، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٩٧- صحيح الجامع الصغير وزيادته:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعة زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، ط. الثانية ١٤٠٦هـ.

٩٨- صحيح سنن الترمذي:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

٩٩- صحيح سنن أبي داود:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

١٠٠- صحيح سنن ابن ماجه:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

١٠١- صحيح سنن النسائي:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

١٠٢- صحيح مسلم:
للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت. محمد فؤاد عبدالباقي، نشر دار التراث العربي، بيروت، ط. الثانية ١٩٧٢م.

١٠٣- صفة الصفوة:
للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ت. محمود فاخوري، خرج أحاديثه، د. محمد رواس قلعه جي، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط. الثالثة ١٤٠٥هـ.
١٠٤- صفة الغرباء من المؤمنين:
تأليف الحافظ أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ت. بدر بن عبدالله البدر، نشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، ط. الثانية ١٤٠٧هـ.
١٠٥- صفوة الآثار والمفاهيم:
للشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري، ط. الثانية ١٤٠٤هـ.
١٠٦- الصلاة في القرآن الكريم -مفهومها- وفقهها:
تأليف د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، ط.الأولى ١٤٠٩هـ.
١٠٧- الصواعق المرسلة:
تصنيف الإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد ابن ابي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، ت. د. علي بن محمد الدخيل الله، نشر دار العاصمه الرياض، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
١٠٨- ضعيف سنن الترمذي:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي.
١٠٩- طبقات الحنابلة:
للقاضى أبي الحسين محمد بن أبي يعلي، نشر دار المعرفة - بيروت.
١١٠- طبقات الشافعية:
لجمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي، ت. عبدالله الجبوري، نشر مطبعة الإرشاد، بغداد ط. الاولى ١٣٩١هـ.
١١١- طبقات الشافعيه الكبري:
لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب ابن تقي الدين السبكي، ط. الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية.
١١٢- الطبقات الكبري:
لابن سعد
١١٣- طبقات المفسرين:
تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد الداوودي، راجع النسخة: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

١١٤- طبقات المفسرين:
تصنيف الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر السيوطي. راجع النسخة، لجنة من العلماء بإشراف الناشر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
١١٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين:
للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ت. عمر بن محمود أبو عمر، نشر دار ابن القيم، ط. الاولى ١٤٠٩هـ.
١١٦- العبودية:
تأليف شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠١هـ.
١١٧- عدة الصابر وذخيرة الشاكرين:
تأليف الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت. محمد عثمان الخشت، نشر دار الكتاب العربي، ط. الرابعة ١٤١٠هـ.
١١٨- العدة في أصول الفقه:
تأليف القاضي أبي يعلي محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي، ت. د. أحمد ابن علي سير المباركي، ط. الثانية ١٤١٠هـ.
١١٩- العقيدة الواسطية:
لشيخ الإسلام ابن تيمية، مع شرحها لمحمد خليل هراس.
طبع ونشر الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض - السعودية.
١٢٠- علماء نجد خلال ستة قرون:
للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام. نشر مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة، ط. الأولى ١٣٩٨هـ.
١٢١- غذاء الألباب:
تأليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي، نشر مؤسسة قرطبة.
١٢٢- الفائق:
للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت. علي محمد الجباوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. الحلبيه بمصر، ط. الثانية.
١٢٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري:
للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط. السلفية ١٣٨٠هـ.
١٢٤- فتح القدير:
تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط. الحلبيه بمصر، ط. الثانية ١٣٨٣هـ.

١٢٥- فتح المجيد:
تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ت. سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، نشر دار الفكر، ط. ١٤٠٩هـ.
١٢٦- الفتوحات الإلهية:
تأليف سليمان عمر العجيلى الشافعي الشهير بالجمل، ط. الحلبية بمصر.
١٢٧- الفرق بين الفرق:
للإمام عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرايئنى التميمى، ت. محمد محي الدين عبدالحميد، نشر دار المعرفة للطباعة - بيروت.
١٢٨- فقه الإسلام شرح بلوغ المرام:
تأليف عبدالقادر شيبه الحمد، ط. مطابع الرشيد المدينة.
١٢٩- فقه الزكاة:
للدكتور يوسف القرضاوي، نشر مؤسسة الرسالة، ط. السادسة عشر ١٤٠٦هـ.
١٣٠- فقه السيرة:
لمحمد الغزالي، نشر دار الكتب الإسلامية، ط. الثامنة ١٤٠٢هـ.
١٣١- الفوائد:
للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية، ت. بشير محمد عيون، نشر مكاتبة دار البيان دمشق، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.
١٣٢- الفوائد البهية في تراجم الحنفية:
للعلامة أبي الحسنات محمد عبدالحي اللكنوي الهندي
مع التعليقات السنية على الفوائد البهية، ط.الأولى ١٣٢٤هـ، ط. مطبعة السعادة - مصر.
١٣٣- في ظلال القرآن:
لسيد قطب، نشر دار الشروق، ط. التاسعة ١٤٠٠هـ.
١٣٤- قاموس القرآن:
للفقيه المفسر الجامع الحسين بن محمد الدامغاني، ت. عبدالعزيز سيد الأهل، نشر دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط. الخامسة ١٩٨٥م.
١٣٥- القاموس المحيط:
للفيروز آبادي، ت. مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، نشر مؤسسة الرسالة، ط. الثانية ١٤٠٧هـ.
١٣٦- الكامل:
تأليف الشيخ العلاقة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير، نشر دار صادر، بيروت، ط. ١٤٠٢هـ.

١٣٧- الكبائر:
تأليف الحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت. محي الدين مستو، نشر دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ.
١٣٨- الكشاف:
تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي، حقق الرواية محمد الصادق قمحاوي، نشر مكتبة ابن تيمية، ط. الحلبية بمصر، ط. الأخيرة ١٣٩٢هـ.
١٣٩- كشف الأسرار:
تأليف الإمام علاء الدين عبدالعزيز بن أحمد البخاري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط. ١٣٩٤هـ.
١٤٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:
لمصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي المعروف بحاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٤١- كلمة الإخلاص وتحقيق معناها:
تأليف الحافظ ابن رجب الحنبلي، ت. عماد طه فرة، نشر دار الصحابة للتراث، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
١٤٢- كيف نفهم التوحيد:
بقلم محمد أحمد باشميل، نشر الجامعة الإسلاميه بالمدينة المنورة، ط.الثالثة ١٤٠٨هـ.
١٤٣- لسان العرب:
للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى المصري، نشر دار صادر.
١٤٤- مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب:
صنفها وأعدها للتصحيح تمهيداً لطبعها، ١-عبدالعزيز بن زيد الرومي. ٢- محمد بلتاجي. ٣- سيد حجاب. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٤٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مؤسسة قرطبة.
١٤٦- مختصر معارج القبول:
للشيخ حافظ ابن أحمد آل حكمي، اختصره أبو عاصم، هشام بن عبدالقادر بن محمد آل عقده، نشر دار الصفوة، ط. الثانية ١٤١٢هـ.
١٤٧- مدارج السالكين:
للإمام السلفي أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، ت. محمد حامد الفقى، نشر مكتبة السنة المحمدية.

١٤٨- المستدرك:
للإمام الحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٤٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل:
نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، عن طبعة المطبعة الميمونية.
١٥٠- مسند الإمام أحمد:
ت. أحمد شاكر، نشر دار المعارف بمصر، ط. ١٣٦٩هـ.
١٥١- المسودة:
صنفه: ١- مجد الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله. ٢- شهاب الدين أبو المحاسن عبدالحليم بن عبدالسلام. ٣- شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبدالحليم جمعها وبيضها، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الحراني الدمشقي، ت. محمد محي الدين عبدالحميد، ط. مطبعة المدني، القاهرة.
١٥٢- مشكاة المصابيح:
تأليف محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، ت. محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، ط. الثالثة ١٤٠٥هـ.
١٥٣- المصباح المنير:
تأليف العالم العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، نشر مكتبة لبنان.
١٥٤- المطلع على أبواب المقنع:
للإمام أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، نشر دار الفكر.
١٥٥- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد:
تأليف الشيخ حافظ بن أحمد حكمي، ط. السلفية.
١٥٦- معالم التنزيل:
للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، ت. ١- خالد عبدالرحمن العك. ٢- مروان سواد، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٥٧- معالم في التربية:
تأليف د. عجيل جاسم النشمي، نشر مكتبة المنار الإسلامية الكويت، ط. الأولى ١٤٠٠هـ.
١٥٨- معاني القرآن وإعرابه:
لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، ت. د. عبدالجليل عبده شلبي، ط. الأولى ١٤٠٨هـ، نشر عالم الكتب - بيروت.
١٥٩- المعجزة الكبرى القرآن:
للإمام محمد أبو زهره نشر دار الفكر العربي.

١٦٠- معجم المؤلفين:
تأليف عمر رضا كحالة، نشر دار إحياء التراث العربي.
١٦١- معجم مقاييس اللغه:
لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت. عبدالسلام محمد هارون، ط. الحلبية الثانية ١٣٩٠هـ.
١٦٢- المغني:
تأليف أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.
١٦٣- مفاتيح الغيب:
للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري، نشر دار الفكر، ط. الثالثة ١٤٠٥هـ.
١٦٤- المفردات:
تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت. محمد سيد كيلاني، نشر دار المعرفة بيروت - لبنان.
١٦٥- الملل والنحل:
لإبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ت. محمد سيد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٦٦- مناهل العرفان:
للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ت. أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
١٦٧- منهاج السنة:
لابن تيمية ابى العباس تقى الدين أحمد بن عبدالحليم، ت. د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط. الأولى ١٤٠٦هـ،
١٦٨- منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب:
لمحمد قطب، نشر دار الشروق، ط. الحادية عشرة ١٤٠٨هـ.
١٦٩- ميزان الاعتدال:
لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت. علي محمد البجاوي، ط. دار إحياء الكتب العربية، ط. الأولى ١٣٨٢هـ.
١٧٠- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار:
للحافظ ابن حجر العسقلاني، ت. حمدي عبدالمجيد السلفي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط. الاولى ١٤١١هـ.

١٧١- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر:
لجمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، ت. محمد عبدالكريم كاظم الراضي، نشر مؤسسة الرسالة، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ.
١٧٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:
للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نشر دار صادر - بيروت، ط. ١٣٨٨هـ.
١٧٣- النكت والعيون:
لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، ت. خضر محمد خضر، نشر وزارة الأوقاف الكويتية، ط. الاولى ١٤٠٢هـ.
١٧٤- النهاية في غريب الحديث والأثر:
للإمام مجدالدين أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري، ت. طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. نشر المكتبة العلمية، بيروت.
١٧٥- الهوى وأثره في الخلاف:
لفضيلة الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان، نشر دار الوطن - الرياض، ط. الاولى ١٤١٢هـ.
١٧٦- وفيات الأعيان:
لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان، ت. د.إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
توطئة وشكر	٢
سبب اختيار الموضوع	٣
خطة البحث	٤
منهجي في الرسالة	٨
التمهيد	٩
تعريف القلب والمراد به في الكتاب والسنة	١٠
علاقة القلب بالعقل	١٢
الباب الأول: حديث القرآن عن القلب السليم	١٥
الفصل الأول: أوصاف القلب السليم	١٦
المبحث الأول: الهداية	١٧
المبحث الثاني: العلم	٢٤
المبحث الثالث: العبودية	٣١
المبحث الرابع: الإيمان	٦٤
المبحث الخامس: اليقين	٧٢
المبحث السادس: المحبة	٧٧
المبحث السابع: الرجاء والخوف	٩٢
المبحث الثامن: الوجل	١٠٣
المبحث التاسع: الخشوع	١١٤
المبحث العاشر: الإخبات	١٢١
المبحث الحادي عشر: الإنابة	١٢٣
المبحث الثاني عشر: التقوى	١٢٨
المبحث الثالث عشر: المراقبة	١٣٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة